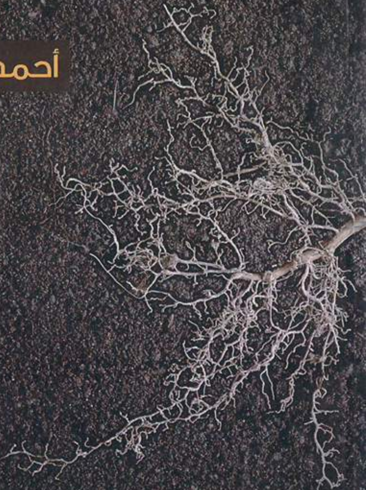
رواية

الدين الرابع

أحمد إبراهيم



إبداع

الكتـــــاب: الدين الرابع
المـؤلـــف: أحمد إبراهيم
الغــــلاف: أ/ علاء عبدالرحمن
المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة
رقـم الإيـداع: 2014 / 25463
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 779 - 008 - 6
الإخراج الفني: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة
هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403
الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني:info@ibda3-tp.com

الدين الرابع

رواية

أحمد إبراهيم

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

لا تُجهدْ نفسك بقراءة السطور، بقليلٍ مِن العناء اعبُرْها، فما بينها عالمٌ آخرُ رُبَّما لم تعِ وَجوده يومًا ما، وما وراءها تكمُنُ حقيقةٌ طالما تناسيناها قسرًا، خوفًا منها، أو مِنّا.

القانون رقم (١)

«يتوقّف الكثير على سُمعتك، فحافظْ عليها بِحياتك»

السُّمعة هي حجر الأساس في السُّلطة، وعن طريقها تستطيع أنْ تسيطر وتفوز.

اجعلْ سُمعَتك منيعةً تستعصي على الهجوم، وكنْ يَقظًا على الدوام إزاء الهجمات المُحتَملة وأَحبِطْها قبل وقوعها.

تعلّمْ كيف تدمِّر أعداءك بفتح ثغراتٍ في سمعاتِهم، ثمّ قِفْ جانبًا واترك الرأي العام يشنُقُهم.

١

القاهرة - ٢٠٠٨

تُومِضُ ابتسامته الساحرة مِن طَرْفٍ خفيٍّ بوجهه، مُوحيةً براحةٍ وهدوءٍ مُحبَّبيْن، مع ثقةٍ بالنفس لامحدودة، شعرُه المصفّفُ بعنايةٍ ينساب للخلف بنعومةٍ وحريةٍ تتدلّى منه خصلةٌ جانبيّةٌ بعفويةٍ مُحبَّبة، نظارته الـ Ray Ban الإيطالية بإطارها الفضيّ وزجاجها الرماديّ المائل للسواد تُخفي عينيْن واسعتيْن تفيضان بالثقة، ساعةُ يده الـ Rolex السويسرية تُحيط ساعده بأناقةٍ وثبات، بذلته الـ Pierre Cardin الشبابيّة السوداء تُضفي عليه ذلك المظهر الجادّ لرجال الأعمال المتأنّقين؛ مع خطوطٍ طوليّةٍ بيضاءَ بالكاد تطفو على الهامش، تحفظُ له طابع الشباب العصريّ.

عطرُه الـ Clive Christian المُميّز برائحته المذهلة، عطرٌ فريدٌ يَحوي مزيجًا مِن الياسمين والقرنفل والليمون والبرجموت، جميعُها تُضفي عليه

هالةٌ مِن الاحترام والتقدّيس الساحر.

وجهُه المستدير وعيناه الواسعتان تُشعّان ذكاءً نادرًا؛ ذكاءً تراه في كلّ قسمةٍ مِن قسمات وجهه الوسيم مع غمازتيْ خدّيْه وذقنه الحليق بعناية وابتسامتِه الواثقة، كلُّ ذلك يجعل منه لوحةً متكاملةً لذلك المُلهِم الواعد.

حازم السعدنيّ، أحدُ أشهر الوجوه الشابّة المؤثِّرة في مصر، بل هو الأكثر تأثيرًا على الإطلاق، قُدوة الشباب وحلم الفتيات، ذلك الذي تربَّع على عرش التنمية البشريّة في مصر والوطن العربي.

مَلَك عقول أبنائها وقلوبهم بكلماته التحفيزيّة ومحاضراته التي تملأ ساحات الجامعات وفضاء الإنترنت ومساحات التخزين بأجهزة الحواسيب الشخصية لعدّة سنوات. مؤلفاتُه التي تتربع على عرش الأكثر مبيعًا في دُور النشر والمكتبات.

سعيُه الـدؤوب لنشر الوعي والارتقاء بفكر الشباب وإطلاق قُدُراتهم اللامحدودة للإسهام في نهضة الأمّة واستعادة أمجادها المفقودة، مِن خلال إيمانه بقدرة هذا الجيل وريادته؛ جيل الشباب.

حازم السعدنيّ، الشابُّ الثلاثينيُّ الوسيم المثقّف المُتديّن القائد القدوة والمثل الأعلى، صاحب المدرسة الأكثر شهرةً في عالم التنمية البشريّة في الوطن العربي، ورئيس مجلس إدارة المجلس الدوليّ لتنمية الذات، ومؤسسة العطاء الخيرية، حاصلٌ على العديد مِن رسائل الماجستير والدكتوراة في علوم التنمية والإرشاد وعلم النفس والاجتماع مِن كُبرى الجامعات الدوليّة.

طاف الكرة الأرضيّة جميعَها مُلهِمًا وقائدًا لآلاف الشباب، ساعيًا لنشر رسالته الأسمى؛ نهضة هذا الوطن.

أحدُ أكثر الشخصيات تأثيرًا في الوطن العربيّ حسب استطلاعات الرأي الدولية الصادرة عن تقرير لجنة التنمية الخاصّ بمنظمة الأمم المتحدة.

- أرجو إنّي أكون قدرت أغطّي كلّ حاجة في المقدمة دي يا دكتور، أنا فعلاً مبهورة بيك وعارفة إني مهما إتكلمت عنك مش هقدر أوفيك مكانتك طبعًا.

قالتْها المذيعةُ الشقراء بإعجابٍ حقيقيٍّ بعد أنْ أنهت لتوّها المقدمة التي ظلّتْ تُراجِعُها مع فريق الإعداد لفترةٍ طويلة قبل بدء الحلقة، خوفًا منها أنْ تُهمِل أو تُسقِط من حساباتها تفصيلةً هامّةً في إنجازات ضيفها، ظلّتْ لشهورٍ تُعدُّ العُدّةَ لهذه الحلقة، ترى فيها نقلةً هائلةً في مشوار حياتها المِهْنيّة ليس فقط لأهميّة ضيفها وشهرته بين أوساط الشباب، ولا لندرة ظهوره في أيّ برامجَ حواريّة، ولكنْ لنسبة الإعلانات التي انهالتْ على القناة بمجرّد التنويه بموعد الحلقة!

وبابتسامة تملأ وجهها المُجهد مِن مساحيق التجميل ومقاومة الإضاءة المُبهرة لكشّافات التصوير، ظلّتْ تتطلّع إلى ضيفِها في انبهار.

- ربّي إذا وهبتني نجاحًا فلا تنزعْ تواضعي، ده اللي أقدر أرد بيه على المقدمة الهايلة دي يا دينا. واللي أتمنى أنها تكون حقيقية أو إني أستحقها

فعلاً، فريق الإعداد بيبالغ جدًا، يا خبر! أنا عملت كل ده؟ إمتى وإزاي؟ أنا حاسس إني لسه في البداية معملتش أي حاجة أصلاً، لسه المشوار في أوّله.

أنهى جملته ناظرًا إلى الكاميرات مشيرًا بيده علامة أنّ المشوار لم يبدأ بعد، كعادته دومًا في شرح معلوماته ومحاولة إضفاء طابع تفاعليٍّ عليها باستخدام حركات يديْه التعبيريّة، بمهارةٍ اكتسبها بالدراسة وأثقلها بخبرات تدريبية مُتعددة في مختلف المحاضرات التي ألقاها سابقًا.

بذهول تتطلّع المذيعة لكَمِّ الإنجازات الماثلة على الورق أمامها، التي تكفي جيلاً بأكمله للتباهي بها والتشدُّق بغرورٍ كيف أمكنهم فعلُ كذا أو الحصول على كذا وكذا. ترفع بصرها للجالس أمامها غير مُصدِّقة نبرة التواضع في كلمات ضيفها كأنّه يتحدّث عن وجبة إفطاره اليوم كَمْ كانت مُمتعةً، غير عابئ بالشهرة والأضواء المُسلّطة على كلِّ تفاصيل حياته قائلة:

- إزاي يا دكتور حضرتك بتقول كده؟ بقى كلّ الإنجازات والنجاحات دي، وكمان شاب وسيم وأعزب -اللهم لا حسد- وحضرتك بتقول لسه معملتش حاجة!!

بابتسامته الهادئة يُجيبها:

- طبعًا يا دينا، معملتش حاجة، لسّه الشباب مش عارف يشتغل لإنّ سوق العمل عايز مواصفات مش موجودة في خريج الجامعة. الفجوة اللي خلقها تراكم أكاديمي عقيم أدّت لانفصال شبابنا عن واقع القطاع الخاص

ومتطلباته. وده اللي بيخلي الشاب من دول يفضل يدرس حوالي ١٦ سنة أو أكثر، علشان في الآخر يتخرّج فيدوّر على كورس في اللغة أو الكمبيوتر يشتغل بيه مندوب مبيعات أو كاشير في مول أو سوبر ماركت، مع احترامي الكامل طبعًا للوظايف دي واللي بيشتغلوا فيها، الفكرة إنه مقدرش يستفيد من كلّ اللي اتعلمه طول حياته، ولا حتى اشتغل بتخصصه!

لسه البنات مش عارفة تعيش مع مجتمع مش قادر يعترف إنها نُصّ المجتمع غير في إعلانات تنظيم الأسرة وسهرات عيد الأم، وكلّ يوم بيمتهن كرامتها في الشارع والمواصلات أو حتى في العمل! التحرُّش بقى سمة أساسية في مجتمع، كلّ يوم بتتآكل أخلاقه ومبادئه. فالبنت بتهرب لعزلتها الخاصة وممكن تقفل على نفسها حياتها مكتفية بالعالم الافتراضي اللي بتعيشه على الإنترنت بكلّ ما فيه من خير أو شر.

لسّه التعليم بعافية شوية، مبدأ الإجابة النموذجية والاتجاه الواحد لسّه سائد في عقول، المفروض فيها أنها(هتعبر بالبلد للمستقبل) زي ما بنسمع ونشوف!

إزاي هتصنع مستقبل هيّه نفسها مجبرة على كلّ خطوة مشيتها فيه؟ من أول التوقعات المرئية ومراجعات ليلة الامتحان ولحدّ مكتب التنسيق اللي مالوش علاقة بين اللي إنت بتتمناه واللي اتفرض عليك! مفيش تقدُّم قائم على فرض فكر واحد، واللي كان صح زمان ممكن دلوقتي يكون غلط أو حتى مش مناسب لطبيعة الحياة دي.

مستشفياتنا مثلاً غير صالحة للاستهلاك الآدمي، العشرات بيموتوا يوميًا على سلالم الدمرداش وجُوّه عنابر الاستقبال في قصر العيني، فلا هي مُعَدّة لاستقبال المرضى ولا هي مستشفيات أصلاً.

سلوكيات الناس في الشارع برضه غير صالحة للاستهلاك الآدمي! مفيش احترام لنظام ولا قواعد مرور، ولا حتى أدنى درجات النظافة والذوق! شوفي تطور الأغاني الشعبية مثلاً وصل بينا لحدّ فين؛ أغاني كلامها بذيء لا يَرقى لمستوى الكلام، مليان إهانات وشتائم وإيحاءات تخدش الحياء والأخلاق، ده غير كمية الحشيش والخمور اللي بيتغزلوا فيها، حاجة كده تخليكي خايفة تحصل كبسة تقبض عليكي وانتي بتسمعي الأغنية!

الأطفال عندنا بتقعد على القهوة تلعب طاولة وتطلب شيشة، وبرّه بيلعبوا بيانو ويسمعوا بيتهوفن! لسّه الناس بتعاني في الطوابير والمواصلات والشوارع وفي البيوت، نظرة أيّ مجتمع تاني للمصريين بقِتْ بتتلخَص في كلمة المعاناة بكلّ ما فيها من ألم وكآبة ومهانة. المعاناة يا دينا، بقت هي اختصار لتعريف المصري.

لسّه الغني عندنا بيتلخبط بين ماركات عربياته، وبيتوه بين عناوين فيلاته وشاليهاته. والفقير أقصى طموحه يلاقي مكان في أتوبيس الهيئة اللي تذكرته بـ ٥٠ قرش. يلحق يشترى بـ ٢ جنيه عيش، وزَيّهم فول أو جبنة قديمة!! لسّه الحكومة مش واخدة بالها من...

هنا انتفضت المذيعة كَمَن سرى في أوصالها تيارٌ كهربائيٌّ، ولسان حالها يصرخ بأنّ الأمر قد يتطور بما لا تُحمَدُ عُقباه فلا ينقصها من المصائب حتى يُضاف إليها الخوض في السياسة أو انتقاد أداء الحكومة، لذا وَجَبَ التدخُّل لتهدئة الأمور، بهلع حاولت إخفاءه صاحت:

- معاك حقّ طبعًا يا دكتور، لسّه فيه حاجات كتير محتاجة تتعدِّل طبعًا. بس اللي حضرتك بتتكلم عنه ده كتير جدًا عليك، دي أزمات ومشاكل محتاجة بلد بحالها علشان تحِلّها في سنين وسنين، يكفيك إنك قدرت تساهم بنفسك ومؤسساتك الخيرية والتدريبية في الصحوة اللي صداها بيتردد في كلّ أنحاء الوطن العربي. كلامك وكتاباتك خلّتْ الناس تشوف الدنيا بعين وقلب كله أمل وتفاؤل.

خفض رأسه بتواضُعٍ، واسترسل قائلاً:

- مش هابخل لحظة واحدة في عمري على أيّ محتاج، ولن أدّخر جهداً في إني أحوِّل حياة الناس للأفضل دايمًا، طالما جُوّايا نَفَس ونبض. بس طول ما المشاكل دي موجودة يا دينا، يبقى أنا لسه في أول الطريق. ربنا هيسألني عن كلّ شاب قاعد على القهوة حاسس بالضياع، عن كلّ بنت انحرفت علشان معرفتش الصح فين.

رسولنا وقدوتنا -عليه أفضل الصلاة والسلام- كان فرد واحد، حواليه بدو رعاة للغنم ميعرفوش أيّ حاجة في الدنيا غير تجارتهم وشهواتهم وحروبهم اللي

بتقوم ما بينهم على أتفه الأسباب.

قدر يحوِّلهم بفضل الله لقادة العالم كلّه لمئات السنين، نشروا فيها علوم الدين والدنيا وكانوا سبب نهضة أوروبا اللي عانت سنين طويلة من الجهل والظلام الفكري. تصوَّري يا دينا، في الوقت اللي كانت أوروبا بتحرق فيه المرضى العقليين ظنًّا منهم إنّ الشيطان بيسكن جواهم أو أنهم سحرة، كان العرب عندهم مستشفيات لعلاج الأمراض النفسية والعقلية، وفي مصر كان فيه مستشفى مِن دُول موجودة لحدّ دلوقتي.

قاطعته المذيعة مُدَّعيةً المعرفة بثقة:

- طبعًا عارفاها يا دكتور، العباسية! دي من المستشفيات العريقة في العالم كله.

تنحنح بحرج بالغ قائلاً لها:

- لا يا دينا، مش قصدي العباسية. طبعًا كلامك صحيح فيما يخصّ إنّ مستشفى الأمراض النفسية والعقلية (العباسية) من أعرق المستشفيات فعلاً، إلّا أنّ مش ده اللي قصدته، أنا قصدت (بيمارستان المنصور سيف الدين قلاوون) الموجود لحدّ دلوقتي في شارع المعز لدين الله الفاطمي.

والبيمارستان ده عبارة عن مستشفى عامّ كان بيضُمّ أقسام زي الرمد والباطنة وتخصصات تانية كتير، كان ما بينها قسم العلاج النفسي. تصوَّري مِن حوالي ٨ قرون كان عندنا التقدُّم ده!

تدخَّل المذيعة مجددًا لإضافة لمساتها غير المحتملة:

- عارفاه يا دكتور طبعًا، مش دي اللي جنب مسجد عمرو بن العاص في مصر القديمة؟

لم يحتمل حازم السعدني تخبُّط معلوماتها التي لا تفرِّق فيها بين القاهرة الفاطمية ومصر القديمة، فلم يُعلِّق حقنًا للدماء. أكمل وكأنّه لم يسمع شيئًا:

- مُختصر القول يا دينا، أنا عندي رسالة ولازم أحقّقها.

٢

هَوَتْ قبضتُه على سطح المكتب مُحْدِثةً دَويًا هائلًا، أعقبها قبضةٌ أخرى هَوَتْ على أقرب مِطفَأة سجائر لتُلقي بها على الجدار المقابل. هذا ما كان ينقصه؛ في أقلّ مِن يومين تتخطّى حملة المدعو حازم السعدني مائتي ألف متطوعٍ في ثلاثة أيام!!! كارثةٌ بكلّ المقاييس، لن يسامحه رؤساؤه على فعلته الشنعاء! كيف يبرِّر لهم ما حدث؟ كيف يوضِّح لهم أسباب تَرْكِه تتنامى شعبيتُه إلى هذا الحدّ المُفزِع؟!

لا أحدَ يحيا سعيدًا في هذا البلد إلا حين يرضى وليد الأسيوطي عنه، عمله الدؤوب لأعوام عدّة في جهاز الدولة السياديّ جعل منه أسطورةً حيةً تملأ الأرض عدالةً واتزانًا. لا شيءَ يمرُّ من بين يديه إلا بعلمه، لا شاردةٌ ولا واردةٌ ولا أيّ شيءٍ آخر، أسرار وخزائن الدولة بداخله هو، وحده قادرٌ على قلب الموازين، وعلى إبقاء الأمور داخل نصابها الصحيح.

شعورُ القوة المُطلقة الذي يملكه، يعطيه الحق في أنْ يمنع ويمنح فقط لحماية الدولة، لحماية النظام، ومِن أجل هذا فله كلّ الحقّ في ارتكاب ما يراه مناسبًا مِن وجهة نظره لحفظ الأمن العام، أمن الدولة. لم يخطئ في عمله يومًا، مثالٌ يَحتذي به كل ضابطِ أمنٍ في مصر لذا استحقّ ثقة رؤسائه عن جدارةٍ، كما استحق كافّة الصلاحيات الممنوحة له التي تجعل منه شخصًا فوق القانون، بل فوق الدولة بأكملها.

فلا تصاريحَ نيابة لمراقبة هواتف العامة، ولا تصاريح لتفتيش أو اقتحام منازل أيِّ مشتبه بتورطه في أيِّ عمل إجراميٍّ أو سياسيٍّ، يكفي أنّه مشتبهٌ به لدى وليد الأسيوطي، هذا يضعه في عداد الأموات. ولا أحكام ضبطٍ أو إحضارٍ أو حتى أحكام بالحبس الاحتياطيّ، ليصبح أيُّ مسجونٍ لديه بالأشهُر والسنين دون أن يعرف عنه أحدٌ أيَّ شيءٍ.

ولا تحدّثه عن حقوق الإنسان، فلن يعيَ عنها شيئًا سوى أنّها أُعدّت لكي يتشدّق بها العامّةُ ذوو العقول الفارغة والحياة المترفة الفارهة. تَجِدُ الواحد منهم وقد احتسى قهوته المُعدّة بعنايةٍ بعد أنْ تناول إفطاره الشهيّ وارتدى بذلته الأنيقة ذاهبًا إلى مكتبه ذي التكييف الـ ٣ حصان، يجلس على حاسوبه المحمول فلا يجد شيئًا يتسلّى به سوى الحديث عن انتهاكات جهاز الشرطة وسوء معاملة المجرمين! وإذا ما هدّدهُم أحدُ البلطجية بمطواة أو سَلَبَ منهم شيئًا لن يتورّعوا عن سلخه حيًا إذا ما سنحت لهم الفرصة.

أيُّ حقوقِ إنسانٍ تلك التي يتحدثون عنها في دولةٍ تعدادها تخطّى الـ ٧٠ مليونًا؟ فيها على الأقل مليونُ مخرّبٍ ومثلهم من البلطجية! وعشرات الآلاف من الخلايا النائمة والنشطة من ذوي اللحى مستترين خلف عباءة الدين الفضفاضة، وغيرهم من تجار المخدرات والسلاح والآثار، ونشطاء السياسة الهادفين لقلب نظام الحكم ومنع التوريث، ما الذي يضيرهم في مسألة التوريث؟! طالما ابن الطبيب يصبح طبيبًا وابن القاضي حتمًا هو وكيل النيابة وابن الضابط يصير ضابطًا في النهاية بأيِّ صورةٍ كانت، فما المانع في أنْ يصير ابن الرئيس رئيسًا هو الآخر؟!!!

منطقيٌّ جدًا هذا التفكير ولا يعيبه سوى بعض الإرهاصات على شاكلة أنّ (مصر مش عزبة) و(كفاية) و(لاتمديد ولا توريث)، وكافّة الحركات التي لا تعي من أمور السياسة شيئًا، كحركة ٦ أبريل التي تنصّب من نفسها لسان حال شباب هذه الأيام، ممّن يحترفون التسكع على مقاهي وسط البلد وإطالة ألسنتهم على سادتهم أمام دار القضاء العالي وعلى سلالم نقابة الصحفيين، فيما يسمّونه وقفاتٍ احتجاجيةً! الأمر أخطر وأعقد ممّا يطالبون به من إصلاحاتٍ لا يمكن أنْ يعيَها المواطن المصريّ البسيط، لا همّ له سوى الأمن والأمان ولقمة العيش.

لا يَشغَل بال الأسيوطي الكون كله، طالما ثقة رؤسائه به دفعته إلى الحدّ الذي يسند إليه ملف التوريث بأكمله، ولم لا؟ أليس هو الصقر كما يطلقون عليه؟ أليس هو الوحيد القادر على التحليق بهذا الملف الشائك لأعلى مناطق الأمان؟ ثم الهبوط به على كرسيّ الرئاسة مهما كلّفه الأمر من

تضحيات؟ لا يقلقه سوى بعض الوجوه القديمة الرافضة للأمر برمّته، وبعض الأصوات العسكريّة التي ترى في الوريث عدم قدرة أو خبرة سابقة، لابُدّ أنْ تتوافر في مَن يعتلي هذا الكرسيّ. خبرةٌ اكتسبها الكرسيُّ عشرات السنين السابقة مِمّن جلسوا عليه، كأنّها وصمةٌ يجب أنْ يتّصف بها من تُسوِّل له نفسه الوصول لسدة حكم هذه البلد، شيفرةٌ رئاسيةٌ بحتةٌ لا يعي رموزها سوى فئةٍ واحدةٍ في الدولة، وهذا ما يفتقر إليه الوريث تحديدًا، إلّا أنّه أعدَّ عدَّته وحدَّدَ خطواته بدقةٍ وصبرٍ، للتخلُّص مِن تلك العقبات على مدار السنوات القادمة.

المنظومة بالكامل تدور بتناغمٍ مذهلٍ، ومَن يشذُّ عن القاعدة فملفاته جاهزةٌ ومُعدَّةٌ بعنايةٍ لتُحيله في ثوانٍ معدودة إلى فعلٍ ماضٍ لن يترك لحاله أبدًا، الجميع داخل المنظومة يعي تلك الحقيقة جيدًا، فلا أحدَ قادرٌ على اجتياز الخطّ المرسوم له. قلّةٌ هم مَن أخذَتْهم جرأتهم بعيدًا، مع إحساسهم بقوةٍ زائفةٍ فدفعهم خيالهم الجامح لكسر ذلك التفاعل المدهش، حاولوا تخطّي الحدّ، أكثرهم حظًا يجلس في منزله الآن قيد الإقامة الجبريّة، يحتسي آخر أيامه بهدوءٍ، ومنهم مَن انفجرت سيارته قدرًا، أو تبخّر في غياهب لندن وأستراليا أو شمال سويسرا، ربّما عُزل من منصبه لقضايا فساد ماليٍّ أو إداريٍّ تورّط بها فجأةً!

عبقرية النظام تتمثل في قدرته على تبديل الأماكن، وتغيير الوجوه دون أنْ تتأثر الأدوار، فالجميع يعي دوره ودور مَن يسبقه أو يليه، لا يهمُّ الاسم أو

المكانة، المهم هو التناغم والقدرة على العزف الجماعي، لا مكان للعزف المنفرد، فقط هو مايسترو واحدٌ يحرّك الجميع إلى أنْ يقرّر منفردًا أنْ يُنهي دوره ويفسح المجال لمن يكمل مسيرته، وقتها يصبح وليد الأسيوطي وزيرًا في حكومة المايسترو الجديد، ليلعب هو الدور الأكثر قدرةً وتأثيرًا.

وصل لهذه النقطة فلمعت عيناه تأثرًا ونشوةً، هي الفقرة المحبّبة في عرض خيالاته بعد أنْ يقفز بالزمن للحظة التتويج التي ينتظرها بفارغ الصبر، يراها يوميًا بعين الخيال، اللحظة التي مِن أجلها يعمل مخلصًا، ويواصل الليل بالنهار، يغطّي كل الاحتمالات ولا يترك شيئًا للمصادفة! فإذا به يُفاجأ بها الـ.. حازم وقد تضاعفت شعبيته في شهورٍ قليلةٍ لمئات الآلاف من المعجبين والمتابعين!

التعليمات صريحةٌ في هذا الشأن، غير مسموح على الإطلاق بتنامي شعبية أيِّ كائنٍ في الدولة باستثناء مَن هم داخل الدائرة، ولحدود معدّةٍ سلفًا لهم، إذا ما تعاظمت تطلُّعاتهم عنها فالملفات جاهزةٌ والقضايا قد تصل بهم إلى حبل المشنقة.

ومع قوّة المال وتضخُّم الثروات، يَحِنُّ الجميع لسلطة السياسة وقوّة المنصب، ينغمس الواحد منهم في عالمه الجديد، كالذبابة حين تتأرجح فوق نسيجٍ حريريٍّ لعنكبوتٍ عملاقٍ، تتورط رويدًا رويدًا، فلا تفيق إلا والفخ معدٌّ بإحكامٍ، كلّما حاولت الهرب يطبق الفخ عليها أكثر، يُفاجَأ أحدُهم بفيديو فاضحٍ له مع إحدى الراقصات ينتشر على الإنترنت بسرعةٍ جنونيةٍ،

يجد الآخر حبل المشنقة يداعب كوابيسه يوميًا، حُكِمَ عليه بالإعدام للتوّ إثر تحريض على قتل مطربة عربية شهيرة، وغيرهم كثيرٌ تلوك مآسيهم ألسنةٌ خبيرةٌ تعلم كيف تجعل منهم عبرةً لكلّ مَن تسوّل له نفسه الخروج عن السيناريو، كيف توصل رسالةً مفادها: لا فكاك!

لم يعبأ بهذا السعدني حين أتاه أحد التقارير تشير إلى ازدياد تيار التنمية البشرية ومراكز التدريب بين الشباب، كان اسم السعدني ضمن الأسماء المطروحة مع عشرات الدُّعاة الجدد ولاعبي الكرة الشباب وبعض الشخصيات العامة، مهمّته كانت تحديد أيهم أكثر خطرًا، وأيّهم لم يصل للحدّ الخارج عن إطار النمو، فما كان منه إلا أنْ أعطى تعليماته بإنهاء خدمة أحد الدعاة وتحجيم شعبية أحد لاعبي الكرة، وترك باقي القائمة لمتابعة تطوراتهم، فما كان مِن الداعية إلا أنْ ترك البلد هربًا من المضايقات، رغبةً منه في العمل لخدمة دينه وإرضاء ضميره وكفى، أمّا لاعب الكرة فقد التزم الصمت التامّ كي لا يفقد مستقبله.

لم يدرك أبعاد الأمر-ربّما لأول مرة في تاريخه المهنيّ- حينما وجد إحدى بناته تقرأ كتابًا تعلو صورته ذلك الـ حازم يضحك ببلاهة مشيرًا بعلامة «كلّه تمام» المميزة لبرنامج (كلام من دهب)! تناسى الأمر عدة أشهرٍ ليُفاجأ بهذا التقرير الصادم؛ تقرير أعدّه أفراد قسم المتابعة لديه بالجهاز عن النشاط بالغ الاتساع الذي تنامى أواخر هذا العام للمدعو حازم السعدني، عشرات اللقاءات الجماهيرية في مختلف الجامعات المصرية حضرها ما يقارب

الخمسين ألف طالب.

أكثر مِن ١٢ كتابًا في مختلف تخصصات التنمية البشرية، والتفكير والثقة بالنفس والتفاؤل وتغيير الحياة، وغيرها من الهراء الذي يملأ به عقول أتباعه. لا يكفيه ازدياد شعبيته، بل يُصرُّ أيضًا على حثّ الشباب على إعمال عقله، وعلى التفكير في حياته ومستقبله، على رفض واقعهم ومحاولة خلق واقعٍ أفضل!

- نهاره أسود من أيّ سواد شافه في حياته.

هكذا صرخ الأسيوطي بصوت مدوٍّ داخل مكتبه.

- عمرها ما حصلت فحياتي يا سعد. عمري ما اتفاجأت بحدّ يقتحم حياتي بالشكل ده! الواد وصل لحد بيتي، بناتي بيقرأوا كتبه ومدمنين حلقاته على النت. أنا هتجنن!!!

امتعض وجه سعد -أهمّ معاونيه- ونكّس رأسه بتأثرٍ مُشاطرًا رئيسه استياءه البالغ من التقرير الصادم الملقى على مكتبه، دون أنْ يتفوّه بأيّ تعليق خشية ثورة رئيسه الوشيكة التي طالما اكتوى بنارها مرارًا في السابق.

- الواد ملفه زي الفل يا سعد، وفي حاله؛ يعني لا جماعات ولا تنظيمات ولا إخوان ولا حتى نعرف عن عيلته أيّ حاجة!!! ده غير إنّ كلامه كله مفيهوش أي حاجة تتمسك عليه، بيعلّم الشباب إزاي يفكر وبيساعدهم يلاقوا فرصة عمل كويسة، ده غير إنّ شهرته وشعبيته في الطالع -الله يجحمه- وكلّ

الناس بتحبه علشان أعمال الخير والحملات اللي بينظمها، ده لسه بيقول يا هادي من تلات أيام في البرنامج بتاع البت اللي اسمها دينا أبو النجا، وبيعلن عن حملة نضافة في البلد يقوم يشترك معاه ميتين ألف!

الله يخرب بيته! ده لو نزل انتخابات مش هنلاحق على الطوابير اللي هتملا اللجان!

انكمش مساعده أكثر في زاوية المكتب، حينما وصل رئيسه لهذه الدرجة من الانفعال؛ جحوظ عينيه مع بروز عُروق رقبته هي علاماتٌ لم يَعُدْ يخطئُها للثورة الوشيكة، ولا يتمنى أنْ يصير هو المستهدف في هذا الانفجار، لذا لزم الصمت التامّ.

أمسك الأسيوطي سماعة هاتفه قاصدًا رقمًا ما، وما إنْ أجاب الطرف الآخر حتى انتفض احترامًا وبصوتٍ ملأه التوتُّر والاضطراب ظلَّ يؤكِّد مرارًا أنّ الأمر تحت السيطرة وأنّه ترك الحبل للمدعو حازم هذا لأنّ لديه خطةً محكمةً للاستفادة من خدماته، فلا شيء يمرُّ بين يديه، ولا شيء اسمه الصدفة في قاموس الأسيوطي.

احتشد عرقٌ غزيرٌ أعلى جبهته بعد أنْ أنهى مكالمته ورفع عينيْه لمساعده يطمئِنه أنّ الأمور هدأت مؤقتًا، بصوتٍ حاول كتم توتّره تساءل:

- هنعمل إيه يا زفت في المصيبة دي؟

على عكس السائد في الجهاز، فمساعد الأسيوطيّ سعد المحمديّ، شخصيةٌ

هادئةٌ وعقلانيةٌ لأبعد الحدود، نادرًا ما تراه يتحدَّث، والأندر أنْ تراه فاقدًا لأعصابه بالرغم مِن عشرات الضغوط التي تحيط به يوميًا، يكفيه فقط رؤية وجه الأسيوطيّ كلَّ يوم، ذلك الوجه الذي لو أقيمت مسابقةٌ لأكثر الوجوهِ إثارةً لرعبٍ وفزعِ الأطفال لنالها بجدارة، ربّما أثار فزع البالغين أيضًا، ولكنّه مرغمٌ على العمل معه، فالأسيوطي هو الأكثر قوةً وصلابةً وعنفًا، وسعد هو الأكثر ذكاءً ودهاءً وخبثًا، وبهذا يكتمل الفريق.

- الموضوع بسيط جدًا يا باشا، بس هو محتاج شوية معلومات.

بنفاذ صبرٍ أشار له الأسيوطي بإصبعه راسمًا دوائرَ في الهواء يستحثّه بها على الكلام.

- الناس عندنا بنقسمهم أنواع، أول ما بيعدّوا الخط المرسوم. نوع بيختفي من الوجود، ونوع بيخرج بره اللعبة خالص، ونوع بنخليه على الحياد. صح كده يا باشا؟

بنفاذ صبرٍ صرخ الأسيوطي:

- إنجز يا سعد، أنا على آخري.

أكمل سعد بهدوءٍ تامٍّ:

- النوع الرابع بقى أتخلق علشان أمثال حازم ده، وهو إننا بدل ما نلعب معاه هنلعب بيه.

قالها وبرقت عيناه في علامةٍ يعيها الأسيوطي جيدًا، رأى تلك النظرة التي تَشي بأنّ الأمور قد عادت إلى نصابها الصحيح مرةً أخرى، وأنّ مقاليد اللعبة تصير لهم في النهاية.

٣

القاهرة - ١٩٨٥

صفعةٌ أخرى تلقّاها وجهه، ارتجّ لها كيانه، أعقبتْها سُبّةٌ بغيضةٌ تصحَبُها بَصْقةٌ على وجهه أدْمَتْ روحه، وأحدثتْ فيها عِلةً كبيرةً بَدَتْ بوادرها منذ شهورٍ وما زالت تتعاظم.

اعتاد هذه الثورات غير المُبرّرة منذ أنْ تفتَّح وعيُه على هذه الدنيا، إذا صحّ له أنْ يُسمّيَها دنيا، تتمثّل دنياه في أبٍ يُتقن كافّة أنواع الإدمان؛ خمورٍ وسجائرَ ومخدرات، لسانٌ قذرٌ ويدٌ طويلةٌ تبطش أينما كانت، نَصْبٌ وبلطجةٌ ودعارةٌ وإتاواتٌ، شجارٌ دائمٌ لا يهدأ. وأمٌّ لا تُتقن شيئًا على الإطلاق إلّا فنونَ السرير، بالرغم مِن أنّ سنواتِ عمره القليلة لم تعِ هذه النقاط الدقيقة، إلّا أنّه مع التكرار بمرور الأيام بدأ يعيها بصورةٍ كاملة.

نشأتُه وحيدًا في تلك البقعة النائية على أطراف المدينة في حضن صخرةٍ

عملاقٍ خارج إطار الدنيا، جعلته أكثر عزلةً ممّا يمكن تسميته مجازًا: مرحلة الطفولة، حجرةٌ واحدةٌ يتشارك فيها ثلاثتهم أكلًا وشربًا ونومًا ولعبًا وقذارةً!! طفولته التي تنمو وسط أطنان القمامة المحيطة به مِن كلّ جانبٍ في الشارع، وداخل أرواح المحيطين، وعلى ألسنتهم تجري أقسى ما يمكن أنْ يسمعه من حوارات وكلمات، مياه المجاري التي نادرًا ما ترى منها أرضية الشارع، وترى بدلًا منها عدّة أحجارٍ صُفّت بعشوائية لترسُم طريقًا واحدًا لسكان المنطقة، يعبرون عليه طيلة اليوم بمحاذاةٍ واحدة متراصّين خلف بعضهم كأسراب النمل، مسارٌ إجباريٌّ يرسم طفولته بدقّة لا يمكن عبوره أو تجاوزه، تراه عالقًا داخله يحترف كافّة أنواع الطفولة الوليدة في تلك البقعة مِن الكون؛ تسوّلٌ ونصبٌ واحتيالٌ وسرقةٌ، فقط ليصمد ويقاوم أكوامَ القمامة وطَفْحَ المجاري ولدغات الجوع وعقارب الجبل، وصفعات والده المتتالية.

فتح عينيه على هذه الدنيا، بعد أنْ سبقه إليها ثلاثةُ أخوة؛ ولدان وبنتٌ ماتوا جميعهم بعد أيامٍ مِن ولادتهم، أسعدهم حظًا صمد شهرين، ثمّ فارق الحياة بعد أنْ قضم الفأر أصابع قدمه، ثمّ تكفّلت الجروح الملوّثة ببقية الأمر، حقيقة الأمر أنّهم جميعًا سعداء الحظّ كونهم الآن في مكانٍ أفضل مِمّا كانوا فيه، حتى لو في الجحيم ذاته، كونه مازال على قيد الحياة، وحده سببٌ كافٍ جدًا أنْ يمقته والده حدّ الجنون، وأنْ يصُبّ عليه جامَ غضبه ليلًا ونهارًا في كلّ المناسبات، حتى لو لم يكن هناك أيُّ داعٍ لذلك؛ إذا لم يعجبه كوب الشاي أو إنْ وجد ملابسه مازالت مبتلّةً على طرف السرير، فهو سببٌ منطقيٌّ جدًا لوصلة كراهية مقيتة تسقط على رأسه، تُدمي قلبه وتبدّد كيانه!

والده الذي مسح المخدّر خلايا مُخّه، وبدّد طاقته فجعله أكثر شراسة وحيوانية لا يجد سواه يُسقط عليه صدماته:

- غور من وشي ياض يابن الجزمة. داهية تاخدك وتريحني منك!

تنهمر دموع الطفل، يحاول جاهدًا استجلاب كلماتٍ متقطّعة مبحوحة:

- ليه بس يا حاج؟ أنا عملت إيه؟!

ينهمر على وجه الصغير الرذاذ المتطاير من فم الوالد:

- ما هو المصيبة أنك معملتش يا ابن الكلب، لا عملت ولا هتعمل. الله يحرقك.

تميل الزوجة عليه هامسةً في أذنه بدلالٍ لا يتناسب مع ما يلاقيه طفلها من مهانةٍ وتجريحٍ، ولا ما تلاقيه مِن شتائمَ مِن فم الزوج:

- بالراحة على الواد يا أبو فرج، الواد لسه أخضر، مكمّلش سبع سنين على بعض. عايزه يعمل إيه بس؟

التفتَ إليها الزوج بحدّةٍ كمَن لدغه عقربٌ والكلمات تتطاير مِن فمه بلا نظام:

- يعمل زي أي ابن كلب بيعمل!! ينبح يا وليّة، ينبح على أيّ حد، يعضّ ولا حتى يهوّش، المهم يرجع آخر اليوم بأيّ مصلحة، يعمل حتى بلقمة ابن الواطية ده! ده حتى أبو علاء الميكانيكي بيقوللي إن الخيبان ده معرفش يسد على الشغل إمبارح، «الكوريك» كان هيجيب رقبته، أصله بروح أمه كان واقف مسطول في الورشة، طبعًا رماه في الشارع زيّ فردة الجزمة أحسن يجيب له مصيبة، لولا إنه عامللي قيمة كان شوّه وشه بميّة نار.

بيأس يتضرّع الصغير:

- يا حاج، الكاوتش كان تقيل، ولما جيت أشيله مأخدتش بالي من الكوريك اللي فوق دماغي.

انقضّ عليه والده مرةً أخرى راكلًا إياه بقدمه ركلةً ألقت به في نهاية الحجرة قائلًا:

- طبْ إترمي هنا يا روح أمك للصبح، لحدّ ما أشوفلك ميكروباز تلمّ عليه أجرة، ولا أشارة تسرح فيها بأي حوار. داهية فيك وفي اللي جابك!

تميل عليه الزوجة مُداعبةً صلعته الملتهبة من الانفعال والصراخ، بدلال لا يتناسب مع الموقف كأنّها لا تعي إلّا أمرًا واحدًا يملأ عليها حياتها، لا ترى سواه ولا يعنيها أنْ تعي أيَّ أمرٍ آخر:

- روّق بالك يا حاج، إنت هتبوّظ اليوم ولا إيه؟ دانا لفيتلك سيجارتين بإيدي، إطفي بس النور وتعالى عايزاك في موضوع.

بوقاحة فجّة ينظر إليها صائحًا:

- نور إيه يا ولية يا خرفانة اللي عايزاني أطفيه ده؟ هاتي السيجارتين وإسبقيني على السرير!

تنظر غير مبالية إلى طفلها القابع في ثنايا نفسه أمامها:

- الواد يا حاج لسّه مانمش!

- منه ما اتنيل! خلّيه يتفرج على حاجة تنفعه يمكن يطلع ناصح زي أبوه.

يتطلع إليهما الطفل بغير وعي وسط دموعه، متكوّمًا على نفسه بانكسار، يرى والديْه في نهاية الحجرة قد صارا شيئًا واحدًا مُجرّدًا من كلّ شيء، لا يعي تفاصيل المشهد الضبابيّ، تُحيل دموعه الغزيرة الصورة أمامه لانكسارات عدّة، والدته التي تصرخ من آنٍ لآخر، تشهق مرات عدّة، والده الذي لا يكفّ عن السباب والبصق والضحك والضرب واحتساء مشروبه المفضل كريه الرائحة، يراهما يتبادلان الأماكن والأدوار، أحيانًا بصخب وأحيانًا أخرى بهمس، تَخور قواهما بعد فترة، فلا يتحرّك أيٌّ منهما كأنّهما في سُباتٍ عميق.

ينهض بعدها الطفل بشغف يتطلّع للجسديْن المطروحيْن أمامه بلا حراك، غير واعٍ ماهية المُنحنيات العجيبة والنتوءات المنتشرة على الجسديْن، أحيانًا يأخذه الفضول لِما هو أبعد، فيمدُّ يده يتلمّس بروزًا هنا أو انحناءً هناك، يقارن بين ما يراه وما يعرفه، فلا يقدر عقله الصغير على إيجاد أيّة علاقة بين الأشياء فالرؤية دومًا مشوشةٌ غير مكتملة.

يحاول الطفل أنْ يُجيب عن سؤالٍ طالما ألحّ عليه كلّما تكرّر هذا الأمر، لماذا يضرب والده والدته بهذه الطريقة؟ هي لم تخطئ في أيِّ أمرٍ يكلّفها به كما يفعل هو! دومًا تُعدُّ له طعامه وكوب الشاي وسجائره غريبة الرائحة وجلسات أصحابه معه حتى الصباح، حتى في غيابه لأيامٍ عن المنزل هي أيضًا تهتمُّ بأحد أصدقائه بنفس الإخلاص والحماس، وينتهي اليوم أيضًا بنفس الطريقة؛ فيضربها أحدهم، ويظلُّ يعذّبها كما يفعل أبوه، وربّما أسوأ! فلا تشتكي ولا تبكي. يراها مستسلمةً دومًا لا تُعارض والده ولا تقاومه بالرغم من أنّها تفوقه في الحجم، لو أنّ له مثل حجمها لما تردّد في ضرب والده كلَّ يوم، ربّما مرّتَين على الأقل!!

٤

القاهرة - ٢٠٠٩

- محاضرتنا النهاردة عنوانها الأساسي: «إزاي أخللي لحياتي هدف»

قالها دكتور حازم بثقة، مُلقيًا نظرةً طويلةً إلى عيون الحاضرين في تلك القاعة الدولية المَهيبة ذات المقاعد الضخمة والمسرح الواسع والحضور المتأنّقين. كم يعشقُ هذه الهالة التي يُحيط نفسه بها! ثقةٌ مطلقةٌ بقدراته، حضورٌ وكاريزما طاغيةٌ، وسامةٌ وأناقةٌ بالغتيْن، معلوماتٌ قويةٌ مُنتقاةٌ بعناية، ثمّ عرضٌ مسرحيٌّ بالغُ الإبهار، ومئاتُ الآلاف مِن الجنيهات في نهاية اليوم.

يا لها مِن حياةٍ ينعُم فيها وبها! فيللا في الزمالك ومدينة نصر، مثلهما فيللا في الساحل ذات حديقةٍ مَهولة، وحمام سباحةٍ مذهل، سيارتان أحدثُ موديل؛ إحداهما بسائقٍ خاصٍّ للمعارض والمهرجانات الكبرى، والأخرى يقودها بنفسه للقاءات الخاصّة والسرية. حسابٌ في البنك لا يجدُ الوقت

الكافي لحَضره، عشرات الكتب تملأ الوطن العربيّ بكلماته، تتوسّطها صورته ذات الابتسامة الأشهر، مؤسسةُ تدريبٍ دولية ومثلها لأعمال الخير، ثمّ جيشٌ من العاملين والعاملات؛ إداريين ومحاضرين، جميعهم يعملون تحت رايته ولإعلاء اسمه، برامجُ في الفضائيات والأرضيات.

إنّها الشهرة في أعتى مراحلها، ولِمَ لا! ألا يستحقُّ كلَّ هذا وأكثر؟ أليس هو مَن غيّر حياة المئات، بل الآلاف للأفضل دومًا؟ بما يمنح من كلماتٍ ونصائحَ وتعليماتٍ هي خلاصة خبراته وعصارة جولاته ودراساته حول العالم، يضعُها بين يديْ مَن يقدِّر ويعي من طلّابه.

بالرغم من حداثة سنّه، إلّا أنّه يحمل علومًا ضاهت ما يتمّ تلقينه في الجامعات، وتتفوق عليها أيضًا، أليس هو من أنقذ حياة الكثير من الضياع؟ وَعَدَهم بحياة أفضل، منحهم قوّة الأمل.

- كلّ حاجة بتفكر فيها بتنجذب ليك من نفس نوعها، يعني لو بتفكر في حاجة سلبية: ديون، أو موقف حزين، فشل في وظيفة، أو حتى علاقة زوجية. للأسف كلّ الحاجات دي مش هتلاقي غيرها فحياتك بعد كده، يعني مزيد من الحزن والكآبة، سلسلة من الفشل المتوالي والسقطات القاسية.

تجهّم وجهه عند هذه النقطة، صمت لثوانٍ ناظرًا إلى فراغ القاعة أمامه كعادته حين يترك لكلماته حيزًا مُعدًّا بعناية لإحداث الأثر المطلوب.

ران على القاعة صمتٌ مَشوبٌ بحزنٍ غامض، لم تمرّ لحظاتٌ حتى تورّد وجهه فجأةً كاشفًا عن ابتسامةٍ مرسومةٍ بدقة، ناظرًا إليهم بتحدٍّ وثقة:

- أما لو بتفكر في نجاح وفلوس وأمل، وظيفة مستقرة، وعربية آخر موديل، وبيت صغير يجمعك باللي اختارها قلبك -قالها غامزًا بطرف عينه اليسرى بمرح- هتلاقي كلّ حاجة حواليك بتساعدك إنك توصل لده، الإحساس نفسه هيوصلك لهدفك إن شاء الله.

عند هذه النقطة تصاعدت آهات الارتياح وزفرات السعادة من الحاضرين، ممّن جاؤوا للبحث عن مفاتيح الحياة، وصكوك الأمل.

أليس هو مَن منع العشرات من حالات الانتحار؟ والمئات من حالات الطلاق؟ عالج الآلاف من مُدمني المخدرات والسجائر والعادات الجنسية السيئة، بسحر كلامه وقوّة شخصيته! جَلسةٌ واحدةٌ يقضيها مع الحالة -كما يطلق عليها- كافيةٌ جدًا لإنهاء الأمر، تُفتَح له الأبواب النفسية المُغلقة، تنكشف له جميع الأسرار، يَلِجُ أقصى الدهاليز، ويصل إلى الحلّ دومًا، «المنقذ» كما يحلو لهم أنْ يلقّبوه في وسائل الإعلام، يا له من لقبٍ ذي رنينٍ طاغ!

- وعلشان تخللي لحياتك هدف، لازم تعرف الأول أنت عايش ليه؟ إيه اللي ربنا ميِّزك بيه في الدنيا؟ وإيه هيه أبرز عيوبك؟؟ باختصار يا جماعة، إيه هيه رؤيتك ورسالتك في الحياة؟

مع نهاية جملته أظلمت القاعة إلّا من إضاءة شاشة العرض، ظهر عليها مقطعُ «أنميشن» مُعَدٌّ بعنايةٍ لتوضيح فكرة المُحاضر.

يبدأ المقطع بموسيقى مؤثرةٍ حزينة مع شابٍّ منزوٍ في أحد أركان فراغ هائلٍ، يتخبّط بين العديد من الأسئلة الجدلية على غرار: «مَن أنا؟ وماذا أريد؟ لا أستطيع، لا أقدر، لا يمكن.» يُحني رأسه بانكسارٍ ويأسٍ، تدوّي معه موسيقى مثيرةٌ لشجنٍ غامضٍ، ثم ينتقل العرض للتعريفات التجريدية أمثلة: الخوف من الفشل، ضعف الثقة بالنفس، التردد، السلبية، وغيرها. كلماتٌ تدور فوق رأس الشاب الجالس القرفصاء مسلوب الإرادة، يرى فيه الحضور انعكاسًا لواقعٍ طالما اكتووا بلهيب ضياعه وشدّة تقلُّباته. فجأةً، يتغيّر الإيقاع الموسيقيّ، يصبح حماسيًا مُبهجًا، باعثًا على الحركة والتجدُّد، مع كلماتٍ تحفيزيةٍ على غرار: «حطم قيودك، انطلق، ثق بقدراتك، تحرك الآن، ارسم طريقك.» وغيرها من الكلمات التحفيزية الرنانة، تتوازى الكلمات مع استعداد الشابّ للنهوض من مكانه رغبةً منه في تغيير واقعٍ أليمٍ، يستعدُّ لانطلاقةٍ قد تُغيِّر مجرى حياته للأبد.

ينتهي الفيديو بقفزةٍ من الشابّ يلامس فيها عنان السماء في دلالةٍ واضحة على التطلُّع دومًا للسموّ والارتقاء. ينتهي المقطع، تلتهب أكفُّ الحاضرين بالتصفيق الهادر. يظهر حازم في زاوية المسرح ناظرًا في أعين الجميع ليحصد ثمرة الإيجابية التي بَدَتْ بوادرها تلوح في أفق الحشد الماثل أمامه، يستمدُّ منه سطوته على العقول، جاعلاً منها منصة انطلاقٍ أخرى لا تقلُّ أهميةً عن سابقتها.

ترفع إحدى الحاضرات يدها طالبةً استفسارًا ما، فتاةٌ في منتصف الثلاثينات،

تلك الفترة التي تنسحب منها أنوثتها تدريجيًا مع ازدياد ضغوط الحياة والأسرة، وهرمونات أنثويةٍ تبحث عن ملاذٍ آمنٍ، أضناها البحث عن زوجٍ: «ضِلّ راجل ولا ضِلّ حيطه يا بنتي»، عن عملٍ: «شغلك هوه اللي هيعملك قيمة بين الناس، وهيجيبلك العريس كمان.»، عن هويةٍ: «إحنا في مجتمع شرقي، يعني آخرك بيت جوزك.» دفعها اليأس للانتحار يومًا ما، عشرات الحبوب تناولتها دفعةً واحدةً لم تكن كافيةً لتُلقي بها إلى الضفة المُقابلة، أو لعلّ رحمة ربها أكبر من أنْ تخسر آخرتها بالانتحار، كما هي على مشارف خسران دنياها.

سمح لها حازم بالحديث، بدا أنها بُوغتت بالرغم من رغبتها في ذلك، تنحنحت مرتيْن ثم قالت:

- يعني أنا لو عارفة إجابة الأسئلة دي أصلاً، إيه اللي يخليني أحضر محاضرة زي دي؟!

دفعها خجلها لكتمان باقي الجملة: «وادفع فيها الشيء الفلاني!»

أكملت:

- الإجابات دي لوحدها كافية إنها توجهني للطريق الصحيح.

صمتتْ بانتظار الردّ.

بابتسامةٍ ملأت نصف وجهه باغتها:

- ده من وجهة نظرك إنتي!

بدا على ملامحها عدم الفهم، فأردف قائلاً:

- يعني إدراكك إنتي بس هو اللي خلاكي تقولي إن الإجابات دي لوحدها كفاية عليكي. خليني أوضحلك أكتر؛ لو إنتي قبطان على سفينة وعارفة كويس إنتي رايحة فين وكمان معاكي الخريطة، لكن خرجتي من المينا من قبل ما تعرفي حالة الجو إيه، ولا الدفة معاكي شغالة كويس ولا لأ، هتعرفي توصلي لمكانك بسلام؟

هزّت رأسها نافيةً قدرتها على الوصول بسلام، ابتسمت قليلاً حين وصلها المغزى. أكمل السعدني:

- اللي أقصده ببساطة مش الإجابات هي اللي هتوصلك لوحدها، لكن من غير ما تجاوبي عمرك ما هتعرفي تكملي للمرحلة اللي بعد كده، مرحلة الوعي. يعني بلغة البرمجة اللغوية العصبية، الخريطة ليست هي المنطقة.

ارتفعت أيادٍ أخرى، إلا أنه أنزلها جميعًا بلباقة مُقنعة قائلاً:

- هشرح الاول النقطة دي، ولو مش مفهومة هنسمح بالأسئلة.

عشرات المرّات يُلقي فيها تلك المحاضرة، وهو يعي تمامًا مفعولها السحريّ على عقول الحاضرين، إنّها التهيئة لِمَا يودُّ إيصال الحشد إليه؛ عملية فتح عشرات الصناديق المُغلقة منذ سنينَ داخل عقول مستمعيه، اللعب على مخزون اللاشعور حيث يقبع كلّ شيءٍ. يثير الكثير من الأسئلة، يَلْفِت النظر إلى العديد مِن الأمور الخفيّة، يضغط أحيانًا على نقاطٍ غايةٍ في الحساسية، يوهم الجمع بحتميّة التغيير، بعدها يصير كلُّ شيءٍ ممكنًا.

قانون رقم (٢)

اخْلقْ مشاهدَ آسرة

إنّ الصور المدهشة الأخاذة والإشارات الرمزيّة الكبرى، تخلق هالةً من السُّلطة؛ فكلُّ شخص يستجيب لها.

اعْرِضْ مشاهدَ آسرةً على مَن حولك، مليئةً بالتصوُّرات الرائعة والرموز المُشعَّة التي ترفع مستوى حضورك، وعندما ينبهر الناس بالمظاهر، فلا أحدَ سيُلاحظ ما الذي تفعله في الحقيقة.

٥

القاهرة - ٢٠٠٩

أنبياء العصر.

عنوانٌ صادمٌ لمقالٍ لا يقلُّ دهشةً عن عنوانه، بكلماتٍ تتجاوز حدود المقبول وجملٍ خارجة عن المألوف، يتطرّق المقال إلى نقاطٍ شديدةِ الحساسية فيما يتعلق بعلمٍ حديث النشأة، يزداد الإقبال عليه يومًا بعد يوم، يطرق جميع الأبواب ليكتسب يوميًا المئات والمئات مِن المُقبلين على دراسته والمُحبِّين للتعرُّف عليه، ممّا يُضفي هالةً من القداسة والمثاليّة على أصحابه والعاملين فيه.

تحترف منال مندور هذه النوعية من التحقيقات، منذ وُلوجها عالم الصحافة وهي تصطدم دومًا بما يعكِّر عليها صفو كتاباتها، يضعها فريسةً دومًا للقيل والقال، والكثير مِن المضايقات الماديّة والنفسية وأحيانًا الأخلاقية والأمنية.

طرقت أبوابًا عدّةً لعشرات الصحف والمجلات، فقابَلَها رؤساء التحرير الكرام بأغرب الطلبات لاعتمادها صحفيّةً في بلاط صاحبة الجلالة؛ أحدهم ألحّ عليها أنْ تتقصّى فضائح الفنانين ولاعبي الكرة، الفضائح فقط ولا شيء آخر! وإذا لم تجدْ فضيحةً ما تستحقّ النشر فلا ضير من تأليف واحدة ربّما تتطوّر لتصير شائعةً تلوكها ملايين الألسنة والآذان أسابيعَ عدّةً.

- يا بنتي ده مش تأليف. ده اسمه فن صناعة الخبر!

هكذا كان حديثه معها دومًا حين تُعارض أفكاره الحمقاء، تتجلّى عبقريته في تصيُّد كوارث وزلات الآخرين،

تنمو معها أرباحه وتزداد علاقاته، فالجميع يخشى قلمه السليط إذا ما توجّه ناحية أحدهم، فلا مفرَّ من تشويه سمعته عاجلاً كان أم آجلاً.

الآخر يملك واحدةً من أكثر الصحف السياسية جرأةً وقوةً، طالما حلمت في شبابها أنْ تصبح جزءًا من ذلك الجيش المغوار الذي يشنّ حملات التطهير على فساد الحكومة ويقتفي أثر الفاسدين، عشرات التحقيقات والحوادث أماط عنها اللثام ووجّه الرأي العام في الكثير من المواقف بما يضرّ بسلامة الحكومة واستقرارها. ذهبت إليه، تضرّعت أيامًا وليالِيَ كي تلتحق بسرب المُحرّرين، فما كان منه إلا أنْ وضعها تحت الاختبار لتكتشف في النهاية كم كانت لأمن الدولة وأجهزة المخابرات من سطوة ونفوذ!! فالجريدة بالكامل ما هي إلّا جزءٌ من المنظومة، تعزف بكلّ تناغم وهدوء.

الثالث لم يتردّد مطلقًا وهو يسألها عن قدرتها على الصعود بسرعة ولأيّ مدًى:

- يا فندم، أنا مستعدة أعمل أيّ حاجة تطلبها مني، أشتغل ليل نهار، من غير نوم ولا أكل! بس إديني الفرصة.

هكذا تهدّج صوتها بالحماس حين قابلته، نجم المجتمع الشهير صاحب أوسع المجلات الفنية انتشارًا، فما رأتْ منه سوى ابتسامة مُشجِّعة ولسانٍ فجٍّ لم يتحرّج من توضيح أنّ الصعود يستلزم العديد من التنازلات:

- يعني ممكن نقول إننا مش هنشتغل بالنهار بس محتاجين نشتغل شوية بالليل!

لحظتَها وَعَتْ تمامًا ما هو المطلوب تحديدًا للصعود السريع، ذلك الذي يتناسب عكسيًّا مع حزمة الأخلاق والمبادئ، كلّما زاد اقتناعُها بضرورة التخلّي عن أخلاقها واحترامها لذاتها أولاً وقبل كلّ شيء، ازدادت فُرَص صعودها المذهل وتألُّق قلمها اللافت للنظر.

الرابع أصرَّ على عملها أولاً في مجال الإعلانات:

- هاتيلي إعلانات الأول، بعدها نشوف إنتي كاتبة إيه، مفيش جورنال هيدخل المطبعة من غير ما كل المساحات الإعلانية فيه تكون اتباعِتْ يا جماعة، ما تشغلوش بالكم بالتحقيقات، ركُزوا بس مع المُعْلِنين.

أكّد لها ولجميع المحررين أنّه في جلسة واحدة على القهوة مع سيجارتين

-بعون الله- قادرٌ على تحرير أربعة أعدادٍ مِن الجريدة دفعةً واحدةً، الأهم والأكثر جدوى لديه هي أموال المُعلِنين ولا شيءَ غير ذلك.

والخامس والسادس والعاشر، كلُّهم مثالٌ حيٌّ على ما وصل إليه حال الصحافة في بلادنا.

حتى الجرائد القوميّة، لم تملّ مِن طرق أبوابها ومحاولة تقديم أوراق اعتمادها بلا جدوى، فلا هي تملك واسطةً ولا عشرات الآلاف مِن الجنيهات تضعُها في حساب أحدهم ليُغدق عليها بعقدٍ حكوميٍّ تحصد في ظلّه ثمار الأمن والأمان الوظيفيّ ومعاشًا تفخر بتقاضيه منتصف كلّ شهرٍ!

انتهى بها المطاف في إحدى المُدوَّنات التي تحمل اسمها مع مزيجٍ سينمائيٍّ مُحبَّبٍ: (منال بين الواقع والخيال)، تقوم بنشر مقالاتها عبر العالم الافتراضيّ الذي تعيشه داخل بيتها وأمام شاشة حاسوبها المتنقّل، وما إنْ تجد الآلاف القرّاء والمعجبين وقد تفاعلوا معها إيجابًا، حتى تُرسِل ما قامت بكتابته لإحدى منظمات المجتمع المدنيّ التي تُعنى بحرية الرأي والصحافة، ونشر الوعي والديمقراطية في الدولة؛ هيئةٌ أمريكيةٌ تتّخذ مِن إحدى شقق وسط البلد مقرًّا لها، تجمَعُ عشراتِ الشباب غريبي الأطوار مِن ذوي اللّحى الملوَّنة وقَصّات الشعر متعدِّدة المراحل والطبقات، وأزياءٌ دومًا تتضارب مع طبيعة الذوق العام وأحيانًا حالة الطقس، كما تنشر الهيئة جريدةً أسبوعيةً توزَّع مجانًا على نطاقٍ واسعٍ في العاصمة، منها تجدُ كتابات منال طريقًا لها في عيون القرّاء.

تدريجيًا صارت كلماتُها أكثر جرأةً وثباتًا، كما صارت تجتذب العديد نظرًا لِمَا تتطرّق إليه دون رهبةٍ أو خوفٍ، يُساندُها في هذا الأمر رئيس تحرير الجريدة ومدير الهيئة، مصريٌّ أمريكيٌّ يُدعى رؤوف عز الدين، مؤمنٌ تمامًا ألّا خطوطَ حمراءَ في الصحافة، وهذا يثير شهوتها في الكتابة لأقصى مدًى، ويثير لها أيضًا العديد مِن المتاعب.

لن تنسى ليلتَيْن باتتهُما في ذلك الكيان المهيب القابع في لاظوغلي، المسمى مجازًا أمن الدولة عقِبَ تحقيقها المثير للجدل حول تصدير الغاز لإسرائيل، وكمْ عاملوها بمنتهى اللطف والرِّقة عكس ما يشاع! محاولين معرفة لحساب مَن تعمل، وأنّ رؤوف عز الدين لديه مِن المتاعب ما يجعل سقوطه وشيكًا، ولا يحميه سوى جنسيته ليس أكثر، حتى هذه مسألة وقت.

ظلّتْ أيامًا تتساءل لِمَ كلّ هذه الحفاوة والاحترام في معاملتها؟ وخلصتْ إلى نتيجة واحدة؛ لا يمكنهم إيذاؤها مِن الأساس! يقينُهم الراسخ بعدم جدوى إرهابها، مع حماية الهيئة ومِن ورائها سفارة أمريكا تقود إلى نتيجة واحدة؛أنّها صارت مَنيعَةً حتى على الجهاز الأخطر في الدولة والأكثر إثارةً للرهبة والفزع، فازدادت وطأة كلماتها، وصارت تحلّق فوق مستوى المسموح، وهذا ما ظهر جليًا بعد تلك الواقعة في ملفّات عبّارة السلام ومن قبلها في قطار الصعيد، حتى حين تناولت ملف التوريث!

رسالةٌ دعائيةٌ فاجأتها عبر بريدها الإلكترونيّ، داخلُها إعلانٌ عن إحدى دورات التنمية البشرية، بدا لها الأمر غامضًا، بدايةً مِن صورة المحاضر التي

تملأ نصف الشاشة بابتسامته المُبتذلة، وزاوية التصوير المائلة كبوسترات أفلام جيمس بوند، عاقدًا يديْه حول صدره بثقة وتأنّق بالغيْن، مع تسريحة شعرٍ عصريّة، وبذلة باهظة الثمن -هكذا خُيّل لها- رأته مبتذلاً لا يَمُتُّ للمُحاضرين بصلة، هذا إنْ كان لهم هيئةٌ ما! الذي تعرفه عن المُحاضرين يختلف تمام الاختلاف عمّا تراه منتصبًا أمامها يضحك ببلاهة في الشاشة، صورةٌ أقربُ إلى عارض الأزياء أو موديل إعلانِ معجون أسنان!

بجوار الصورة تعريفٌ بالمُحاضر، خبراته ومؤهلاته، أقسمت في قرارة نفسها أنّها لو قرأت تعريفًا لفاروق الباز لن تجده بهذا الحجم المهول مِن الإنجازات والدراسات والخبرات!!

عشرات الاعتمادات لعلوم لم تعرِفْ بوجودها يومًا على كوكب الأرض، لامتْ نفسها على جهلها الذي وضعها في حيرة، كيف لها أنْ تنعَم بحياتها وهي لم تتعرف بعد على علم الحريّة النفسية من الجمعية الأمريكية لتطوير مسارات الطاقة؟ أو تقنيات التنفس من الجذور والاسترخاء من العالَم المُظلم؟!

أسفل الصورة عنوان المحاضرة (أيقظْ العملاق بداخلك)، قرأتْها مرارًا حتى وصلت لمرحلة الاستيعاب، الأمر حقيقيٌّ إذنْ! بلا أيِّ خداع أو مُواربة، المحاضرة عن تحضير الأرواح!!! هكذا خُيّل إليها مِن العنوان، وما إنْ وقع بصرها عن النقاط الرئيسية للبرنامج التدريبيّ حتى هدأت قليلاً فالموضوع لا يخرج عن كونه تجميع لنقاط قواك الخفية واستخدامها للوصول لقمة

النجاح.

لم تجِد الأمر مستساغًا بالرغم مِن عدم رفضها لمثل هذا النوع مِن المحاضرات والبرامج، فقد ذاع صيتها في أوروبا وأمريكا، وهناك العشرات مِن الكتب التي تجوب العالم تتحدّث عن مثل هذه الأمور، ولكنْ كمبادئَ أو قواعدَ وعلوم نظرية حقيقية قائمة على دراسات وأبحاث، لا تقوم على بذلة أنيقة وابتسامة مُتكلّفة بلهاءَ لشابٍّ يتلمّس خُطاه حديثًا في معترك الحياة، لا يملك مِن الخبرات سوى عشرين جيجا من الأفلام الوثائقية، ومصور محترف!

أسفل العنوان حزمةٌ من الشهادات المُعتمدة التي يمكن للمتدرب الحصول عليها مِن أيِّ مكانٍ في الكون كفيلةٌ بأنْ تُحيل حياته العمليّة إلى نزهة، فما عليه سوى الحصول على تلك الشهادات المعتمدة ثم الجلوس في شرفة منزله يحتسي مَجّ النسكافية بتلذُذ وهو يُفاضل بين العمل في أكبر وأقوى مؤسسات الدولة أو السفر للخليج لينعم بآلاف الريالات والدراهم شهريًا. فقط كونُك قد التحقت بالمحاضرة وسدّدت قيمة الاستثمار، تذكرةٌ بمئات الدولارات كفيلةٌ أنْ تُدخلك جنة الله في أرضه، ما عليك سوى الحضور فقط!

أومض في عقلها ذاك الضوء الأحمر القويّ بتتابُعٍ باتت تعرفه جيدًا، جرس الإنذار الخفيّ، حاسّتُها السادسة التي كثيرًا ما وثقت بها فانتهى الأمر بسبْقٍ صحفيٍّ غيرِ مُعتاد، يجوب ملايين البيوت. الأمر يستحقّ الدراسة إذنْ! وهنا قرّرت منال أنْ تقتحم هذا الملف الشائك بكُلِّ ما فيه ومَن فيه، بدأته

بمقالها ذي العنوان الصادم، كما عزمت على المُضيّ قدمًا في كشف أسراره وخباياه.

٦

الأمر ليس صعبًا؛ المطلوب فقط عنوانٌ برّاق، وصورةٌ سينمائيةٌ وعددٌ مِن الشهادات المُعتمدة الموثّقة، دعايةٌ مذهلةٌ، وقاعة في أحد الفنادق ذات النجوم الخمسة، بعدها تتوقّف كي تحصي الغنائم! داعب الأمر خيال شريف زكي، الشابّ الطموح، خريج الجامعة الأمريكية ومسؤول التدريب في المركز الدوليّ لتنمية الذات، الذراع الأيمن لحازم السعدني.

وصل بأفكاره لنقطة الآلاف التي سوف تتدفّق عليه مِن خلال حساب نسبته مِن الربح في أحد البرامج التدريبية المُزمع الإعداد لها بعد أسابيعَ قليلة. يؤرّقه أحيانًا إحساسٌ خفيٌّ يأتيه في غفلة منه كلّما ساورته نفسه أنّ في الأمر خدعةً ما، فيعود له صوابه القديم، ويجلس وحيدًا يُجادِل نفسه في كافّة الأمور، يساوره الشكّ في طبيعة البرنامج وهدفه ومدى استفادة الجمهور منه:

- إيه يعني لما اختار عنوان الـ Event بشكل تسويقي يعجب الناس؟ ماهو ده تخصصي أصلاً إني أصمم حملات الدعاية والتسويق، ودي الشهادة اللي صرفت دم قلبي علشان آخدها من الجامعة.

هكذا حدَّث نفسه.

«قانون الجذب، الباب السحريّ للنجاح»، يا له من عنوانٍ مُبهرٍ ساحرٍ جذّاب! يحوي كلّ عوامل نجاح الحملة الدعائية المُزمع تدشينها، الجميع يتحدَّث عن قانون الجذب، وكتاب السرّ يملأ مكتبات العالم، ويقال إنّه ساهم في تغيير الآلاف. يكفي أننا في المركز الدوليّ سوف نساهم في تفسير هذا السرّ للجميع، نأخذ بيدهم للجانب المُشرقِ من الحياة.

«ولكنْ، هل هو حقيقيٌّ فعلاً؟ أم أننا نخدع الناس!!» هكذا حدَّثته نفسه.

هل يوجد سرٌّ في الأمر؟ أم أنها مجرّد محاضرةٍ وتذاكرَ بآلاف الجنيهات؟ شابٌّ يتحرّك على المسرح بعصبيةٍ وانفعالٍ، والكثير من الشهادات التي لا أصل لها يتهافت عليها الحضور أملاً في وظيفة أحلامهم، أو تأشيرة إلى إحدى دول الخليج حيث الدرهم والريال. بالطبع هناك سرٌّ خطيرٌ وهامٌّ جدًّا! هكذا أكّد لي دكتور حازم:

- قانون الجذب يا أستاذ شريف، ده من نعم ربنا علينا بس اللي يفهمه ويقدر يعمل بيه، إحنا بناخد العلوم اللي بيتفننوا فيها بره، بنشوف مدى توافقها معانا هنا، ونعلّم الناس إزاي يستخدموها صح.

قالها له ذات مرة، أنّ مَن يُتقِن هذا القانون، ويحترف طريقة العمل به في حياته، فإنّه يَصِلُ إلى السرّ الذي سوف يقلب حياته للأفضل دومًا، أمّا مَن لا يقدر على فهمه فلن يشعر بأيِّ تحسُّنٍ يُذكَر!

- يا سلام! يعني يا إمّا حياتي تتغير للأحسن يا سيد شريف وأبقى مليونير وناجح فالقانون يكون صح، يا إمّا أنا اللي مش عارف أستخدم القانون فأكون أنا اللي غلط!

- يعني القانون بتاعكم ده مبيغلطش أبدًا؟!!

منير عرفة، دومًا هو معارضٌ، دومًا يشكّ في كلّ شيءٍ، كثيرًا ما قال شريف له إنه لا يصلح أنْ يكون مدرِّبًا في مجالهم، ولا يُقنِع أبدًا، لطالما ندم شريف كثيرًا على اختياره ضمن فريق العمل من الأساس، لكنه القدر. قفزت كلماته لرأس شريف، مُشتّتةً تسلسُل أفكاره ممّا يزيد الأمر إرباكًا له أمام نفسه، يعمل منير مع شريف منذ سنوات، إلّا أنّه لا يعترف بما يقوم به من برامجَ ودوراتٍ تدريبيةٍ، ولا يقوم بشرح أيِّ شيءٍ غيرِ واثقٍ من كونه علمًا.

- المحاضر الحقيقيّ لا يقنع الناس بجمال صورته أو وسامته الزائدة عن الحد، بل بجمال عقله وقوة معلوماته وشرحه.

لسان حاله يقول ذلك دائمًا، ربما لكونه لا يتمتع بأيّة وسامةٍ على الإطلاق، فلا تشعر إلا بمقولة «قصر ديل» تنساب بين كلماته، يداري بها قصورًا واضحًا في هيئته المربّعة المترهّلة وقصر قامته الواضحة، لذا تراه قد تخصّص في

أحد أكثر الأمور تعقيدًا في مجال التنمية البشرية، وهو الاستشارات النفسية والأُسَرية، نظرا لخلفيته الأكاديمية في علم النفس ودرجة الماجستير التي يفخر بها دومًا في الصحة النفسية والإرشاد الأُسَريّ، بالرغم من احتراف العديد من المحاضرين في هذا التخصص بلا أيّة خلفية أو دراية، وارتقاؤهم فيه بسرعةٍ ملحوظة، فقط بسحر كلماتهم وأناقتهم.

- دول نصابين يا شريف. وفي يوم من الأيام هتصدقني.

يقولها منير مرارًا في العديد من المناسبات التي تجمعهم سويًا، لدرجة ظنّ معها شريف أنْ منير يراه كذلك، نصابًا مثلهم، وربّما كان رأي منير في دكتور حازم أنّه واحدٌ منهم أيضًا!!

يذكُر شريف أنّ منير يتحاشى السعدني دومًا، ولا يحاول الدخول معه في أيّ جدالٍ، بالرغم من عمله في المؤسسة التي يرأس السعدني مجلس إدارتها، يُكِنُّ له احترامًا مشوبًا بالحذر، لولا ثقته في شريف لما تفوَّه أمامه بأيِّ جملة سوى ما يسمح به حدود المعقول، الصداقة وحدها هي التي تحلُّ عقدة لسانه، تجعله أكثر ثقةٍ واطمئنانٍ للبوح بما يعتمل في صدره تجاه زملاء المجال.

ربّما إحساسه بضعف تقدير الذات أيضًا، هو ما يحدو به لِمثل هذا الهجوم؛ فلا أحدَ يطلبه في برنامجٍ خاصٍ، ولا صورته تصلُح لأنْ تكون واجهةً لمُلتقًى جماهيريٍّ، ولا صدى كلماته يُلهِب حماس مستمعيه، ونادرًا ما تراه في مقطع فيديو على الـ YouTube، وإنْ حدث لا يتعدّى مشاهدوه عدد مَن يعرفونه شخصيًا فيدفعهم الفضول لمشاهدة الفيديو، أو مجاملةً له لا أكثر.

بالرغم من كونه يحمل علْمًا، إلّا أنّه غير قادر على تبسيطه للعامة، إنّ جعْلَه في متناول الجميع أمرٌ غايةٌ في الإرباك لمنير عرفة.

- يعني عايزني اشتغل الناس يا شريف!

يصرُّ دومًا على تسمية الأمور بأسمائها الأصلية، فلا يصحُّ أنْ يطلق على علم التحليل النفسيّ، فنّ التعرُّف على الشخصيات، يظلّ يُدافِع عن وجهة نظره التي تحترم ما يحويه عقله من معرفة، بأنّ ما يستخدمه شريف للترويج لبرامجه التدريبية المختلفة، هو تشويهٌ للواقع وتزييفٌ للعلم، فلا يمكن القول إنّ هناك برنامجٌ أو عدّةُ برامجَ حتى، يمكنُها أنْ تصل بالفرد إلى أنْ يمتلك المفتاح السحريّ للتأثير على الناس، أو التحكُّم في طاقة الحبّ والتسامح أو علاج المرض النفسيّ عن طريق إعادة توزيع نقاط الطاقة في الجسم!

يراها كلّها أمورًا غيرَ قابلة للتصديق مهما حاولت إقناعه، فأقصى ما قد تصل إليه معه من نجاحٍ، هو أنْ يمطّ شفتيْه بتردُّدٍ واضحٍ ليؤكِّد أنّها ربّما تكون نظريةٌ ما، لا ترقى لمستوى القانون أو العلم الواضح، فالعلم من وجهة نظره هو ما يمكن قياسه، أو قياس الأثَر الناتج عنه. حتى التدريب في حدِّ ذاته هو نشاطٌ لا يمكن قياسه بالأرقام والإحصائيات، إلّا أنّه يمكن قياس أثره من

خلال النتائج التي تلي هذا التدريب والوقوف على جوانب القوّة والضعف في النقطة المراد تدريبها. وحده منير هو مَن ينغصُ على شريف حياته، صوت ضميره الحيّ الذي يُحيل يومه جحيمًا إذا ما التقى به صدفةً داخل ردهات المركز، جزءٌ منه يؤلمه عندما يكون سائر أجزاء جسده في سعادة واسترخاء.

ما إنْ يستسلم شريف لتدفّق الأفكار الدعائية وتصوُّر صدى حملاته الجديدة، حتى تطفو كلمات صديقه على السطح تمتدُّ لتحرِّك الشكوك الدفينة، تلك التي يخنقها شريف يوميًا رغمًا عنه لينعم براتب شهريٍّ هائلٍ ونسبة من صافي أرباح برامج المركز التدريبية، تختصر عليه عشرات السنين الضوئية إذا ما سلك طريقًا غيرها، سلكه يومًا ما منذ سنينَ عدّة، فعاد منه بكرامة مُهدَرةٍ تركها في مطار القاهرة يوم أنْ حمل جواز سفره متوجّهًا إلى الخليج، عاد بعدها فلمْ يَجِدْ كرامته في صالة الوصول، ولا أسفل المقاعد أو حتى في السوق الحرّة! ولا حين تقدَّم لخطبة إحداهنّ فتساءل أهلُها بخبثٍ: «هوه المحروس بيشتغل إيه؟؟»

المحروس كان مطرودًا من دولة النفط والمال، ليدفع ثمن مبادئَ شبَّ عليها فملكت حياته؛ لم يرضَ أنْ يتقاسم نسبًا رِبحيةً مع زميل عمله أعلى ممّا اتّفق عليه مع كفيله دون علمه، شعر بوخز الضمير وحُرْمة هذا المال غير المُستحق. وِشايةٌ مُتقنةٌ من زميل عمله لدى كفيله ألقتْ به للجحيم مرةً أخرى، ليبدأ مِن تحت الصفر. المحروس كان «عاطلًا»، وحبيبته يسعى

للزواج منها موظفٌ حكوميٌّ كبيرٌ!

- ما شاء الله عنده شقة إيجار قديم في فيصل، واخدة ناصية وتحتها محل ملابس بتاعه، ده غير إنه محاسب في الضرايب قد الدنيا يا فالحة. هوه حدّ لاقي؟

المعادلة محسومةٌ، وشهادة التسويق من الجامعة الأجنبية العريقة لم تشفع لبطالته المقنَّعة عند أهل حبيبته المفقودة، فخسر الصفقة، وانقلب الحال.

سنينٌ مِن الإدمان أنفق فيها ما جمعه من غربةٍ مبتورة، وما تركه له الوالدان مِن إرثٍ قبل أنْ يرحلا لخالقهما، تاركينه فقط مع سجائره ومزاجه المتقلِّب. وحده حازم السعدني مَن أعاد إليه كيانه، وَحَّدَ ذرات وجوده مرةً أخرى، ضبط البوصلة على مؤشِّر الحياة، أطلق شرارة البدء، سرى التيار في عقله دفعةً واحدةً، فعاد قلبه ينبض بالحياة. قبض على تلابيب روحه، يجاهد لِيُنقذ ما تبقّى من آدميته فيما يشبه المعجزة، قضى على الإدمان! رمَّم جِراح القلب والروح، أعاد شحن البطاريات، والأدهى من ذلك، منحه وظيفة العمر وجعل منه مساعده الأول.

لا يعكِّر صفْوَ تلك الجنة سوى ذاك الأنين الباهت، القادم من غياهب روحه، يهمس في أُذنه أنّ في الأمر ما يريب! ذلك الأنين الذي عصف بكيانه في السابق، رافضًا أيّ قرشٍ يدخل جيبه يرى عدم أحقيّته في أنْ يتقاضاه، يوم أنْ كان ضميره أكثر يقظةً، صار وديعًا تحت وطأة ضربات الحياة الساحقة!

وذلك الصوت الغاضب، القادم مِن أحبالٍ صوتيةٍ فجّةٍ، تحمل ملامح منير المتهدِّلة، صديقه الصدوق وكاتم أسراره الأمين،

لذا فشريف يتحاشاه دومًا طالما يعمل على حملةٍ دعائيةٍ جديدة، ولا يلقاه داخل المركز إلا فيما نَدَر.

٧

القاهرة - ١٩٩٢

طابورٌ طويلٌ يمتدُّ بمحاذاة السور الحجريّ نصف المُتهدِّم، وجوهٌ شاحبةٌ يكسوها همٌّ دفينٌ حفر خطوطًا عريضةً داخلها تَشي بما تقاسيه أرواحهم من معاناة تنسلُّ خارجه كلّ صباحٍ، ولا تهدأ ليلاً فتؤرّق نومهم كلّ ليلة. الطابور مُمتدٌّ بلا انتظام، يتلوّى في بعض مراحله كثعبانٍ مريضٍ، يقطعه أحدهم مِن حينٍ لآخر كلّما طال انتظاره.

يصطفُّ الجميع بضيقٍ قاتلٍ وألمٍ مُمِضٍّ في المثانة أو الأمعاء الغليظة، أجسادٌ تعاني ألم الجوع ولوعة الحرمان، وذُلّ الحياة، كما تقاسي مرارة العمليات الحيوية اللاإرادية، فتُنتج ألمًا لا يُحتمَل مِن طول الانتظار؛ فتلبية نداء الطبيعة -كما يُطلقون عليه- ليست رفاهيةً يُمكن لسكان عشش ربيعة في الدويقة أنْ يحصلوا عليها بسهولة؛ حمّامٌ عموميٌّ واحدٌ غيرُ قادرٍ على

حلّ أزمة المئات من البشر، اتّفقوا سويًا أنْ يصطفّوا خارج إطار الزمن، تسلّلوا هاربين من دولة لم تَعُدْ تعي وجودهم أو تضع لهم في خطّطتها الخمسية أو حتى الخمسينية أيّ حساب.

ودون مقدمات، باتوا يدشّنون مشروعهم العملاق الذي بدأ العمل به منذ سنين، ظلّ يمتدّ ويتوغّل ويتّسع بطول الدولة وعرضها، يلتهم ما تطؤه أقدامه من ثوابت وقوانينَ، صار دولةً كبيرةً تُدعى العشوائيات. الطابور يزداد طولاً، والأجساد تكاد تنفجر بحمولاتها المختلفة في ذلك اليوم الخريفيّ الحارّ أوائل شهر أكتوبر.

فرج يتلوّى ألمًا من ثقل مثانته، غير عابئٍ بطول الطابور ومئات العيون المُسلّطة عليه، انتحى جانبًا يفرغ مثانة ساعاتٍ من النوم تخطّت عشر ساعاتٍ كاملة، قلّما ينعم بكلّ هذا النوم الهادئ بعيدًا عن ثورات والده ونوبات جنونه، وسهرات والدته التي بات يعي تمامًا معناها بعد أنْ بلغ من العمر أربعة عشرَ عامًا تلقّى فيهم كلّ أنواع الذلّ والمَهانة وتفتّح وعيه على ما لا يُحتَمَل.

منذ يومَيْن فقط رآهم يحملون الجثة بعد أنْ جرّدوها من ملابسها وما بها من حُليّ أو خواتمَ ذهبية، شِلّته الجديدة التي انضمّ إليها حديثًا بعد أنْ فشل في احتراف سرقة المنازل القريبة من المنطقة، ليُتمّ بذلك دورته الشيطانية بكافّة أساليب الإجرام المتاحة له، بتوجيه من الوالد ومزيد من التوصيات، تمّ قبوله نادورجي في عصابة سيد الأخرس؛ مَلِك السرقة بالإكراه،

صار فرج بعدها من الشخصيات المرموقة في المنطقة، ذا شأنٍ ولَدَيْه ظهرٌ كبيرٌ يستند عليه، حتى إنّه لم يَعُدْ يهاب والده شخصيًا، يتحيّن الوقت لينتقم منه على طفولة لم يعِ فيها سوى الضرب والكيّ بالنار، والحرمان من الطعام، فقط ينتظر ليُثبت لسيد أنّه جديرٌ بمكانته الجديدة في العصابة، بعدها يأتي الانتقام.

ينظر إلى الطابور بشفقة بعد أنْ انتهى من غلق حزام بنطلونه؛ رجالٌ ونساءٌ من مختلف الأعمار؛ عم محمد الشيخ الكبير، طالما تغنّى بأمجادٍ قديمة كان فيها مديرًا لأحد القطاعات في الحكومة قبل أنْ تخدعه زوجته التي أحبّها كما لم يُحبّ أحدًا في الدنيا، وفي غياب أولاد حُرِمَ من إنجابهم باع لها كلّ ما يملك بعقدٍ موثّق في الشهر العقاريّ، فلمْ يمُرّ شهرٌ آخرُ غيرَ العقاريّ، إلّا ولاذت بالهرب مع عشيقٍ لها، شابٌّ عشرينيٌّ يعمل في صيدلية كانت أسفل عمارته. وجد نفسه في الشارع أيامًا وليالي بلا مأوى، قادته قدماه لعشّة ربيعة منذ سنينَ عديدةٍ ربّما كان المؤسس لهذا التجمّع المهول، والأب الروحيّ -إذا جاز التعبير- نظرًا لكِبَر سنّه وتحجُّر ملامحه وانحناءة ظهره الذي ما عاد يستقيم منذ أنْ وعى حقيقة وهم عاش داخله، فما استفاق إلّا على طبيعة غريزية متأصّلة في البشر منذ بدء الكون!

أستاذ توفيق مُدرّس التاريخ، بصلعته اللامعة وعرقه الغزير، زحف إلى المنطقة في بداية زواجه بعد أنْ أقنعه أحدُ السماسرة بأنّ الشقة هناك تساوي وزنها ذهبًا، وما عليه سوى الصبر على حجرته الضيّقة سنتيْن فقط،

تتهاوى فيهما سلطة الدولة تحت وطأة الزحف المُقدّس للأجساد المتكوّمة بالدويقة، فتسمح لهم في نهاية المطاف بالبناء القانوني لِمَا تحت أيديهم بعد أنْ تُمهِّد لهم الطريق وتمدّهم بالمرافق الحيوية، تتمدّدت السنين لتصير عشر سنواتٍ أنجب فيهم ثلاثة أولادٍ يجاهد مريرًا للحفاظ عليهم من مستنقع القذارة الذي وَلج فيه حتى الثمالة.

وردة الحِدَاية، الفتاة اللّعوب، دوما تراها حاضرةً بقوة في أيّ تجمّعٍ بشريّ بجسدها الممتلئ ووجها الجريء، ومهنة لا تحترف سواها منذ أنْ هربت من زوج أمها المريض. قصةٌ تكرّرت كثيرًا معها ومع غيرها من الفتيات اللواتي أنعم الله عليهنّ بجمالٍ طبيعيٍّ مثير، وابتلاهم بأزواجٍ لأُمّهاتهنّ احترفوا التلصّص عليهنّ من فتحة باب أو درفة شُبّاك، ربّما قرّر أحدهم الانقضاض ليلاً في غفلة مِن الزوجة النائمة، فتنتهي القصة بدموعٍ ونحيبٍ طوال اليوم مع عشرات الكلمات اللاهثة مِن فم الفتاة، وأقذع السباب مِن فم الزوج، وانحناءةِ رأسٍ منكسرةٍ من الأمّ قليلة الحيلة.

أيامٌ قليلةٌ تخرج بعدها الفتاة حاملةً ما تبقّى مِن شرفها داخل شنطة تحوي بعضًا مِن ملابسَ تحمل عبق بيتٍ كان يأويها يومًا ما، ربّما تتأخّر في الهرب أيامًا أخرى كما فعلت وردة، تخرُج بعدها بشنطة تحوي ملابسها فقط، مع لعناتٍ قد تصيبها ما بقي لها من العمر! فاجأها زوج أمّها بعد عشراتٍ من المحاولات السابقة، فشل فيها جميعًا مع إصرار البنت أنْ تظلّ بنتًا، رغبتها في الحفاظ على بيتها وخوفها مِن المجهول جعلاها تُؤْثِر البقاء والمقاومة.

خارت قواها تحت ثقل جسده البدين، وعقله الغائب مِن زجاجات الخمر والحشيش، وروحه المريضة بالشهوة.

ألقتْ بنفسها في أحضان عشّة ربيعة بعد أنْ تكرّر الأمر مع زوج أمها مرات عدة إلى أنْ تخطّى حدود المعقول، يومًا ما بعد أنْ أحضر معه أصدقاءه في إحدى سهراته -في غياب الزوجة- فقدّمها لهم كنوعٍ من الترحيب!

وردة لا تعرف في الحياة سوى هذا الأمر، وشباب ربيعة يعرفونها جيدًا، لكنّهم لا يعرفون أنّ أمّه، أيضًا تحترف هذه المهنة ولكنْ لحسابها الخاص، وحده يعرف كلّ شيءٍ منذ أنْ كان طفلاً، أصدقاء والده السكارى وجولات أبيه الأسبوعية ووطأة ليل الشتاء.

ولهذا السبب يشعر بالشفقة على وردة، يرثي لحالها أحيانًا، بل ويُكنُّ لها الكثير من الاحترام كونها قادرةً على مواجهة الحياة بهذا القدر من الشجاعة والصدق، غير مبالية بما يُقال عنها في حضورها أو مُوارَبةً خوفًا من فجاجة لسانها. هي ضحيةٌ لظروفٍ وَجَدت نفسها تتجرّع مرارتها رغمًا عنها مثله تمامًا.

أمّا والدته فلا يَجِدُ أيَّ مبررٍ لما تفعله في غفلةٍ مِن زوجها وأهل المنطقة، طالما ترى أنّ متعتها في هذا العمل المُشين، لِمَ المواربة إذن! فلتكُنْ وردةً أخرى، فالمنطقة تتّسع لعشرات الزهور كريهة الرائحة، عفنة الملمس.

يومًا ما ستدفع الثمن كزوجها، فرج فقط يتحيّن اللحظة المثالية، أمّا ما

يشغل باله الآن فهو الكارثة التي حلّت على عصابته الصغيرة بعد تهوّر سيد في قتل تلك الفتاة أول أمس. الاتفاق كان على خطفها بميكروباص علي اللول، مِن أمام محطة الملك الصالح، ثمّ إرهابها فقط والاستيلاء على الذهب والنقود وإلقائها في أيّ طريق صحراويّ قريب، طرة مثلاً أو المعصرة. تطوّرت الأمور بسرعة عندما حاول سيد الاعتداء عليها بعد إنهاء المهمة، فالبنت كانت «جامدة أوي»، على حدّ قوله «الله يحرقه!»

صرخت البنت مرارًا فلم يستفِقْ عن ضربها إلّا والمِطواة قد أحدثت بها طعناتٍ قاتلةً. يحمد الله أنّه لم يكن معهم في ذلك اليوم، إلّا أنّ البوليس حين يَصِلُ إلى العشش، لن يُفرّق بين سيد الأخرس أو علي اللول وبينه هو «فرج أبو دراع».

نظر طويلاً إلى طوفان البشر أمامه، بصق عليهم مرارًا وتمتم في سرِّه:

- الله يخرب بيتك يا سيد الكلب، هتلمّ علينا المباحث زي الدبان، والمنطقة كلها هتروح في داهية بسببك يا ابن الجزمة.

قانون رقم (٣)

أَخْفِ نواياك

أبقِ الناس في حالة عدم توازنٍ وفي ظلام، بعدم الكشف عن الغرض مِن وراء أعمالك. فإنْ لم يكنْ لديهم أيّ مؤشرٍ على نواياك فلن يقدروا على إعداد أيّ دفاعٍ أو ردّ فعل.

دعْهم يقطعون مسافةً بعيدةً في الطريق الخاطئ، وطوِّقهم بكميةٍ كافيةٍ مِن الدخان بحيث يكون الأوان قد فات عندما يدركون مقاصدك.

٨

القاهرة - ٢٠٠٩

تداعِبُ أنامله خصلةُ شعرها المنسدل بعنايةٍ أعلى جبهتها البيضاء، تتوارى ضحكتها خلف ستارٍ من الخجل النقيّ، كاشفةً عن عينيْن بُنّيّتيْن لامعتيْن، وروحٍ مشرقةٍ أكثر بريقًا. تُشيح بوجهها بعيدًا عن أعين المحيطين بها في ذاك المطعم العريق في وسط البلد، تنظر إلى عينيْه الهادئة بدهشةٍ قائلةً:

- مش هتبطل حركاتك الطايشة دي يا نجم يا مشهور!؟ الناس حوالينا من كل ناحية عينها منزلتش عنك مش مصدقين إنك حقيقي زيهم.

أراح أنامله على طاولة المطعم يبحث عن جملةٍ تُوجز ما يعتمل داخله من أحاسيسَ، أغمض عينيْه مُحاوِلاً استدعاء صورةٍ ثلاثية الأبعاد لمشاعره، إنْ جاز له ذلك التعبير.

هايدي الزيات، وحدها أسقطت جميع الحصون، وتهاوَتْ أمامها دفاعاته

المنيعة، أو هكذا خُيِّل إليه؛ أنهى محاضرته على عجلٍ في الجامعة الأمريكية، كان حديثُه شيِّقًا، والحضورُ غايةً في النشوة، والتفاعلُ في أقصى درجاته. ظلَّ يتحدَّث أكثر مِن ساعتيْن بلا انقطاعٍ عن قوّة القرار في حياتك؛ الحياة قرار! النجاح قرار! العمل قرار! والحبُّ قرار! هايدي وحدها أحد أهمّ وأكثر القرارات قوّةً في حياته.

تأهّب لترك القاعة، لارتباطه بندوةٍ هامّة في أحد نوادي الطبقة الراقية، وكعادته لا يفوِّت فرصة ظهورٍ إلا وعليها إمضاؤه الساحر، فإذا بها تعترض طريقه بكلِّ خجل؛ وجهها كاد يذوب من فرط الحرارة المتصاعدة على خدَّيْها اللذيْن توردّا خجلاً بلونٍ أحمرَ قان:

- آسفة يا دكتور، بجد مش هتحمّل أضيع فرصة زي دي من غير ما أسألك سؤال بقالي سنين نفسي أعرف إجابته.

ألجمت الدهشة لسانه، وهو المتحدثُ الأشهر في الوطن العربي، فهزّ رأسه موافقًا.

- أنا عايزة أكون زيك، أعمل كده إزاي؟

سؤالٌ طالما طُرِحَ عليه مرارًا من شبابٍ يروْن فيه القدوة والنجاح الحقيقيّ، وفتيات يريْن فيه الأخ أو الزوج المثاليّ الذي طالما حلمْن به، إلّا أنّ وقْع السؤال على مسامعه مختلفٌ كليًّا هذه المرة؛ لم يعتَدْ أنْ يتلقّى أسئلته من ملائكة، وهل هم في حيرةٍ مِن أمرهم مثلنا؟ بل والأدهى أنْ ينتظر الملاك

منك جوابًا. وكمْ هي نادرةٌ تلك المرّات في حياة الفرد! ولأنّها لا تتكرّر، وتستلزم الحسم الجادّ، حزم قراره في سابقةٍ هي الأولى في سجلّه التدريبيّ الحافل.

أخرج قلمًا وورقةً بسرعة البرق، خطَّ عليها رقمه الخاص، مادًّا يده إليها بالورقة، ثم تركها مندفعًا كالسهم باتّجاه الخارج غير مبالٍ بطابور المعجبات في آخر القاعة.

- رحت مني فين يا حبيبي؟!

قالتها هايدي بتعجُّب، ففتح حازم عينه كأنّما يراها لأول مرةٍ منذ جلستهما المُمتدّة منذ ساعة، قائلاً لها:

- أبدًا والله يا قلبي، هو ينفع أروح في مكان غير معاك؟ أنا بس بحاول أدوّر في قاموسي على جملة توصف إحساسي بيكي، بس مش عارف.

رفعت حاجبيْها بدهشةٍ حقيقيّة:

- بقى حازم السعدني ساحر الكلمات، مش عارف يعبّر عن مشاعره؟! طب إزاي؟!!

مُحاولاً الإمساك بيديْها، قائلاً لها:

- معاكي إنتي بس بكون إنسان تاني، بنسى أيّ حاجة كنت أعرفها قبل كده، بنسى شغلي ومواعيدي وأبحاثي ومحاضراتي، بنسى إني شخصية عامة

المفروض أحافظ عليها، وبكون على طبيعتي. مش مهم الناس شايفة إيه. المهم إنتي حاسة إيه؟

لطالما حلمتْ أنْ تلقاه، حاولت التوصُّل لأيِّ طرف خيطٍ يمنحها شرف هذا اللقاء، عشرات الرسائل الإلكترونية، مئات الرسائل النصيَّة على أرقام العمل المختلفة، آلاف التعليقات وإشارات الإعجاب والمتابعة، أرسلتْها داخل صفحاته الخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي، تحكي فيها له كلَّ شيءٍ عنها، حياتها، والديْها، عزلتها القاتلة، ورغبتها الجارفة أنْ تحذو حذوه.

مع يقينها باستحالة اهتمامه بأيٍّ مِن رسائلها وسط حشد حياته المزدحمة على الدوام بالبرامج والدورات التدريبية وحفلاته التنموية، تشعر دومًا بالوحدة، ولا يأبه بها أحدٌ في المنزل؛ والدها المستشار هشام الزيات، رجل النفوذ والعدالة الذي قلّما نظر إليها نظرة الأب الذي تقرأ عنه في القصص والروايات، تراه في السينما يحتوي وينصح ويقوِّم ويقيِّم، يضحك ويحزن، يغضب ويهدأ، لم ترَ في واقعها سوى أبٍ يأمُر فيُطاع!!

أمُّها سيدة الأعمال المرموقة، صاحبة السهرات الراقية والحفلات الخيرية، تلك التي تُهدِر مِن الجنيهات في التنظيم والإعداد أضعاف ما يتمُّ جمعُه مِن تبرعاتٍ على شرف الحاضرين! لم تقدرْ أنْ تستوعب كيف لحفل تبرُّعٍ لجمعية رعاية الأيتام أنْ تكون حصيلة ما تمّ جمعُه عشرة آلاف جنيه، في حفلٍ طُبِعَتْ له دعواتٌ تكلَّفت ألفيْن مِن الجنيهات، بينما كان البوفيه عامرًا بأصناف مأكولاتٍ تعدَّتْ العشرين ألفًا دون مبالغة، في قاعة فندقٍ مِن ذوي

الخمسة نجوم يتعدّى قيمة الحجز فيها خمسة آلافٍ مِن الجنيهات للساعة الواحدة!!

ولِمَ الحفل والتبرُّع مِن الأساس؟ فسيارةٌ واحدةٌ فقط مِن أسطول سيارات الحضور الفاخرة يكفي نصفُ ثمنها أنْ يُقيم دار أيتام كاملة، بل ويَفي كافّة احتياجاتها لمدة عامٍ على أقلّ تقديرٍ، هذا إنْ كان ضميرُ أولئك الحضور ينبض بالحياة لا بالمظاهر الفارغة!

أيُّ عبثٍ هذا؟!!

لمْ تجدْ جوابًا لِمَا يصل إليه حالها مِن تدهورٍ وانهيارٍ، فزادت عزلتها، تتوارى خلف شاشة ١٩ بوصة في أقصى حجرتها التي تحوي مكتبةً رُصَّتْ على أرفُفها مئات الكتب التي تعشق الغوص في عالمها، هربًا مِن واقعٍ ليس لها فيه مكانٌ.

٩

القاهرة - نهاية ٢٠٠٩

تاريخٌ حافلٌ بالإنجازات لا ينكره إلّا جاحدٌ، كؤوسٌ وميدالياتٌ ومنصاتٌ وتتويجٌ، عشقٌ وجنونٌ وتشجيعٌ، أهلي وزمالك وألتراس.

تجري كرة القدم في دماء المصريين، تاريخٌ صنعه تراكُم أجيالٍ لم تجدْ نفسها سوى بإلهائها في بالونة مُلئتْ بالهواء تتقاذفها أرجلُ شبابٍ احترفوا اللعب على المشاعر الفارغة لمتابعيهم، لا همَّ لهم سوى إحراز الأهداف في مرمى الخصم، وحصد المزيد من البطولات.

حلم الصعود يُلهِب المشاعر بالحماسة، ويعمي النفوس عن الدنيا بما فيها ومَن فيها إلا حدثًا واحدًا فقط، يتأهّب له الجمع بشغفٍ واستعدادٍ يكاد يُلامس حالات الحرب القصوى، إنّها مباراة مصر والجزائر الفاصلة في نهائي التصفيات المؤهلة لكأس العالم ٢٠١٠!!

يحترف النظام مثل هذه الحملات المُمنهجة في إلهاء الرأي العام بشيء فارغ المحتوى لا جدوى منه، طيفٌ لامعٌ برّاقٌ، نهايته فراغٌ ولا شيء سواه. فعلها مرارًا في السابق، عشرات السنين، ولايزال العرض مستمرًا، مع اختلاف المُخرجين وكُتّاب السيناريو، إلّا أنّ العقلية واحدةٌ والنظرية قديمةٌ قدم الزمان ذاته.

بإمضاء وليد الأسيوطي هذه المرة يأتي سيناريو المباراة التاريخية، فعلَها في السابق في نهائي كأس الأمم ٢٠٠٦ في مباراة مصر وكوت ديفوار، وقبلها في مبارة السنغال. كانت المباراتان بمثابة طوق النجاة لحكومة ضَرَبَ الفساد ثناياها وفاحت رائحته تملأ الجوّ قتامةً وسوادًا، تجلّى في كارثة عبّارة السلام؛ أجسادٌ تكوّمتْ فوق بعضها في استسلام، تحلم بلحظة لقاء مع أهلها، مَن تركوهم رغمًا عنهم في سبيل لقمة عيشٍ لم يجدوها في وطنهم، عبّارةٌ غير مطابقة لأيِّ مواصفات تصلُح في أيِّ ميناء ماعدا الوطن المباح والمستباح، فكلُّ شيءٍ فيه متاح.

اكتظّت الأجساد في كافّة الأرجاء، حمولةٌ تفوق مواصفات السلامة الأمنية سلبًا، ما يوازي الضعف. أملاً في الوصول، وحبًا في قيمة مخفضة لتذكرة لم تعبُر بهم البحر أبدًا، بل عبرت بهم إلى سماء أخفَّ وطأةً من مرارة العيش على أرضٍ لم تَعُدْ تُطيق وجودهم. تحدُث الكارثة فيغرق الآلاف، فتقوم الدنيا ويهذي الجميع، تتعدّدت وقفات الاحتجاج أمام سلّم النقابة ودار القضاء وعلى أبواب الفضائيات، فينتفض الرئيس حامي البلاد والعباد، رجل

الأمن والأمان، يُسارِع بزيارة مفاجئة لمعسكر منتخبنا الوطنيّ الرابض على جبهة ستاد القاهرة استعدادًا للقاء الحصريّ في نهائيّ البطولة، في لفتة نادرًا ما تراها في تاريخ الدول الكبرى! لفتةٌ حانيةٌ من الأب لأبنائه، مانحًا إياهم الأمل، وإيّانا رغد العيش!

تمّ هذا كلُّه بتوجيه وإخراج عالي الجودة مِن الذراع الأكثر سطوةً؛ وليد الأسيوطي. وبتخطيطٍ من العقل العبقريِّ سعد المحمدي، فما هي سوى أيام حتى يتناسى الناس آلام اليتامى ودموع الأمهات، فباتوا يتراقصون طوال الليل على نغمات: «والله وعملوها الرجالة ورفعوا راس مصر بلدنا».

يتقن وليد الأسيوطي فنَّ اللعب بملفاتٍ غايةٍ في الأهميّة والحساسية من أجل حفظ الأمن والإبقاء على النظام قويًا متماسكًا، لديه من العصيِّ الكثير في جِرابه، يسحب إحداها كلّما لزم الأمر، يهدّد بها مرةً ويضرب بها مرات أخرى.

بدو سيناء إحدى عِصيِّ وليد السحريّة، يلوّح بها أحيانًا في وجه إسرائيل، مُذكرًا إياها بأهمية بسط سطوته عليهم، فهم مُلوك الأنفاق، ومنها يعبُر كلُّ شيءٍ قلبَ إسرائيل. ويلوّح بالأنفاق ذاتها في وجه شيوخ سيناء من أجل عيون إسرائيل، يَعِدُهم بعدم الملاحقة، وتركهم لشأنهم وللبيزنس الخاصّ بالتهريب، مُذكرًا إياهم بالمحرّمات: «إياكم والسلاح فهو ممنوعٌ تمامًا، أمّا الحشيش أو الآثار فهما بحسب الاتفاق، النسبة تحدّد مقدار رضاه وغضّه الطرف. ولا ضير من مُقايضتهم بين الحين والآخر بأحد المحكوم عليهم

من أبناء سيناء في سجون النظام مقابل مزيدٍ من الأمن والأمان في شرم وطابا والعريش، أو مقابل الصمت على قتلاهم بالخطأ على الحدود المقابلة برصاص عدوٍّ لا يعرف معنًى للعهود والمواثيق الدولية.

الفتنة الطائفية إحدى قنابل وليد الموقوتة، يلجأ إليها أحيانًا كلّما أراد إعادة بعض الأمور إلى نصابها الصحيح، ملفٌّ شائكٌ وشديدُ الخصوصية يرتبط لديه بعدّة نقاط، تتجمّع في نهاية المطاف لتصبّ في صالح النظام وحده؛ فما إنْ ترتفع حدّة الخطاب الأمريكي الداعي لديموقراطية حقيقية في البلاد، حتى تنفجر كنيسةٌ ما، أو تُشهِر إحدى القبطيات إسلامها، فيتبارى أهل قريتها من الجانبيْن في حشد أنصارِهم داخل ساحات الكنائس لنصرة المسيح، أو أعلى منابر المساجد للذوْد عن الإسلام.

يتدخَّل النظام لفرض سطوته على المشهد، يجمع المئات مِن الإسلاميين الموتورين الإرهابيين، يعلن عن السماح ببناء المزيد من الكنائس بجوار المساجد مُوحيًا بالمشهد المُبتذل دومًا؛ هلالٌ يتوسّطه صليبٌ، مُعلنًا عن وحدة الوطن الواحد والنسيج الواحد.

يتوسّط أقباط مصر والمهجر لدى حكومة العمّ سام لتخفيف حدّة الحديث، فالأمر في مصر ذو خصوصيةٍ متفردة، يكفي أنّ الدولة تحمي حقوق الأقليّات، وتسهر على أمنهم وراحتهم!!!

في الجامعات يملك الأسيوطي عِصِيًّا سحريةً عديدةً، كأذرُع الإخطبوط تتغلغل في جامعات مصر؛ فالحياة السياسية داخل الجامعة يغلب عليها الطابع الأمنيّ بالكامل، بل تكاد تجزم بمنتهى الثقة أنّ انتخابات اتّحاد الطلاب يتمُّ حسمُها في مكاتب قادة حرس الكليات قبل موعدها بأسابيعَ.

التعليمات واضحةٌ في هذا الشأن: غيرُ مسموحٍ إطلاقًا بأيِّ وجوهٍ من التيار الديني الإسلاميّ، الذراع الشبابيّ لجماعة الإخوان المسلمين داخل الجامعات، وله في هذه الأمور باعٌ طويلٌ من الخبرة والنفوذ؛ فمن عمليات الخطف وإرهاب الفتيات، إلى تلفيق المَحاضر واستبعاد الطلاب، أو حتى الحرمان مِن بعض الامتحانات، وصولاً للحرمان مِن الإقامة في المدن الجامعية.

كلُّها أدواتٌ يضغط بها على الشباب المرشَّحين لسحب ترشُّحِهم أو استبعادهم، صورةٌ مصغَّرةٌ لِمَا يحدث في انتخابات مجلس الشعب. واستكمالاً لعبثيّة الصورة، تمتدُّ أذرعه الأخطبوطية لإحداث أعمال شغب وبلطجة داخل الحرم الجامعيّ، يتمّ فيها الاعتداء على الطلاب المعارضين بمنتهى القسوة والوحشية، تبدو كأنها مشاجراتٌ بين الطلاب بعضهم بعضًا، غالبًا السبب واحدٌ؛ وجود فتاة وهمية في الأمر.

معهد إعداد القادة بحلوان وفروعه بمختلف المحافظات، من عِصِيِّ وليد المتطورة، تلك الفكرة العبقرية التي تقوم على تجميع طلاب الجامعات في معسكرات شبابية شِبْه عسكرية، حيث الحياة المنضبطة والمسؤولية، مع إجبارهم على حضور محاضرات يومية لمدّة أسبوعيْن متواصليْن، يُتْحِفُهم

فيها ضيوف المعهد الكرام مِن خيرة وزراء وسياسيِّي الدولة ممّن يحترفون العزف المتناغم في ذات الدائرة. يظلُّ الطلاب يتجرَّعون ذلك الهراء يوميًا، في الصباح وبعد الظهيرة. حتى يتمَّ غسْلُ عقولهم بنجاحٍ تامٍّ، تتمُّ معها عملية برمجةٍ مُمنهجةٍ على مدار العام، يستقبل فيها الكيان التابع لرئاسة الوزراء -تحت إشراف أمن الدولة- آلاف الطلاب مِن مختلف الجامعات، ليخرُجوا بعدها وقد تهيّأت عقولهم لاستقبال خطابات الحكومة وخططها التنموية. بل والأدهى؛ إنجازاتها ومعدلات نموِّها الخرافية!

يهرولون على كارنيه عضوية الحزب رغبةً منهم في المرور مِن أيِّ كمين أو الاستفادة مِن الرحلات المُدعَّمة والمزيد مِن المعسكرات الوهمية. وتطويرًا للفكرة تتقدَّم جمعية «جيل المستقبل» لتحتلّ النصيب الأكبر مِن حملة تأهيل الشباب لسوق العمل بعد تخرُّجهم مِن كُليّاتٍ نظريةٍ لا تفي مُقرّراتها بالحدِّ الأدنى لِمَا يحتاجه سوق العمل.

يتلقّاهم مندوبو الجمعية المنتشرون في كافّة أنحاء القُطر المصريّ، حاملون معهم حلَّ الوظيفة المرموقة، مسلحون بأحدثِ ما توصَّلت إليه علوم التنمية والتدريب في العالم، فيلتحق آلاف الشباب بها، وتتوالى حفلات التخرُّج، وتنهال الملايين على خزانة الجمعية مِن رجال أعمال النظام، ومَن الذي يجرؤ على الحَيْد عن الصف؟ ورئيس مجلس إدارتها هو الوريث ذاته! وهنا تتجلّى عبقرية النظام في خلْق شعبيةٍ عمليةٍ طاغيةٍ لوريثٍ لا يحمل مِن مقوِّمات الرئاسة سوى جيناتٍ وراثيةٍ وبيئةٍ رئاسية.

يُصدر الأسيوطي تعليماته لعملائه داخل الفضائيات للعزف على نغمة التحريض وشحن الرأي العام مِن دولةٍ عربيةٍ شقيقة، غير مُبالٍ ببوادر أزمةٍ دبلوماسيةٍ تلوح في الأفق، غير عابئ سوى بإرهاب الفريق الضيف، الإيحاء له بأنّه سوف يطأ أرض معركةٍ، ساحةَ حربٍ لا مباراة كرة!

إمعانًا في التأثير عليه، أعدّ العُدّة بمجموعةٍ مِن المُشجِّعين المتحمِّسين لاستقبال منتخب الجزائر أمام المطار لبثِّ الرعب في نفوس اللاعبين، ممّا ينعكس سلبًا على الأداء، فيخسر المباراة، بذلك يصعد المنتخب لكأس العالم، حلم الملايين وأملهم.

إلّا أنّ هذا لا يعنيه، ما يشغل باله هو أنّ الصعود يطغى على سلبيات الحكومة، وملفات تصدير الغاز، كما يصبُّ في مصلحة ازدياد شعبية الوريث الذي باتت مُلاصقةً لإنجازات الرياضة عامّةً، ومنتخب كرة القدم على وجه الخصوص.

١٠

القاهرة -١٩٩٢

مازالت أصداء جريمة القتل تلقي بآثارها على عِشة ربيعة، بالرغم من مرور أسبوعٍ عليها؛ فضابط مباحث منشأة ناصر قد أقسم بالطلاق أنْ يقبض عليهم بنفسه، فلا أحدَ يفعلُها في منطقة نفوذه، ولم يُخلَق بعدُ مَن نجا بفعلته في وجود هذا الضابط.

عشرات الكمائن والمخبرين، تنتشر في المناطق المحيطة؛ المقطم ومقالب الزبّالين والخزّان وعزبة حشمت ومنشأة ناصر، لا أحدَ يُفلِت منهم ولن يهدأ لهم بالٌ.

اختفى علي اللول تمامًا، وتمَّ القبض على سيد الأخرس، إلّا أنّه لم يعترف على أحدٍ وقد يتحمَّل وحده العقاب، الخوف مِن علي أنْ يسقط فهو نذلٌ ولن يتوانى عن إلقاء فرج خلف القضبان عشرات السنين، في جريمةٍ لم

يشارك بها، فقط كي لا ينعم في الخارج دونهم. هكذا حدَّث فرج نفسه وهو يختبئ في إحدى مغارات صخور الدويقة، التي يلجأ إليها طوال النهار هربًا من أيِّ هجومٍ محتملٍ من المباحث.

يلقي بصره على التجمعات الآخذة في الاتّساع، كيف تتجلّى عبقرية العقل البشري العشوائيّ في بناء عِشَاشٍ من الصفيح والخشب الأبلكاش وبعض الأحجار متعددة الأحجام بين ثنيات الصخور وأعلى سفوح الهضاب، تتناثر على السطح الصخريّ كقطعٍ من شواهد القبور تبحث عن الأمان في حضن جبلٍ قد تتحرك صخوره في أيّ لحظةٍ لتُطبق عليهم بلا رحمة.

انتفض فزعًا حين لامست أفكاره نقطة انهيار الصخور من تحته، خُيِّل إليه أنّه واقعٌ تحت تأثير خواطره السوداء، إلّا أنّ بعض الحصى التي بدأت تهبط فوق رأسه دفعته للتيقّن بأنّ كارثةً ما على وشك الحدوث. هبَّ مسرعًا للخارج يلقي بصره على الشواهد أسفل الصخرة العملاقة، وقد انتاب سكانها جنونٌ مفاجئٌ؛ الكلّ يركض في أيّ اتجاه؛ أم عبير تخرج شبه عارية من حجرتها حين فاجأتها الهزّة على حين غرة، عم ملاك خادم الدير يخرج من الحمام العموميّ عاريًا وقد تلطّخ ببقايا فضلاته! همّت وحسن وزينب وأم صباح جميعهم يتدحرجون على الأرض الصخرية بلا وعيٍ!

حتى هو لم يصمد لثوانٍ حتى سقط على وجهه، وظلّ يتدحرج للأسفل حتى استقرَّ غير بعيدٍ عن السفح، ثم هدأ كلّ شيء، ثوانٍ معدودةٌ يكاد يجزم إنّها لم تتخطَّ الدقيقة قلبت الأرض رأسًا على عقبٍ، يعي فرج أنّ حياتهم

جميعًا داخل هذا العالم مقلوبةٌ بالأساس، فلا شيء يؤثّر فيها، دومًا يتندَّر بأنّ المنطقة محتاجةٌ زلزالاً يمكن يعدلها.

إلّا أنّه لم يكن يتصوّر أنّ الزلزال(١) سوف يشطرها نصفيْن كما هي الآن، الصخور تزحزحت، اقتحم بعضها حرمة البيوت -إنْ كانت لها حرمةٌ- تهاوت أجزاءٌ من الحوائط، تصدَّعت أجزاءٌ أخرى، أمّا النفوس فلم تكن أحسن حالاً فهي مُهدَّمةٌ من الأساس. ما إنْ بدأت حدّة الأمور في الهدوء والعودة لما كانت عليه قبل الهزّة العجيبة حتى قفز إلى ذهنه خاطرٌ جهنميٌّ، أين والداه في كلّ هذا؟

يسرع الخُطى نحو عِشّتهم، فما إنْ يراها منتصبةً لم يمسّها أيُّ ضررٍ حتى يقتحم الباب تحيطه مشاعرُ شتى، ليس القلق والخوف على والديه أو أحدهما، بل دعوةٌ دفينةٌ بأنْ يرى صخرةً ما شاردةً قد ضلَّت طريقها لتستقرّ أعلى سريرهم ساحقةً الرأسيْن معًا، أو أنْ تنشقَّ الأرض ساحبةً إياهم في أحشائها لينعم بحياته دون سطوة أبيه ومُجون أمه. تحطّمت آماله حين رآهما يغطّان في سباتٍ عميقٍ غير عابئيْن بالقيامة التي قامت حولهما، هي عادتهما حين يُذهب الحشيش والبيرة المغشوشة برأسيهما إثْرَ سهرة صبَّاحي، يسقطانِ بعدها في مستنقع شهوةٍ يأتي على ما تبقّى من وعيهما، فلا يعي كلاهما إلّا صباح اليوم التالي.

تطلّع إليهما طويلاً، كم يمقتُهما من أعماق فؤاده! يبحث في ثنايا نفسه فلا يجد شيئًا يصلُح أنْ يطلق عليه أبوّةً أو أمومةً من أفعالهما معه، بالرغم من

عدم معرفته بما يجب على الأهالي فعلُه مع أبنائهم في الطفولة؛ فأطفال عِشّة ربيعة بلا طفولةٍ -إلّا مَن رحم ربي- إلّا أنّه يعي تمامًا أنّ ما حدث في طفولته بعيدٌ كلّ البعد عن الإنسانية في قاموس الفطرة والغريزة، يقبع وعيه هناك، على يقينٍ بحجم الكارثة التي ارتُكِبَتْ في حقّه تُحيلُه وحشًا بصورةٍ مُمنهجة تواطأ فيها أهله بفعلٍ فاعل، ومباركة مجتمعٍ يجب أنْ يدفع الثمن يومًا ما. ما عليه إلّا الصبر والتأني والتركيز، ليصل بعدها إلى انتقامه الكامل.

يدور حول الجسديْن الغائبيْن عن الوعي أمامه مُمسكًا بحبلٍ غليظٍ وجده أسفل السرير، يُحكم شدّ وثاقهم بقوةٍ وحذرٍ خشية إيقاظهم وفي أعماق رأسه تتعاظم الفكرة. يتأمّل وجه والده الذي لا يعرف عنه شيئًا، إلّا من معلومةٍ مبتورةٍ قالتها أمه له يومًا ما أنّهم لا ينتمون لهذا المكان، وأنّ أباه من إحدى قرى الصعيد؛ كيف لِمَن تأصّل بعاداتهم -كما يسمع دومًا عن الصعايدة من جيرانه- أنْ ينام مع زوجته في حضرة طفله؟ أنْ يُلقي به في هاوية الإجرام؟ وهو ابن المبادئ والرجولة! لا يعي فرج عن والده سوى تلك المعلومة، يَخفَى عليه ما حدث من عشرات السنين من طيش والده حمدان أبو دراع؛ لقبٌ اكتسبه من قوّة ذراعه التي لا تخطئ أهدافها ولا يثنيه عنها أيّ شيءٍ إذا ما تدخّل في عراكٍ ما مع أيّ شابٍّ في قريته الريفية الهادئة.

حمدان شابٌّ صعيديٌّ، متعصبٌ وقابلٌ للانفجار في أيِّ وقتٍ، إذا ما ضغط أحدهم زناد أعصابه أو وطأ أرض كرامته دون قصدٍ - يوم أنْ كانت لديه

كرامةٌ-؛ ففي إحدى الخلافات العائلية التي كثيرًا ما تندلع في قريته بسبب أو دون سببٍ، تطوّر الأمر مع أحد جيران حمدان في أرضه الزراعية، إذْ صفعه الجار على وجهه بعد أنْ سبّه حمدان لتأخُّر حصّته في ريِّ أرضه عن موعدها المتّفق عليه بينهما، فما كان من حمدان إلّا أنْ شجَّ رأسه نصفيْن بفأسٍ يحمله بين يديه، يعمل عليه في تسوية الأرض وتهيئتها للزراعة.

سقط غريمه مضرجًا بدمائه، فاضت روحه في ثوانٍ، صار بعدها حمدان مطلوبًا للثأر منه. فرَّ الشاب الموتور مُودعًا خلفه عائلته وأرضه وكافة ثوابته، وعلى عتبات إحدى عمارات وسط البلد في القاهرة استقرَّ به الحال بوابًا غارقًا في زحام المدينة، تتقاذفه أمواج الحداثة وتيارات الانفتاح، تمتصُّه وتذيب خلاياه رويدًا رويدًا.

لم يصمد طويلاً حتى استسلم لصديق السوء مسعد أبو رية، جذبه في طريق الحشيش، وعده بحياةٍ أفضل بعيدًا عن ذُلّ الخدمة في البيوت، وحمْلِ أكياس التسوُّق لقاطني العمارة مع تحمُّل عباراتهم المُهينَة، وهو مَن هو! ابن الريف، الصعيديّ الأصيل، لا يمكن أنْ ينتهي به المطاف بغسل السيارات وسلالم العمارة، وإلقاء القاذورات في الساحة المجاورة له، ليس لأجل هذا هرب إلى القاهرة!

خطّطا سويًا لسرقاتٍ عدّة أغلبها من سكان البناية التي يعمل فيها بوابًا، أو بناياتٍ مجاورةٍ يتردّد عليها حمدان مرارًا، حتى فطن السكان له فهرب بعيدًا.

في منزل مسعد تعرف على أخته عنايات، تزوّجها بعد فضيحة أعدّتها له بعناية تُداري بها على فضيحة سبقتها، في غياب مِن العقل بفعل المُخدّر، تمّ الأمر كلّه. طردهم مسعد مِن منزله بعد أنْ تخلّص أخيرًا مِن عبء أخته وفضيحتها السابقة، ليستقرّ الحال بحمدان وزوجته في أحضان الصخور أسفل الدويقة.

يلتفت فرج إلى الجهة المقابلة، يُحكِم وثاق أمّه ضاغطًا على جسدها بحرص، يقطُر غضبًا تأجّج منذ أنْ وعى معنًى لوجوده. يراها دومًا تهوي في بحر المتعة المحرّمة، تتقاذفها الأحضان، وتحوطُها الأذرع والسيقان، غير عابئةٍ بتكوُّمه في أقصى أركان الحجرة، تتجمّد أطرافه مِن برد الشتاء، يفتكُ به الحنين لحضن أمومة دافئٍ طالما داعب خيالاته، فلا يرى وسط دموعه إلّا صدى ضحكاتها الماجنة تلفح روحه.

لا يعرف عنها شيئًا، ولا يعنيه أنْ يعرف سوى ما فطن إليه وهو يخطو أولى خطواته المتردّدة في عالم الرجولة، قادته غريزته لحقيقة الأمر، فأظلمت الدنيا أمامه أو صارت أشدّ ظلامًا مِمّا كانت عليه في السابق.

يخطو بعيدًا عنهما بعد أنْ أحكم الوثاق، تملأ النشوة روحه، يلهث مِن فرط التأثُّر والحرص، بهدوءٍ تتجّه يده إلى أحد أركان الدولاب الخشبيّ المهترئ بجوار السرير، يحوي خاتميْ ذهبٍ وبضعَ مئاتٍ مِن الجنيهات، يدسُّهم في جيبه على عجلٍ، ومن أسفل السرير يسحب جالون مملوءًا بالبنزين، يحتفظ به والده لزوم الشغل، يحتاجه في بعض أعمال البلطجة.

ينثر السائل بصورةٍ دائريةٍ حول السرير وفي حلقاتٍ أخرى تتّسع بتتابُعٍ مدروسٍ، على عتبة الحجرة يقف منتشيًا وبين يديه عود الثقاب وعيناه مثبتتان على والده الذي تسلّلت رائحة السائل النفاذة إلى أنفه تُعيد إليه وعيه المسلوب، لثوانٍ لم يعِ شيئًا، إلّا أنّه تدريجيًا بدأ يربط الأمور ببعضها بعضًا، جسده مُحكم الوثاق، رائحة البنزين، ولده الذي يمسك بالثقاب بكلّ غلٍّ وتشفٍ!!

وقبل أنْ يصرخ الأب عالجه فرج بأحد الأحجار التي كانت بجواره، أصابته في منتصف رأسه فمادت الأرض تحته بقوّة، ومع ترنُّحه على سريره ألقى فرج بالثقاب المشتعل لينتهي معه الأمر كلّه في ثوانٍ، خرج بعدها الفتى يولول برعبٍ أسفل العشاش، يحثُّ الناس على إنقاذ والديه من الحريق الذي حدث بفعل الزلزال!!

ومع هرولة الحشد لإنقاذ ما تبقّى مِن جثث والديه، بعد تأكُّده استحالة إقدام أيِّ مخلوقٍ على اقتحام هذا الجحيم، انزوى فرج يبكي بتأثُّرٍ على الفاجعة التي حلَّتْ بأُسرته، بينما يحاول جاهدًا السيطرة على حالة النشوة الطاغية داخل نفسه. قد علم أخيرًا لماذا أسماه والده فرج؛ رآها في عينيه قبل أنْ يسقط صريعًا، تلك النظرة التي توحي بأنّ الخلاص سوف يُساق دومًا على يديه.

قانون رقم (٤)

عكر المياه لتصطاد السمك

الغضب والانفعال العاطفيّ يعطيان نتائجَ عكسيةً، لذا عليك أنْ تبقى هادئًا وموضوعيًا على الدوام.

إنْ استطعت إغضاب أعدائك بينما تبقى هادئًا، فإنّك تكسب ميزةً حاسمةً.

اعثر على شقٍّ في غرورهم تستطيع من خلاله أنْ تهزّهم بقعقعةٍ بينما تمسك أنت بالخيطان.

١١

القاهرة -٢٠٠٩

ألا تنتهي المصائب أبدًا!!!

ما جال في خاطر وليد الأسيوطي حين وضع سماعة هاتف مكتبه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، لا تجد مصائب البلد صدرًا أحنّ من مكتبه حتى تحُطّ رحالها بالكامل فوق أمّ رأسه!!

يُعدُّ العُدّة، يراجع المُخطّط عشرات المرات، يحصي كافّة الاحتمالات، لا يترك ثغرةً للمصادفة. بالرغم مِن كلِّ هذا يجب أنْ ينتهي الأمر بتصرف أحمقَ غير مسؤولٍ، ليَخرُجَ الأمر كلّه عن سيطرته الأمنيّة؛ بعض البلطجية والأمناء ممّن يستعين بهم على افتعال شجارات الفتنة الطائفية أو شغب المُدرَّجات بين جماهير النوادي ذات الشعبية الكاسحة، أو حتى داخل أروقة الجامعات قُبيل انتخابات اتحاد الطلبة، يدفع بهم ليقفز بوتيرة الحدث لنتيجة واحدة

يرغب بحدوثها، دومًا ما يُصيب بها الهدف. ولأنّ المهمة هذه المرة تختلف نوعًا ما، فقد أمعن في التعليمات والأوامر؛ يجب أنْ يشعر منتخب الجزائر أنّ هبوطه أرض مطار القاهرة ليس هيّنًا، فمن أول وهلة يشعر بأنّه في الجحيم، وبأنّ الأجواء بين البلديْن مشتعلة.

مسألة حياةٍ أو موتٍ، حياة منتخب مصر، وموت أيّة دولة أخرى يجرؤ مُنتخبُها على الوقوف أمام حلم المونديال ٢٠١٠!! فما إنْ يتأهّب أوتوبيس المنتخب الضيف للتحرُّك مِن بوابات المطار حتى يحوطه مجموعةٌ من البلطجية المنتقاة بعناية، تبدو وكأنّها مشجعون قد أخذهم الحماس للحدّ الذي يلقون بأنفسهم فيه تحت عجلات الباص، على أنْ يسمحوا لهؤلاء الخونة والعملاء بالدخول لخطف بطاقة التأهُّل من قلب ستاد القاهرة!!

هتافاتٌ مسيئةٌ، ومهاجمة الباص بالأيدي في محاولة لاقتحامه بصورة تبثّ الرعب في نفوس لاعبي الجزائر، تشتّتُ تركيزهم فلا يشغل بالهم سوى الحفاظ على حياتهم، والعودة لديارهم بسلام، ولْيذهَبْ الكأس إلى الجحيم.

هذا هو الجزء التمهيديُّ من الخطة، أمّا الجزء الأهمّ فهو أنّه بمجرد وصول المنتخب الجزائريّ إلى فندق الإقامة، سيصطفُّ مئات المشجعين أسفل الفندق، يفترشون جميع الطُّرُق المؤدية إليه، يسدُّون كافّة المنافذ والطرقات؛ على الطريق الإسفلتيّ المُمتدّ أمام الفندق حاملين طبولهم وصافرات التشجيع وسماعات الـ DJ العملاقة تصدح بالأغاني الحماسية طوال الليل، تقطع طريق النوم أو الراحة عن الوصول لعقول وأجساد الفريق

الضيف!!

وبذلك تكتمل الوصفة السحرية لخطف بطاقة التأهُّل من أنياب الأخضر، خوفٌ وقلقٌ يتحوّل تدريجيًا إلى رعبٍ يسكن القلوب، مع قلّة النوم وندرته، ضغطٌ نفسيٌّ وعصبيٌّ وجماهيريٌّ رهيبٌ، يُترجَم إلى عدم قدرةٍ على لعب مباراة متكافئة بين الخصميْن الشقيقيْن!

يأتي اليوم المنشود من شهر نوفمبر ٢٠٠٩، فلا ترى في ستاد القاهرة سوى منتخب مصر يصول ويجول في أرض الملعب، يُحرز هدفًا مُبكّرًا فتختلج القلوب بالدعاء وترتجُّ الحناجر بالهتاف، أمّا منتخب الجزائر فيدعو الله سرًّا العودة لوطنه سالمًا، ولو سيرًا على الأقدام.

ما خطَّط له الأسيوطي، وما أكّده له المحمدي بأنه سيحالفه الصواب، فلا يمكن لأيِّ نفسٍ بشرية تحمُّل هذا الكمّ الرهيب من الضغوط الخارجة عن المألوف، فالمتعارف عليه في الرياضة أنّها أخلاقٌ ترتقي بالشعوب، أمّا الحروب فهي خدعةٌ، فإذا كانت في الملعب رياضةٌ فهي داخل غرف العمليات لديهم الحرب بعينها!!!

هذا ما أكّده المحمدي في نهاية المطاف.

أحد البلطجية المُشجِّعين، أخذته الحماسة وتقمَّص الدور، فتناول حجرًا على جانب الطريق رشق به الباص في رحلته إلى مقرِّ إقامة منتخب الجزائر قادمًا من مطار القاهرة، فأصاب زجاجًا جانبيًا هشّمه بقوة، تبعه ثانٍ لا

يقلّ عنه حماسةً ليصيب رأس أحد اللاعبين، وهنا بدأت المصيبة تسقط على رأس الأسيوطي! منتخب الجزائر لم يكنْ بالسذاجة المتوقعة، لم يكنْ سطحيًّا كإعلام الدولة الرياضيّ وفضائيات الردح والشرشحة في ذلك الوقت، مِن محترفي اللسان الطويل وقلّة الأدب الدولية؛ شلبوكة وشوشو وبندق، وغيرهم مِن روّاد الإعلام الرياضيّ في البلد!

توقّع المنتخب الضيف أسوأ سيناريوهات الحرب، أَخْطَرَ لجنة الفيفا الدولية بشكوكه مِن سير الأجواء بصورةٍ غير طبيعيةٍ مُستشهدًا بحلقاتٍ رياضية باتت تبثُّ سمومًا في الفضاء لتصبّ في أُذُنِ مستمعيها شحنًا وتعبئةً لحربٍ ضروسٍ، لا مباراة بين شقيقتين!!

كما استضاف المنتخب الضيف مندوب الفيفا، المسئول عن مراقبة المباراة، معه في المطار، وخلال رحلة الباص حتى فندق الإقامة. لم يكتفِ بذلك، بل قام بتصوير وتوثيق كافّة الاعتداءات اللفظية والجسدية التي وقعت عليه منذ أنْ لامست عجلات طائراتهم أرض مطار القاهرة وحتى غادروها بسلام!!!

أُسْقِطَ في يد الأسيوطي، أصاب اللئام خطّته في مقتلٍ، صار الأمر كلّه مرهونًا بأقدام لاعبي منتخب مصر على أمل حدوث المعجزة بحسم التأهُّل دون المرور على رؤسائه لتبرير كيف خرجت الأمور عن سيطرته، وكيف لشلة البلطجية التابعين لسلطة نفوذه إفساد فرحة الشعب!

ولأنّ المصائب لا تأتي فُرادًا، فهدفان لم يكونا كافيَيْن للتأهُّل، ممّا أطال مِن حبال الأمل لِمَا وراء الحدود في مباراةٍ فاصلة احتكم إليها الفريقان بعد تساوي النقاط والأهداف على أرضٍ مُحايدةٍ في دولة السودان. وفي تطوُّرٍ سريعٍ للأحداث، باتت عينا الأسيوطي تلتهم الدقائق المتبقية أسفل شاشة عرضٍ عملاقة تتوسّط حائط مكتبه، مشيرةً لقرب النهاية، مُسندًا رأسه براحة يده، تكاد عروق رقبته تنفجر غضبًا وقلبه يوشك على الخروج مِن صدره مع تناقص الوقت وثبات النتيجة؛ الجزائر متقدِّمٌ بهدفٍ دون ردٍّ.

صرخاتٌ وشهقاتٌ وسبابٌ لم يسبق له مثيلٌ، يخرج مِن أعماق صدره ليلحق اللعنات والويلات على آباء وأمهات وجدود جدود اللاعبين والمشاهدين والوزراء ورجال الأعمال والفنانين، وعلى سعد المحمدي المُنكمِش بجواره غير قادرٍ على الفكاك.

- وبعدين يا سعد في الرمم ولاد الجزم دول؟ ديك أمّ الماتش! باقي عليه خمس دقايق والمولد ينفض واحنا منفوخين.

- متقلقش يا باشا، تريكة هيعملها. ده بركة وياما مشيت معاه قبل كده كتير.

- ولو معملهاش يا حيلتها؟ أخليك أنت تعملها قدامي دلوقتي على روحك، ولا إيه ظروفك!!

ابتلع المحمدي الإهانة على مضضٍ، فارق السنّ والرتبة لجم لسانه وخدّر

كرامته منذ سنين، ضاغطًا على مخارج كلماتٍ انتقاها بعنايةٍ، قال:

- ممكن عمرو زكي، متعب، أو أيّ هدّاف جامد كده يخلصنا مِن البلوه دي.

بنفاذ صبرٍ يصرخ الأسيوطي:

- يا سعد، علاء وجمال هناك! إنت عارف ده معناه إيه؟ يا بني كلّ اللي بنعمله بقالنا سنين بيضيع قدامنا علشان شوية خواجات لا مؤاخذة مش عارفين يتنيلوا على عينهم ويخلصونا من الفيلم الحمضان ده!!

بنبرةٍ ثابتةٍ حاول بها إخفاء توتّره ردّ المحمدي:

- يا باشا، متقلقش. قلتلك هنطلع منها بعون الله، طول ما الكبير بيثق فينا ورجالتنا هناك، نقدر نعمل أيّ حاجة يا باشا، أيّ حاجة لو حتى هنقلبها حرب بين البلدين أنا معنديش أيّ مشكلة. المهم خدها كلمة من أخوك الصغير، حتى لو خرجنا من التصفيات، هنولعها حريقة ونقلبها على دماغ الكل، نلخبط الورق في بعضه ومحدّش هيحاسبنا، الإعلام هيداري والناس هتنسى، ونقعد في الآخر نتفرج عليهم من فوق. نخطط ونتسلى!

١٢

يرى البعض أنّ التنمية البشرية ليست علمًا بالمعنى الحرفيّ للكلمة، بل مجرّد نظرياتٍ وأقوالٍ «وشوية» قصص لمشاهير جُمِعَتْ سويًا لحثّ البشر على النجاح، وبثّ الأمل في النفوس.

أو ربّما لخداعهم وتخديرهم بوهمٍ زائفٍ!!

فريقٌ آخر يرى أنّها مِن العلوم حديثة النشأة، التي تضمّ في ثناياها خلاصة أسرار الحياة والكون والإنسان، كلُّ مهارةٍ تصقلها أو معلومةٍ جديدةٍ تسمعها، تجربةٍ عمليةٍ ما، أو حكمةٍ تتّخذُها في حياتك شعارًا، هي نوعٌ مِن أنواع التنمية البشرية.

تجمع التنمية البشرية عددًا مِن العلوم والمعارف، فهي خليطٌ مِن الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والمعارف الحياتية، أو كما يطلقون عليها السير الذاتية لمشاهيرَ في عالم المال والأعمال.

ظهر المصطلح لأول مرة عمليًا، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، مع تدنّي الروح المعنوية وصدمة العالم من حجم الدمار الهائل بشريًا واقتصاديًا، خاصّةً بين الدول الخاسرة للحرب وحلفائها، ممّا حدا بمنظمة الأمم المتحدة لانتهاج سياسة التنمية البشرية مع الدول الفقيرة لمساعدتها في الخروج من حالات الفقر والكآبة وتدني الثقافة العامة، وإزالة آثار الحرب ونشر قيم السلام والتعايش وتقبُّل الآخر.

ويأتي الإعلان العالمي عن حقّ التنمية في العام ١٩٨٦ ليقدِّم تعريفه عن التنمية بأنها: عمليةٌ اقتصاديةٌ واجتماعيةٌ وثقافيةٌ وسياسيةٌ شاملةٌ، تستهدف التحسين المستمرّ لرفاهية البشر، على أساس مشاركتهم النشطة والحرة والهادفة في التنمية، وفي التوزيع العادل للفوائد الناجمة عنها.

ووفق هذا التعريف، فإنّ الإنسان هو المحور الأساسيّ والفاعل لعملية التنمية، وهو الغاية والهدف الذي أُعدّتْ لأجله.

ومع التطور التكنولوجي وتصاعد وتيرة المال والصناعة في العالم، نما على السطح نوعٌ جديدٌ من التنمية ينصبُّ اهتمامه الأساسي على مجموعة من المحاضرات والبرامج التدريبية يتمُّ إلقائها على جموع الحاضرين إمّا في ملتقياتٍ جماهيرية أو داخل قاعات التدريب، تهدف جميعها لتحسين حياة الفرد الشخصية، إمّا من خلال تَصالُحه مع ذاته، أو تمكينه من تكوين ثروات مالية ضخمة.

ساهم العديد من الروّاد في تطوّر هذا العلم حديث النشأة، على رأسهم يطلّ اسم نابليون هيل، واحدٌ من أوائل مَن كتبوا عن التنمية البشرية بمعناها المعاصر؛ فكتاب «فكِّر لتصبح غنيًا» يأتي ليؤكِّد هذه الريادة حيث أكّد فيه على أهمية الاعتقاد والنجاح في تحسين حياة الفرد، ممّا حدا بالرئيس الأمريكي روزفلت إلى اتخاذه مستشارًا له، نظرًا لما توسَّمه فيه من أهمية وقوة في التأثير ورؤية ثاقبة للأحداث.

وتأتي مقولته: «الشيء الذي يمكن لعقل الإنسان أنْ يتصوّره ويعتقده، يمكن تحقيقه» لتضع حجر أساسٍ لواحد من أهمّ فروع هذا العلم وهو قوة الاعتقاد والفكر.

ويشاركه في القمة الأمريكي ديل كارنيجي، بمؤلفاته العالمية الشهيرة ومجموعة دوراته التدريبية لكبار رجال الأعمال في نيويورك، وما بين مولده ١٨٨٨ ووفاته بسرطان الدم ١٩٥٥، رحلة نجاحٍ تُوِّجَتْ بعدّة كتبٍ هي الأشهر في عالم التنمية؛ «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على الآخرين» و «دع القلق وابدأ الحياة». وختامًا بإنشائه معهد كارنيجي للعلاقات الإنسانية الذي ظلّ منبرًا لتطوير الذات عشرات السنين في مئات الفروع على مستوى العالم وحتى كتابة هذه السطور.

يأتي زج زجلر، كواحد من أهمّ المتحدّثين ومحاضري المبيعات في التاريخ الأمريكي والعالم، ويعدُّ كتابه «طريقة الله لا تزال أفضل طريقة» أشهر مؤلفاته التي تخطّتْ ٤٠ كتابًا.

ولا يمكن إغفال دور أنتوني روبنز، في التحفيز وتطوير الذات، فما يملكه مِن بُنية جسدية تضاهي مصارعي أمريكا، مع خفة دمه وحضوره الطاغي على المسرح بالإضافة لمؤلفاته التي بيعت بملايين النسخ على مستوى العالم، جميعها إضافاتٌ دفعت العلم حديث النشأة للأمام قدمًا.

القائمة طويلة تمتلئ بالقامات العالية يأتي على رأسهم اسمان هما الأهمّ والأقوى: واين داير، وستيفن كوفي.

لا يمكن لأيِّ دارسٍ أو حتى هاوٍ لعلم التنمية أنْ يغفل دورهما ومؤلفاتهما ذائعة الصيت في العالم، يُشبهان بعضهما بابتسامة تشعُّ أملاً وتفاؤلاً، وعينيْن تتقدان حماسًا وذكاءً، حتى رأسيهما تلتمعان بصلعة حمراءَ لا تشوبها أيُّ شعيرات.

يتقاربان حتى في سنة الميلاد، دولة المولد والنشأة، حتى عدد أبنائهما يكاد يكون متساوٍ!!!

أولهما عمل في بداية حياته في الاستشارات النفسية في جامعة القديس جون بنيويورك، انصرف بعدها للكتابة في المجلات ومباشرة أعماله في عيادته النفسية الخاصة، ارتكز في محاضراته على إثارة الحماس والتفكير الإيجابيّ، كما قرّر أنْ ينشر كتابه الأول «مَواطن ضعفك» فإذا به يحقِّق نجاحًا تخطّى الـ ٣٠ مليون نسخةً عالميًا ليحفر اسمه من ذهبٍ في سجل الروّاد.

أمّا الثاني فقد احترف إدارة الأعمال مِن جامعة هارفارد، أعرق جامعات العالم، بعد أنْ حصل على درجة الماجستير في علم الإدارة. يأتي كتابه «العادات السبع للناس الأكثر فاعلية»، على قمّة كتابات التنمية عالميًا، ولا تكاد تخلو مكتبةٌ مِن مكتبات تطوير الذات على مستوى العالم مِن نسخة منه، ولم يكتفِ بذلك بل طوّر مِن محاضراته وبرامجه بإنشاء مركز كوفي للقيادة، ليُعَدَّ واحدًا من أهمّ وأكبر مراكز إعداد القادة عالميًا.

مع بداية سبعينات القرن العشرين، بدأت معالم هذا المجال تتَّضح رويدًا، أقسامٌ وبرامجُ ومحاضراتٌ تتعدَّد وتتشابك فروعها العديدة التي يمكن توضيحها كالتالي:

علم البرمجة اللغوية العصبية NLP، الذي نشأ على يد عالِمَيْ النفس الأمريكيين جون غريندر وريتشارد باندلر، اللذيْن وضعا عدّة فرضيات تقوم عليها عملية برمجة لنفوس البشر منذ الصغر، إذا قام الفرد بفهمٍ صحيحٍ لهذه الفرضيات وعلاقة الرابط بينها، تمكّن مِن تعديل أو تغيير أيِّ رابطٍ سلبيٍّ في حياته بآخَر إيجابيٍّ وإنشاء سلوكٍ ناجحٍ وفعالٍ مِن وجهة نظرهم.

وعلم لغة الجسد Body Language، وهو العلم الذي يقوم بدراسة الأفراد من خلال تعبيرات الوجه أو حركات اليدين أو نبرات الصوت، لفهم المتحدث أو الشخص بصورةٍ أكثر صدقًا وواقعيةً.

ظهرت الحاجة لهذا العلم عقب دراسةٍ قام بها عالم النفس ألبرت مهربيان،

أثبت أنّ ٧٪ من التواصل بين الأفراد يكون من خلال الكلمات و ٣٨٪ من خلال نبرة الصوت، أمّا ٥٥٪ فيكون من خلال لغة الجسد، وإذا اختفت الكلمات فإنّ الفرد يميل إلى تصديق لغة الجسد.

ونظرًا لأهمية هذا العلم تحديدًا، فقد تعدّدت الدراسات والمؤلفات حتى صار لأجهزة المخابرات في مختلف دول العالم العديد من الخبراء والمختصين، مهمتهم الوحيدة دراسة لغة الجسد للقادة والزعماء وكبار رجال المعارضة والسياسيين، لمعرفة ما هو مستترٌ خلف كلماتهم.

مهارات الحياة Soft Skills يراها العديد من الدارسين للتنمية البشرية، أهمّ مهارات يحتاجونها في حياتهم وعملهم، نظرًا لكونها تمسُّ مختلف جوانب الحياة، ولا غنى عنها لأيّ فرد، فمهارات الاتصال والإقناع والثقة بالنفس والتخطيط ووضع أهدافٍ محدّدة لحياتك، كلها أمورٌ لا يمكن للشخص النجاح دونها، كما أنّ التفكير الإيجابيّ ومهارات القيادة وإدارة الأزمات والوقت والسيطرة على الانفعالات، هي مِن أساسيات الريادة في عالم الأعمال والبيزنس.

كما ظهرت مؤخرًا بعض الموضوعات، انقسم الدارسون بشأنها ما بين مؤيد ومعارض، محبٍّ مُشجِّعٍ، أو رافضٍ متشدِّد، بعضهم يراها علومًا حياتيةً وقوانينَ غير قابلة للنقد والنقاش، مَن يؤمن بها فهنيئًا له بالنجاح والسعادة، ومَن يخالف فلا يجني سوى الخيبة والندم. بعضهم الآخر يراها مجرد نظرياتٍ واجتهاداتٍ لم ترقَ بعد لمستوى العلوم والقوانين، ما زال ينقصها

الكثير حتى يتمّ الاعتراف بها نظرًا لاهتمامها بأمورٍ روحانيةٍ غيبية، ولهذا السبب يزداد إقبال الناس عليها، فالبشر عمومًا يعشقون العيش في الأوهام، ومداعبة الخيالات والسكون إليها، أمرٌ يبعث على الراحة والاسترخاء، كما يثير الشغف لأقصى درجة.

من هذه الموضوعات يطفو على السطح علم الطاقة البشرية وتفرعاته العديدة، كالعلاج بخطّ الزمن وتحليل الشخصية بخطّ اليد والتنفس الطاقيّ والحرية النفسية لتطوير مسارات الطاقة والروحانيات، وأخيرًا قانون الجذب!!!

كلّها أمورٌ يرى بعضهم أنّها المفتاح السحريّ للنصب على عقول المغفلين، فلا تتعدّى كونها هراءً مغلفًا بكلماتٍ منمقة لا ترقى لمستوى العلم.

تسلّلت التنمية البشرية إلى البيئة العربية مع بداية الألفية الثالثة، على يد رائدها ومؤسسها في الوطن العربي د. إبراهيم الفقي، ذلك الرجل النابغة الملهم الذي عانى في حياته أشدّ المعاناة مع زوجته وبناته، في ظلّ الغربة وضيق العيش، نشأت قصة كفاحٍ تستحق أنْ تُروَى عشرات السنين، لتظلّ دومًا شعلة أملٍ متجددةٍ لأجيالٍ عدّة في عالمنا العربيّ. حاضر ودرّب مئات الآلاف على مستوى العالم بثلاث لغاتٍ هي الإنجليزية والفرنسية والعربية، كما تُرجمت كتبه لعدد من اللغات وطافت أرجاء العالم، على رأسها: المفاتيح العشرة للنجاح، قوة التفكير، البرمجة اللغوية العصبية، وغيرها من عشرات المؤلفات التي تُعدُّ إضافةً حقيقيةً للمكتبة العربية.

يشاركه في الشهرة والنجاح د. طارق السويدان الذي يصفه العديد برائد التنمية بالإيمان، وأستاذ علوم القيادة في الوطن العربي، كونه باحثًا ومفكرًا إسلاميًا، ومدربًا محترفًا في الإدارة والقيادة جعلا منه مثالاً للداعية التنموي، ليؤسِّس بذلك لمدرسةٍ هي الأولى من نوعها في الوطن العربي، ينقل بها الدعوة من فوق المنابر والمحاضرات من داخل القاعات، يمزج بينهما ليقدِّم علمه للدعاة والباحثين، مسلمين وغير مسلمين على السواء.

حازم السعدني، يقتحم عالم التنمية من الباب الأكثر شهرةً وقوةً وتأثيرًا؛ باب الشباب والانطلاق، الأناقة والوسامة، قوة الشخصية والتأثير. يضفي بصمةً هي الأكثر اتساعًا وشهرةً، وينطلق قدَمًا في تأسيس مدرسته الخاصة في الوطن العربي، راسمًا ملامحها بدقة مُتَّخذًا من العلم حديث النشأة قوى التأثير غايةً لتحقيق أهداف أكثر عمقًا وتفرُّدًا.

لنصف ساعة كاملة قرأ رؤوف عز الدين المقدمة التي أعدَّتها منال لسلسلة مقالات «أنبياء العصر»، غير قادرٍ على رفع عينه عن الأوراق، دون أنْ يُعير لوجود منال ذاتها أيّ اهتمام، انغمس داخل حقائقَ وأرقامٍ ترقى لمستوى بحثٍ أكاديميٍّ أو نواةٍ لرسالة ماجستير، لا مقالةٍ في جريدةٍ أسبوعية!!!

بانبهارٍ رفع عينيه عن الأوراق، مانحًا منال نظرة إعجابٍ قلّما تحملها ملامحه الجادّة، بصوتٍ مسرحيٍّ قال لها:

- برافو يا بنتي! إيه الشغل العالي ده؟!! موضوع جديد وسبق صحفي حقيقي فعلاً، محدش قبلك كتب عن الملف ده.

توردت وجنتا منال بحمرة الخجل إزاء مجاملات رئيس تحريرها، أحنت رأسها بتواضع ولم تعقِّب، فاستطرد:

- بس ليه اسم المقال أنبياء العصر؟ تقصدي بيه إنهم أصحاب رسالة؟ ولا تقصدي إنهم مضطهدين؟ أنا لسه مكملتش قراية، بس بصراحة متشوق أعرف السبب؟

بحماسٍ بالغ أجابت منال:

- بصراحة يا فندم، أنا قصدت معنى مختلف تمامًا، اللي بين إيدين حضرتك ده الجزء الأول في سلسلة التحقيقات، جزء كده بيتكلم عن النشأة والتطور، بعد كده هيبان المقصود بالمُسمّى، وهو إنّ غالبية العاملين بالمجال ده يا فندم بيطرحوا نفسهم على المجتمع اللي بيعيشوا فيه على إنهم أصحاب رسالات فعلاً، وإنهم مثاليين أوي بشكل زايد عن اللزوم، يعني كأنهم مبيغلطوش خالص، الكلام بحساب والضحك بحساب والنوم بحساب والحساب بحساب. فاكرين نفسهم أهم حاجة حصلت، وإنّ كل الناس مهتمة بشخصيتهم أو بتفاصيل حياتهم في كلّ صغيرة وكبيرة، يعني تأنقهم الزايد وابتساماتهم المتكلفة وأقوالهم اللي كلها مثالية، كلها أمور تخليك تحس حاجة من ثلاثة؛ يا إمّا دول ملايكة مبيغلطوش أو دول نصابين بيشتغلونا، أو إنهم منافقين بيعلموا حاجات هما مش مؤمنين بيها بس بيوهمونا بكده.

يتدخل رؤوف مهدئًا انفعالاتها قائلاً:

- بالراحة شوية يا بنتي، إنتي شايلة منهم كده ليه؟ هما نصبوا عليكي قبل كده في حاجة؟ أنا شايفك كاتبة كلام كويس عنهم، يعني إزاي شايفهم بالسوء ده؟

يعاودها نفس الحماس، وتردّ عليه:

- اللي كتبت عنهم لحد دلوقتي رواد في المجال وهما اللي أنشأوه في العالم كله وفي الوطن العربي، طوروه وساهموا في ظهور أجيال للأسف عرفت إزاي تلعب بمفاتيح العلم ده، أخدوا منه القشور وقدروا ينصبوا بيها على الناس، الرواد دول عندهم كَمْ مِن الخبرات والنجاحات والثراء المالي والفكري اللي يخليني أثق فيهم بدرجة كبيرة، يعني مثلا د. إبراهيم الفقي، ده راجل سافر وتعب وكافح من غسل الصحون لحد ما بقى مدير أكبر فنادق في كندا، درس وإتعلم أكثر من لغة وأكثر من رسالة ماجستير، استقر في مصر بعد ما حقق نجاحات حقيقية ملموسة، كلامه مقنع مبني على خبرات وعلوم، مش أيّ بطيخ زي ما حضرتك هتقرأ في باقي المقالات.

العيب الوحيد اللي ماخدش باله منه هو من يسمون بعضهم بمساعدي د. إبراهيم الفقي، أغلبهم يستغل صلته بالدكتور لتحقيق أهداف ونجاحات بعيدة كل البعد عن العلم والتدريب، تلاقي الواحد منهم بيتكلم عن النجاح بكل قوة وإيمان وهو في الحقيقة مش فالح غير في الكلام، لو بصّيت على

إنجازاته اللي عايز الناس توصلها هتلاقيه مش ناجح غير في الكلام وبس، وده اللي هاتكلم عنه في باقي السلسلة.

يهز رؤوف رأسه متفهمًا بعد أنْ اقترب مِن فهم وجهة نظر منال في اختيارها لهذا الاسم الصادم لمقالها، إلّا أنّه تنبّه لأمرٍ ما فسألها بصورةٍ مباغتة:

- طب وحازم السعدني ينضم لأي قسم في مقالاتك؟ أنا شايفك بتتكلمي عنه كواحد من الرواد، بالرغم من إنه لسه سنه صغير!

بنفس الحماس أجابته:

- حازم ده بقى يا فندم حكايته حكاية، بالرغم من أني فعلاً وضعته مع الرواد علشان هو صاحب أشهر مدرسة شبابية رائدة للعلم ده في الوطن العربي، وكمان شهرته ومؤلفاته ومحاضراته الكتيرة، إلا أنه عليه علامات استفهام كبيرة هحاول أوصل لحلها خلال البحث بتاعي، ده غير إني مش عارفة هوه تبع أي مدرسة بالضبط، مدرسة العلم الحقيقي، ولا النصب على الناس؟ قريت ليه أكثر من كتاب، وتابعت أكثر من محاضرة على اليوتيوب ولسه محتارة، حاسة إنه عايز يوصل رسالة خفيّة لتلامذته ومتابعيه وكأنها شفرة مقدرتش أحلّها لأني طبعًا معرفتش أتابع كلّ نشاطه أو أتفرج على كلّ محاضراته، بس أوعدك يا فندم إني أتوصل لمعلومات مهمة جدًا عنه الفترة الجاية لإنه هيكون محور إرتكازي في السلسلة دي.

رفع يده مُحذرًا إياها:

- خللي بالك! ده نجم مجتمع وليه معجبين بالملايين، مش هيتحملوا عليه اتهامات بدون أدلة، ده غير بقى خطيبته بنت المستشار هشام الزيات، أبوها وأمها ناس تقيلة ممكن تحبسك بالقانون يا منال، اللعب مع الناس دي أصعب من اللعب مع الحكومة في قضايا فساد، ده غير إني سمعت كده إنه ممكن يترشح في مجلس الشعب الانتخابات الجاية لو سِنّه يسمح بكده، ٢٠١٠ على الأبواب وشكلها كده مليانة أحداث!!!

بثقةٍ اعتادت عليها مِن سنوات عملٍ ذاقت خلالها الكثير، ابتسمت قائلةً:

- متخافش عليا يا فندم. منال مركزة أوي ودايمًا مستعدة.

قالتها ودقّت بقبضة يدها اليمنى أعلى كتفها الأيسر، في إشارةٍ منها إلى صلابتها وعنادها ونفَسها الطويل.

١٣

انكبَّ على رسالة الدكتوراة يراجعُها للمرة الخامسة في أقلّ من يومين، يرى فيها الأمل المفقود في سلسلة حياته المليئة بالإخفاقات الأسطورية المتتالية، في العمل والحبّ أو حتى اختيار أصدقائه.

حَلُمَ كغيره مِن ملايين الحالمين في وطنه العزيز، بوظيفةٍ تنتظره ما إنْ ينهي دراسته الجامعية، شهادته في علم النفس لم توجد له مكانًا في صفوف العاملين بالحكومة بغير عقدٍ مؤقتٍ حصل عليه إثر بحثه المضني عن واسطة، ألقت به على أطراف منطقةٍ عشوائيةٍ لم يحدِّد الأطلس موقعها بعد، فخرائط جوجل لم تكن قد ظهرت بعد للوجود حتى يُدرِجها في إطار برامجه العملاقة.

مُدرِّس كشكول في مدرسةٍ ابتدائية، فَصْلٌ تعداده سبعون طفلاً في مساحة ٣٦ مترًا مربعًا هي حدوده الدراسية وعالمه الوظيفيّ!! ومائة وخمسةٌ مِن

الجنيهات يتقاضاها في نهاية شهره، مخصومٌ منها تأميناتٌ وهميةٌ ونثرياتٌ أخرى لا يعلم عنها شيئًا!!! لم يصمد سوى شهرين، ترك منير بعدها التدريس نهائيًا ليبدأ مشوارًا أكثر مشقة في القطاع الخاص، ذلك العالم الذي لا يعترف إلا بالعمل والمال؛ فلا أعذارَ ولا علاقات شخصيةً تؤثِّر على البيزنس ولا أيّ أمرٍ آخر، العمل فقط هو مَا يبقيك في موقعك آمنًا مطمئنًا من بطش مديرك، سيطرتك على ما هو لك، وحفاظك على مستوى أدائك والمشي بجوار الحائط، كلّها عوامل تُجنِّبك مطباتٍ قد تعصف بأمانك الوظيفي في أيّ لحظة!

ولأنّ منير لا يحترف القفز على الحبال أو معسول الكلام، ولا يتقن مهارة «مشّي حالك»، تراه دائم التنقّل بين الوظائف، مختلف التخصصات مرّ عليها، بعضها كان مرور الكرام، والآخر كانت إقامةً لشهور وربّما سنوات تعدّت الثلاث؛ فمِن كاشير لمندوب مبيعات إلى فنّيّ كمبيوتر وبائع أو حتى سمسار عقارات، كلّها أدوارٌ لعبها منير على مسرح الحياة العملية القاسي، كلّ مرةٍ اعتلى فيها خشبة الوظيفة كان يستبشر خيرًا في سرّه، تفاؤلٌ وأملٌ في استقرارٍ تمنّى دوامه تداعبه خيالات حياة أُسَرِيّة مستقرة تجمعه جدران شقته بمَن تكون مِن نصيبه، لينجب أطفالاً يحملون اسمه وجزءًا من حياته، يكملونها بعده خيرًا وحبًا وأملاً، إلّا أنّ المخرج في كلّ مرة يضمر له شأنًا آخر، فتدوّي كلمة (فركش) دون سابق إنذارٍ، يُظلِم بعدها المسرح ليتركه عائدًا للشارع يبحث من جديد عن مسرحٍ آمنٍ تتعاظم عليه أحلام أسرته

المفقودة مرةً أخرى.

عشر سنوات كاملة قضاها منير متقلبًا على أشواك عشرات الوظائف، يقارن دومًا بين أحلامه يومَ أنْ كان طالبًا في كلية الآداب وما ينتظره خارج أسوار الجامعة من مستقبلٍ، وبين ما هو عليه الآن، الفارق بين الأمرين يوجز حياةً رسم ملامحها ملايين المرات.

يبكي ألمًا وحسرةً على هوان حاله وتبدُّد موجات حماسه العاتية على صخور الواقع القاسي، يَعَضّ على شفتيْه ندمًا على ضياع عمره بلا طائل؛ لا وظيفة، لا زوجة، لا حياة، ولا موت!!

قطار العمر يمرّ سريعًا ساحبًا خلفه بقايا شباب منير وأحلامه ملقيًا بها صوب العدم، لا يقدر على القفز منه، ولا يقدر على التحكّم في وجهته، وأمام المركز العالمي لتطوير الذات أبطأ القطار سرعته قليلاً، أطلّ منه منير سريعًا ليجد شريف في انتظاره!

في الوسيط قرأ الإعلان، للوهلة الأولى لم يستوعب معنى مدرّب تنمية بشرية، تلك الوظيفة المُعلن عنها! شعر أنّ الكثير قد فاته، ليس فقط في الحياة إنّما في مواكبة تطور العلوم الاجتماعية الحديثة، لذا فقد انغمس ساعاتٍ طويلةً على الشبكة العنكبوتية يطالع أسماءً وتعريفاتٍ لِمَا يُسمّى بالتنمية البشرية، عشرات المحاضرين والكتب العالمية، والكثير من الابتسامات والخطوات الواثقة للسادة المتأنّقين داخل قاعات التدريب

يوزِّعون نظراتهم المرحة على الحضور، عالمٌ جديدٌ عليه لم يكن يعي وجوده مِن الأساس.

قرأ شروط الوظيفة بعناية، أرسل سيرته الذاتية، وعلى بُعْدِ دقائقَ مِن مقابلة العمل الأولى انتظر بشغف، وأمام شريف زكي مدير التدريب بالمركز الدولي لتطوير الذات، جلس يتلقّى سيلاً مِن الأسئلة مُتدرِّجة الصعوبة، مختلفة الاتجاهات!!! فمِن: كلِّمْني عن نفسك إلى حدِّثْني عن أبرز عيوبك، وما هي خبراتك السابقة، انتهاءً بما هو الراتب الذي تتوقع الحصول عليه؟

أسئلةٌ متعددةٌ واختباراتٌ لم تكن مستساغةً، رأى فيها ميزةً وحيدةً إنْ لم يكن له نصيبٌ في العمل، هي إضافةُ خبرةٍ جديدةٍ لوعاء خبراته العديدة، في كلِّ محطةٍ مرّت في حياته، خطّت خبرةً مختلفةً أضيفت لسابقاتها، مهما كانت الوظيفة.

عمله في السابق كاشير بشركة النور للبيت العصري جعلت منه راصدًا جيدًا لطبيعةٍ بشريةٍ كثيرًا ما قرأ عنها، لم يرَها رؤية العين إلّا من خلف جهاز الكمبيوتر والباركود يحصي احتياجات الأهالي في أهمّ وأقسى فترات حياتهم، إعداد فتياتهم بما يحتاجون من لوازم شقة الزوجية، أو ما يطلقون عليه جهاز العروسة مِن مفروشاتٍ وملابسَ وكؤوسِ العصير وسكاكين المطبخ.

اقتحم عالمًا غايةً في الغرابة، كونه وحيد والديه دون أخت، حجب عنه تلك

التفاصيل الدقيقة الخاصّة بالموكيت والسجاد واللحاف الفايبر الدابل فيس والنيش، ذلك الكائن الخرافيّ القابع دومًا في أحد الأركان السحرية المُحرَّمة في المنزل، يحوي داخله ما برق وسحر العيون مِن صنوف الأطباق الصيني والبايركس والأركوبال، والفناجين المذَهَّبة وعلب الملاعق الفاخرة، لا تمتدُّ إليه يد الزوجة على الإطلاق، بالرغم من احتوائه على ما يقارب العشرين أو الثلاثين ألف جنيه مِن الأدوات المنزلية، في انتظار أنْ يأتي وليُّ العهد بعد سنين مِن الزواج السعيد ليضع كلمة النهاية لأسطورة النيش حين يقتحم حصونه في رحلة البحث عن ذاته الطفولية، مبعثرًا محتوياته، مُهشِّمًا ما فيه من ألوف وألوف!!! شهوة التباهي والتفاخر تستحوذ على أهل العروس، تلقي بهم إلى حدود الاستدانة أو الاقتراض فقط لأنّ فلانة أو علانة «مش أحسن من بنتي في حاجة»!!!

حين عمل مندوبًا في شركة قراميش للكاراتيه والشيبسي، شاهد عالمًا آخر من خلف شبّاك سيارة المصنع حين طاف جميع محافظات مصر جالسًا بجوار السائق، موزِّعًا الآلاف من علب كاراتيه قراميش المشبَّع بالموادّ الحافظة ومُكسبات الطعم السامّة وبقايا خليط الذرة رديء الجودة والصناعة، على أطفال البلد!! يُقبلون عليه بنهمٍ طفوليٍّ، يدفع بعضهم دفعًا أمام محلات السوبر ماركت، يلوكون الأكياس السامّة بنهمٍ وبراءة!!

سمسار عقارات في حيٍّ بين السرايات، يجتذب الطلاب المغتربين ليحشوهم داخل شققٍ غيرِ صالحةٍ للاستخدام الآدمي، يكوِّم الأجساد فوق بعضها، يوقِّع

العقود ويتقاضى العمولة، أو يجتذب العائلات إلى شقق الإسكان والتعمير في ٦ أكتوبر موهمًا إياهم بحلم تملُّك شقة في الجنة، باراديس سيتي! ٦٧ مترًا مربعًا، بالكاد تَسَعُ زوجَيْن وربّما طفلاً واحدًا وما عدا ذلك فلا يعنيه في شيء!

حتى التسويق الشبكيّ ولج عالمه المليء بالغموض، جهاز الإبر الصينية السحريّ، يعالج جميع الأمراض المعروفة والتي لم يفكر العلم حتى في التعرُّف عليها، بل ويعالج أيضًا أزمة البطالة، حلم الثراء المُحبَّب للنفس يتعاظم ليسدَّ منافذ التعقُّل، فلا ترى نفسك سوى خلف عجلة القيادة للسيارة اللانسر البيضاء موديل ٢٠٠٦، قابعة في ساحة نادي المعلمين في حلوان، بانتظار سعيد الحظّ صاحب أكبر نسبة مبيعات ليمتطيها صوب النجاح الباهر!!!

شنيل، كانت محطّته لشهور عديدة، تعلَّم فيها اللعب على أحلام البسطاء، ذوي المستقبل المظلم، تعلَّم كيف يثير خيالات الناس، كيف يحفِّز فيهم الندم على فرصة قد تضيع بدلاً مِن الفائدة الحقيقية لمنتَج قاربت قيمته ألفًا مِن الجنيهات. لا يهمّ ما قد تقتنيه، إبرًا صينيةً، ساعةً، سلسلةَ مفاتيح، شبشب بصباع، أو حتى إبر خياطة، المهم ما قد يترتب على عدم اغتنام فرصة قد تغيِّر حياتك للأبد، فالندم قد يدفع الفرد لقرارٍ ما هربًا منه، لا حبًا في القرار ذاته.

الحرية المالية، ذلك المصطلح القادم من دول شرق آسيا، مانحًا إياك

المفتاح السحريّ لِمَا تحلم وترغب وتتمنى، عليك فقط شراء المنتَج، ثم إقناع باقي أقاربك وأصحابك مِمّن يثقون بشخصك وكلامك ورجاحة عقلك بسرعة اغتنام الفرصة واللحاق بقطار الثراء، تنمو أنانيتك وحبك لمنفعتك الخاصة فقط، تحصي عمولتك وتنام قرير العين!!

حين سئم الحياة ذاتها، لعن الخاصّ والعام، قرّر حينها أنْ يصبح سيد نفسه وملكَ قراره، رائد أعمالٍ كما يُطلق عليه في عالم البيزنس، أو صاحب مشروعٍ كما يحلو للعامة أنْ يلفظوها.

قرر أنْ يجرِّب مشروعًا ما يضع به تحويشة العمر، علّه يكون الملجأ والمنجى ممّا يدور في فلكه حائرًا دون جدوى، يضع قواعده بنفسه، ويخطط لذاته ما يجب وما لا يجب وفقًا لما يُريح ضميره وتهدأ له حياته.

باغتته الحقيقة على حين غرة تدهس رغبته في الاستقلال، جاعلةً منه تابعًا مهما ناضل للحيلولة دون ذلك، حتى وإنْ قررت مختارًا أنْ تَخرُج من منظومة العبث الإجبارية الدائرة حولك، تطحن الأجساد بلا هوادة، لن تجد فكاكًا أبدًا.

حتى إنْ قرَّرت ألا تُحمِّل الحكومة أيّ أعباء هي في الأساس حقوقٌ تجاهك، كأنْ توفِّر لك فرصة عمل في القطاع العام، أو أنْ تدعم مشروعك الخاصّ في حالة عدم قدرتها على توفير فرصة العمل، أو أنْ تقدِّم لك أيّ تسهيلات مالية أو إدارية عند العمل أو التعثُّر، رغبةً منها في إنجاحك والحيلولة دون توقُّف

المشروع وتسريح باقي المعاملين معك، فلن تجد سوى رغبةٍ محمومةٍ من صانعي القرار لهدمك وخراب بيتك، بإصرارٍ غير مسبوقٍ!!!

لم يطلب منير من الحكومة غير أنْ تدعه لحاله فقط يتدبَّر شؤونه الخاصة كما يراه مناسبًا، دون الإخلال بما هو مرسومٌ أو قانونيٌّ، فلم يلْقَ سوى مزيدٍ من التعسُّف والقهر؛ تراخيصٌ وأوراقٌ وتعنُّتٌ، وروتينٌ حكوميٌّ عقيمٌ، فواتيرُ كهرباءٍ ومياهٍ وخدماتٍ تليفونية خرافيةٌ وقيمةُ إيجارٍ فلكيةٌ يتلقّاها المالك بجشعٍ شهريٍّ معتادٍ، ومستحقاتٌ، وضرائبُ!!! تفتيشٌ ومصادرةٌ ومصنَّفاتٌ ودفاعٌ مدنيٌّ وغرفٌ تجاريةٌ وهيئاتٌ استثماريةٌ، جميعهم لا همَّ لهم سوى جني أموالٍ من مشروعٍ بالكاد يقف على قدمٍ واحدةٍ كسيحة!

لم يصمد منير بالرغم من قانونية مواقفه المختلفة، سوى عامٍ واحدٍ، أغلق بعدها مركزه لخدمات الأبحاث والرسائل العلمية لطلبة الجامعة، يجمع ويترجم ويكتب ويطبع ما يأتيه من أبحاثٍ أو رسائلَ للمئات من طلبة الجامعة الطامحين في غدٍ أفضلَ سبقهم إليه منير بعدة سنوات، يعاونه خمسةٌ من الشباب في المركز، أسعدهم حظًا أسوأ حالاً من منير.

لدهشته تمّ قبوله للعمل مدربًا معتمدًا للتنمية البشرية لينضمّ إلى فريق العمل في المركز الدوليّ لتنمية الذات، تحت قيادة شريف زكي ورئاسة المنقذ حازم السعدني!!

بهره عالمٌ جديدٌ على مداركه، ظلّ يلتمس خطواتٍ متأنيةً فيه، رغبةً منه

في الإمساك بتلابيب الفرصة، وحلمًا بوظيفةٍ آمنةٍ مستقرةٍ في كيانٍ مرموقٍ. نما وعيه تدريجيًا على نظرياتٍ ومعارفَ طالما قرأ عنها ودرسها بقسم علم النفس، أو حتى بين طيّات كتب الناجحين وسِيَر العظماء، لم يتصور يومًا أنْ يقف في قاعة محاضراتٍ يحشو بها عقول تلاميذه كأنّها وحيٌّ من السماء!!!

يدفعهم دفعًا لاعتناق أفكارٍ وآراءٍ يرى أغلبها مجرد احتمالات لا ترقى لمستوى القوانين، ولا يصحُّ طرحها بهذه الطريقة. اتَّضحت الصورة أمامه أكثر وأكثر حين وعى جيدًا المعنى الحقيقي للشهادات المعتمدة التي تُمنَح للباحثين عن فرص عملٍ، راغبي النجاح من متدربي المركز؛ يبدأ الأمر باسمٍ رنّانٍ لجامعةٍ دوليةٍ، هارفارد، كامبريدج، هونولولو، أو حتى جزر القمر مع التأكيد على أنّ المركز هو الوحيد والحصريّ القادر على منحك هذا الاعتماد الدوليّ شريطة حضور البرنامج واجتياز الاختبار، بعد دفع قيمة البرنامج، تلك التي تتعدى من الدولارات الخمسمائة أو ربما الألف، بالإضافة إلى ثمن توثيقها من وزارة الخارجية المصرية، هذا إنْ كانت صحيحةً من الأساس، وليست فوتوشوب!

يرى الأمر بمنظورٍ آخر؛ فهذه الجامعات المذهلة لا تتعدّى كونها مراكزَ تدريبٍ موازيةٍ أو جامعاتٍ خاصةً في دولٍ أخرى، كندا، إنجلترا، أو حتى أمريكا.

مجرد مراكزَ تدريبٍ خاصةٍ، يتمّ نسبها لجامعاتٍ عريقةٍ استنادًا لعدم قدرة الكثير على التفرقة بين الاسم الحقيقيّ للجامعة وما لها من قوةٍ أكاديمية

عالميةٍ ومعاييرَ تدريسٍ صارمةٍ على رأسها أنها لا تتعاقد سوى مع كيانات جامعيةٍ دوليةٍ، أو مراكزَ ثقافيةٍ تابعةٍ لتلك الجامعة في أيّ دولةٍ على مستوى العالم.

فما الذي يدفع جامعة هارفارد أعرق وأقوى الجامعات في العالم للتعاقد مع أيّ مركزِ تدريبٍ خاصٍّ داخل مصر؟ ما الذي سيضيفه هذا المركز من امتيازاتٍ وماذا سيقدّم للجامعة من مكاسبَ؟ لديها جامعة القاهرة وعين شمس، الإسكندرية أو أسيوط وغيرهم، يمكنها أنْ تتعاقد معها كما تشاء أو حتى تُقْدِم على تدشين فرعٍ خاصٍّ بها على الأراضي المصرية مع ترحيبٍ واسعٍ من الحكومة، هذا إنْ كانت إدارة هارفارد تخطّط لذلك من الأساس! فهل يُعقَل أنْ تترك هذا كله لتتجه للمركز الدوليّ لتتوّج تعاونًا مثمرًا ببروتوكول اعتماد وعدد من الشهادات؟!!

يذكره موقف هذه الشهادات بصاحب عربة الفول أسفل منزله؛ حين خطّ على واجهة العربة الأحرف الثلاث الشهيرة لسلسلة المطاعم العالمية كنتاكي KFC، مع صورة الموديل الأشهر ذي اللحية البيضاء، حين سأله في إحدى المرات ما معنى هذه الأحرف، انبرى الرجل المتواري خلف قدرة الفول الهائلة قائلاً بثقة:

- معناها يا أستاذ منير: كُل فول سخن، بس بالإنجليزي طبعًا!

لولا صداقةٌ نمت بينه وبين شريف المغلوب على أمره، لفعل الكثير! تقلقه

دومًا سياسة حازم السعدني الغريبة، مرات يراه قائدًا ملهمًا ذا رؤيةٍ وعلمٍ حقيقيٍّ، ومرات أخرى يراه «شوو مان» لا همّ له سوى حب الظهور وحصد الأضواء. أحيانًا يراه رجل أعمالٍ من طرازٍ فريدٍ يعمل بجدٍّ واجتهاد. أحيانًا أخرى يراه محبًّا لجمع المال بأيّ طريقةٍ كانت دون مراعاةٍ لجودة التدريب أو المحتوى!! وأحيانًا نادرةً يراه صاحب رسالةٍ خفيةٍ، إشاراتٌ مريبةٌ يستشعرها بخبرته النفسية، كأنّ تحت السطح عالمٌ آخر يختلف تمامًا عمّا يبدو ظاهريًا للعيان!

يحاول منير جاهدًا ألّا يصطدم به كي لا يفقد وظيفةً تُغنيه عن معاناة عشر سنواتٍ سابقةٍ، ذاق فيها مرارةً لا توصف. إمعانًا في الحرص على تجنُّب المشاكل، وإرضاءً لضميرٍ بات مزمنًا لا يَكَلُّ في تصيُّد المتاعب، انسحب منير تدريجيًا من تدريبِ ما يشعر تجاهه بالحرج، كأنْ يقف بين طلابه يحصي لهم مزايا العلاج بخطّ الزمن، وكيف يمكننا التخلُّص من الأمراض النفسية المزمنة من خلال تقنيات الحرية النفسية.

تلك أمورٌ تنسفُ ما نشأ عليه عقلُه الأكاديميّ تمامًا، لو قُدِّرَ لفرويد العودة مجددًا لما تحرّج من إطلاق أصواتٍ أنفيةٍ مطولةٍ مصحوبةٍ بقاموسٍ من السباب النفسيّ العميقِ قادمٍ من أعماقِ لاشعورٍ بغيضٍ لهؤلاء الذين يسمّون أنفسهم محاضرين معتمدين في تلك المجالات!

اكتفى بتدريبِ ما يراه في قرارة نفسه نظرياتٍ وعلومًا حقيقيةً مفيدةً، ترتقي بمعارف الفرد وقدراته العملية، تدفع بحياته صوب الأفضل قولاً

وفعلاً؛ فالتنمية البشرية كغيرها من المجالات والعلوم حديثة النشأة لها من المميزات الكثير والكثير، إلّا أنّه يؤلمه استغلال بعضهم لشغف الناس بالمجال وكثرة الإقبال عليه، يلعبون على اقتناص فرصة ليست لهم، يطرحون أنفسهم كخبراءَ محترفين في تلك الأمور، يصبُّون الهراء المغلّف بقشور العلم على آذانٍ متعطشةٍ للمعرفة فيسيئون لشرفاء التنمية، وللتنمية البشرية ذاتها.

لذا يُحيل منير كلَّ تركيزه صوب رسالته المزمع مناقشتها خلال أشهر قليلة، يرى فيها طوق النجاة له من شتاتٍ بات فيه سنواتٍ عدة، دائرةٍ لا يعي لها أولٌ مِن آخر، تُدعى سوق العمل.

قانون رقم(٥)

اكتشف أداة الضغط على كلّ شخصٍ

في كلّ إنسانٍ نقطة ضعف، فجوةٌ في سور القلعة، قد تكون عدم الشعور بالأمن أو عاطفةٌ ما، أو حاجةٌ لشيءٍ لا يمكن التحكُّم به.

وأيًا ما تكون، فإنها عند عثورك عليها، تكون أداة الضغط المُثلى التي يمكنك إدارتها كيفما تشاء لصالحك.

١٤

البحر المتوسط - ١٩٩٥

الهجرةُ ظاهرةٌ كونيةٌ؛ تهاجر الطيور بحثًا عن الحب، وأسماك السلمون تهاجر في ملحمة رائعة مِن نهر فرايزر في كندا تقطع عشرات الآلاف من الكيلومترات حتى المحيط، وتغادر فراشات الملكة أمريكا الشمالية لتصل أمريكا الجنوبية، فتتبدَّل خلقًا بعد خلق.

ويهاجر الرجل والمرأة لحياة جديدة وعائلة جديدة، هذا هو قانون الوجود، وحسب فيلسوف التنوير الألمانيّ كانط، فالهجرة هي أيضًا تأريخٌ للاضطهاد السياسيّ من خلال الانشقاق المتتابع في الجماعات الإنسانية. وقد هاجر فتية الكهف فرارًا من الاضطهاد، وهاجر سيدنا النبي «صلى الله عليه وسلم» من مكة حينما ضيَّق الكفار عليه وعلى دعوته، ووصل بهم الأمر لعقد النية على قتله. وإبراهيم عليه السلام قال: «إني مهاجرٌ إلى ربي.» وهناك أيضًا

هجرةٌ نفسيةٌ معنويةٌ، كما دعانا إليها رسول الله «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»

وفي عصرنا الحالي أخذت الهجرة أشكالاً مختلفةً؛ كالتنقُّل بهدف التزوُّد بالعلم وإنعاش الحركة الثقافية، أو تحسين الحالة الاقتصادية بجلب الأموال، وبعضها يعاقب عليه القانون كالهجرة غير الشرعية.

ولسبر أغوار الأمر دعونا نتساءل: ما الذي يدفع الإنسان إلى الهجرة؟ فيترك ذكريات طفولته ويلقي بجذوره في الهواء؟ صحيحٌ أنّ الحكمة القديمة تقول: «مَن يخسر وطنه يخسر كلّ شيء»، لكنّ الحكمة الجديدة تقول: «المال في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة» (٢).

أمّا ما دفع فرج للهجرة تحديدًا، فكان أمرًا مختلفًا عن لقمة العيش، أو رحيل الفراشات، وحنين الطفولة وجذور الانتماء!! كان أمرًا شديد الخصوصية.

في وسط البحر المتوسط تتلاطم الأمواج بقوة كاسحة.، مُنذرةً مَن يجرؤ على تحدِّيها بالويل والخراب، يتسلل ضوء القمر على استحياء بين سُحُب داكنة مُحمّلة بما تنوء عنه من أمطارٍ يتضرع الجَمْع على المركب بخشوعٍ ألّا تقرّر فجأةً إفراغ حمولتها فوق رؤوسهم.

تنكمش الأجساد هلعًا داخل بعضها بعضًا، أملاً في وهم زائف بأمانٍ صار ضربًا من الخيال، بين غيوم وظلام وموج لا يعرف الرحمة. ضيق الحال ومرارة أكل العيش في بلادهم دفعهم دفعًا إلى حافّة الهاوية، ما بين الموت قهرًا، أو الموت غرقًا. رجحت كفّة الهجرة على سواحل إيطاليا حيث يبدأ الحلم، أو لعله ينتهي.

في أحد أركان مركب الصيد المتهالك ينزوي فرج كعادته داخل نفسه ضامًّا ركبتيه حول صدره محيطًا إياهما بيديه بقوة طلبًا للدفء ولشعورٍ زائفٍ بالأمان، تتداعى في رأسه خيالاتٌ مذعورةٌ تكثر فيها الصرخات والركلات، فمن صفعات والده المتكررة وصرخات أمه العفنة نما بناؤه النفسيّ، تشكّل وعيه على معاييرَ يدرك تمامًا كم هي سوداءُ مقيتةٌ، لكنه لا يعرف سواها للتوافق في الحياة.

رويدًا رويدًا، صار لديه هدفٌ واحدٌ يسعى حثيثًا لنيله، يخطِّط له جيدًا مستعينًا بذكاءٍ فطريٍّ ساعدته بيئةٌ لا تقيم للضمير وزنًا ولا يمرّ بقاموسها معانٍ على غرار المبادئ أو الأخلاق، الحلال أو الحرام، بيئةٌ لا تعرف سوى القوة دستورًا، ولا تعي سوى العشوائية لغةً للحوار.

إلّا أنّه مختلفٌ، يؤمن تمامًا أنه مختلفٌ، ما أنْ وطئت قدماه دنياه المشوهة رغمًا عن أيّ شيء، يعي هذه الحقيقة، كونه على قيد الحياة بعد إخوته الثلاثة وحدها معجزةٌ تدفعه للبحث عن السرّ وراء ذلك؛ السر وراء نشأته في تلك الأجواء، في هذه البقعة، مع تلك الأسرة بالذات كأنّه مُعَدٌّ لتحقيق هدفٍ ما، لطالما آلمه التفكير في هذه الهواجس، تملّكته حياته وانغمس فيها حتى النخاع منتظرًا أيّ إشارةٍ يكمل بها ما يشعر أنه دوره.

حتى كان اليوم، اهتزَّ كلُّ شيءٍ حوله، الصخور، والأرض، والهواء، والبشر، ففهِم الأمر كلّه دفعةً واحدةً؛ إنّها الإشارة إذن! ليتحركْ الآن، يكمل ما بدأه الزلزال، مستوحيًا منه قدرته على قلب الموازين في ثوانٍ معدودة وإحداث آثارٍ كارثية قد تدوم عشرات السنين. ولأنّه فرج، فالخلاص دومًا يجب أن يأتي بين يديه وبطريقته.

والداه كانا لا يستحقّان ما هما فيه من معاناة، كما أنهما لا يستحقان هذه الحياة من الأساس، فليكُنْ الخلاص إذن! وسط هذا الهياج، لن يعي أحدٌ حجم الجريمة ولن يدرك آثارها، بضربةٍ واحدة يتحوّل من متهمٍ هاربٍ من المباحث، إلى مجنيٍّ عليه يستحقّ الشفقة؛ فمن ذا الذي يلقي باللوم على صبيٍّ احترق والداه ودُمِّر منزله إثر الزلزال؟ بعد حياةٍ مريرة يقاسي فيها الآلاف تحت وطأة الصخرة العملاقة.

لم يَهبْ ضابطَ المباحث الذي اختبأ منه أيامًا طويلةً خوفًا من القبض عليه مع سيد الأخرس، حين فوجئ بهذا الضابط الذي ينهض متأثرًا وفي يده كوب الليمون، يحاول به أنْ يُوقف سيل دموع فرج على والديه، ولسان حاله ينطق بعبارات الأسف والأسى والرثاء. كم هو مذهلٌ هذا الزلزال! كم يشعر بالامتنان له! كما يؤكّد له أنّه وعى الدرس جيدًا طوال سنوات عمره الماضية.

تومض تلك العبارات في رأس فرج، يفترُّ عنها وجهه بابتسامة عريضة، يتوسّط الضابط بنفسه لدى ملجأ أيادِ الخير لرعاية الأيتام لقبول فرج هناك، وإغداق سيلٍ من الرعاية الخاصّة والحنان البديل؛ ملابسُ مكويةٌ بعناية، أكلٌ

صحيٌّ ونظيفٌ، دروسٌ في القراءة والكتابة على أعلى مستوًى، وحِرْفةٌ يدويةٌ بات يملكها جيدًا تتويجًا لفترة الإعداد والتأهيل. أكثر ممّا كان يحلم ويتمنى، وَجَدَهُ فرج بين جنبات الملجأ، ذكاؤه المذهل وقدرته على التكيُّف ساعداه أنْ ينهل الكثير من الخبرات والمعارف التي يحتاجها في حياته الجديدة، تلك الحياة التي رسم لها إطارًا عريضًا يوم أنْ اهتزّت الأرض، وبات يرسم تفاصيلها يوم أنْ استقرّ به المطاف في ملجأ أحنّ عليه عشرات المرات من أسرةٍ لم يعِ لها معنًى، وبيئةٍ لم يدرك لها حدودًا.

سنتان فقط قضاهما هناك يتقلّب بين أيادي الخير مشفوعًا بتوصيةٍ خاصة جدًّا من ضابط المباحث، ظلّ أثرهما ممتدًا طوال أقامته في الملجأ، توّجها فرج بالمزيد من الجدّ والاجتهاد وإظهار تفوّقه واحترامه لتعليمات المكان، والحفاظ على علاقاتٍ جيدةٍ مع زملائه ومشرفاته، موهبةٌ نادرةٌ يتمتع بها في التأقلُم مع مختلف المواقف، يراها أدوارًا تختارها له الحياة بعنايةٍ، وعليه أن يؤدّي ما رُسِم له بدقة، وإلّا فلن يستحقّ سوى اللعنات والفشل المتوالي. وهنا يطوّر دومًا من مهارات التكيف، يرى متطلبات الدَّوْر، يحاول أنْ يُكمل النقص بأيّ طريقة لذا قد استكان في الملجأ لإكمال أيّ نقصٍ محتملٍ في دوره المستقبليّ. قدرته على القراءة ما إنْ اكتملت بصورةٍ ترضي رغبته في خطّته القادمة، مهارته في صناعة الأثاث المنزليّ منحته أمانًا عمليًا يستند عليه تمهيدًا لما هو قادمٌ، بعدها اختفى من الملجأ.

قفز أسواره في ثوانٍ ليبدأ بعدها تسلّق أسوار دَوْرِه الجديد، خارج حدود

الدويقة، والقاهرة الكبرى، والدولة بأكملها! يقطع عليه تسلسل خواطر امتدّت وسط ليلٍ مقيتٍ، داخل مركب الصيد الليبي، وجهٌ بالكاد ترى الحياة في ثناياه، ما بين أسنانه الصفراء، ولكنته العربية الشنيعة يسأله بغموض:

- إيش بيخليلي طفل زيك يرمي نفسه في الأهوال دي يا زول؟

ببلاهة يرفع فرج رأسه محاولاً اختراق الظلام حوله وتبيُّن ملامح ذلك الغامض الذي لم يرَ منه سوى أسنانه، باقي وجهه اتّشح سوادًا يُضيف لقُوطيّة المشهد رعبًا أبديًا لا ينتهي:

- كل واحد وليه أسبابه يابن عمي، مش عارف أعيش في بلدي، ماليش أهل ولا عيلة، قلت أجرّب في حته تانية.

- إنت من أم الدنيا! يا سلام عليك يا مسعود! انا قلت لنفسي كده.

مدّ يده مصافحًا فرج بسعادة:

- مسعود الشندار من السودان، شغّال على المركب دي بوجالي سنين، شفت كتير وجليل من اللي بيهاجروا لأرض الأحلام؛ أطاليا أو جوبرص، من كل مكان في الدنيا، عرب وأفارجة على كل شكل ولون يابن عمي. أول مرة أشوف طفل بيفكر يعمل زيك كده غير أخواننا الفلسطينيين ربنا يرفع عنهم بلوتهم.

يهزّ فرج رأسه باستغراب مستفسرًا:

- مين إخواتنا الفلسطينيين دول؟ وإيه حكايتهم؟

يبتسم مسعود بشفقةٍ واضحةٍ، يجيبه قائلاً:

- دي حكاية طويلة خالص؟ مش ينفع أحكيها لك قبل ما أعرف الأول إنت حكايتك إيه؟ ومنين عرفت طريج البحر من أصله يا ابن الناس.

تنهّد فرج بعمقٍ مستسلمًا لإلحاح ضيفه غريب الأطوار خشية إثارة قلقه ومِمّا قد يترتب عليه مِن مضايقته طوال الرحلة نظرًا لسلطته على المركب ورغبةً في قتل الوقت المَقيت وسط ظلام لا يعرف الرحمة. ظلّ يختلق فرج الأكاذيب في حكايةٍ وليدةِ اللحظة ابتدعها خياله ببراعةٍ متقنةٍ محاولاً إقناع مسعود بعقلانية قرار هروبه لأوروبا، إلّا أنّ الحقيقة كانت منافيةً تمامًا لما حاول به إلهاء ضيفه.

في الملجأ تفتّح وعيه على عالمٍ آخر لم يكن يتصوّر وجوده؛ حياةٌ آدمية ملأى بالحب والاحترام والنظافة، ربما وساطة الضابط هي السبب، ربما تعويضًا له عن طفولةٍ هدمت بناءه النفسي من الأساس، أو ربما لسببٍ ما أُعِدَّ لأجله؛ رسالته التي يحاول جمع إشاراتها وخطوطها العريضة من كلّ ما يحيط به منذ أنْ تحرّك الجبل وهو قابعٌ في أحشائه، حتى يصل لما يخطط ويريد!!

ما إنْ قفز أسوار الملجأ، بعد أنْ أقرّ بانتهاء دَوْرِه في حياته القادمة، حتى استقرّ عقله على خطوته القادمة؛ أنْ يملك المال، يصبح ثريًا بدرجةٍ مريحةٍ

تغنيه عن سؤال الناس، تؤمّن له رغد العيش، كما أنّ المال سيعينه على ما هو قادمٌ؛ فالمال قوةٌ لا يُستهان بها، له سحرٌ برّاقٌ ونفوذٌ طاغٍ. تلك هي المهمة الثانية التي يجب عليه أنْ يجتازها بعد أنْ أتمّ الأولى بنجاحٍ، حين أتقن فيها القراءة، كذلك حرفة النجارة وصنع الأثاث.

ولأنّ فرج يملك ذكاءً استثنائيًا فقد توصّل إلى حقيقة مفادها أنّه لا يعرف في مصر سوى دولة العشوائيات، ذاك قدره وطالما هو داخل حدودها، فلن يجد سوى نسخٍ مكررةٍ مِن سيد الأخرس ووردة الحدّاية، ولن يعرف سوى الطريق الأسهل للثراء، السرقة أو النصب والاحتيال. إلّا أنّه في قرارة نفسه لا يتمنّى العودة لما كان، ولن يترك نفسه فريسةً لهذا الشَّرك يجذبه رغمًا عنه، كما أنه مطاردٌ مِن الكثير؛ ربما قضية القتل ما زالت طور البحث والتحقيق؟

يحمد الله أنه طوال العامين الماضيين في الملجأ لم تمتدّ له يد الشرطة بأيِّ اتهام، ولكنْ يكفيه مِن القلق ما تجرَّعه طوال تلك الفترة، لن يظلّ رهن هذا الشعور ما تبقّى له من العمر خوفًا من زلة لسانٍ أو وشايةٍ ما من شلّة الدمار السابقة. ربما أصحاب الملجأ يلقون عليه بتهمةٍ ما نتيجة هربه المفاجئ، أو رغبةٍ منهم في التستُّر على سرقةٍ أو اختلاسٍ تمّ في الخفاء ورائحته قاربت على النفاذ.

يعي أيضًا أنّ سنواتٍ قليلةٌ جدًا تفصله عن التجنيد الإجباريّ؛ فمعلوماته المحدودة في أمور الجيش لم توصله لحقيقة كونه وحيدًا فالإعفاء من نصيبه لا محالة. إلا أنه يظن عكس ذلك تمامًا فلا أسرة لديه ولا عمل ولا محل

إقامة، أو حتى أوراقٍ رسميةٍ تثبت هويته، لذا يرى فرج هذه الأمور جميعًا تصبّ في مصلحة تجنيده لا العكس. هو باختصار، كائنٌ عشوائيٌّ. وبعقله المنطقيّ توصّل إلى تلك الحقيقة أيضًا؛ أنه في ظلّ كلّ هذه المعطيات حوله، فاستمراره في التجنيد بأيِّ صورةٍ كانت، هو أمرٌ قادمٌ لا محالة.

تلاقت الصور جميعها في رأسه المنهك، وهو يخطو حدود عشة ربيعة مرةً أخرى منذ أكثر من عامين!! يقف مدهوشًا مِن اتساع رقعة الشواهد الجديدة تصطفُّ بمحاذاة، مضطربةً متخللةً ثناياه الصخرة العملاقة غير عابئة بما قد يحدث في ثوانٍ. لا يزال سكان العشة يصرّون على تحدي قوانين الوجود، والدولة، وقوانين النفس ذاتها. حين تصبح خارج حدود الحياة، تتوارى لديك كلّ الأمور؛ فلا تعي شيئًا سوى حقيقة واحدة لا ترى سواها؛ أنت لم تكن موجودًا مِن الأساس! لذا، لا شيء يهمّ، ولا شيء قد يؤثر في كيانٍ لم يَعُدْ ينتمي لك.

قادته قدماه صوب حجرة عم حسين غيضان، وحده مَن لديه الحلّ؛ جواز سفره الذهبيّ إلى عالم تبدأ منه حياةٌ حقيقيةٌ. متحاشيًا النظر لحائط نصف مهدَّم، طالما توارى خلفه تلفح روحه أنفاسٌ خانقةٌ، تضربه موجات اللذة المحرمة، صفعات ليل الشتاء اللانهائي، وأصابع يد غليظة لا تعرف الرحمة، تمنّى يومًا أنْ يلثمها في الصباح وقبل النوم، أنْ تمتدَّ لتداعب خصلات شعره، تربِّت عليه بحنوٍ داعيةً له بالبركة وصلاح الحال، لكنها ما امتدت إلّا لتدمي روحه المتصدّعة، فاقدةَ الحب والحياة.

مرَّ بجوار الحجرة حين شهِدت نهاية حياة احترق بثناياها أعوامًا عدةً، دارت الدائرة ليحرقها بيديه مستمتعًا بانتشاء روحه، موقنًا أنّ ما حدث هو فقط البداية، بداية الخلاص. ما إنْ وصل إلى بُغْيَته حتى استقبله الرجل بترحاب خياليٍّ كأنّما هو ولده الوحيد، جلسا سويًا طوال الليل يفضي كلٌّ منهما للآخر ما حدث خلال العامين التاليين للزلزال؛ كيف هرولت الدولة بحجة حماية أرواح الأهالي، عازمةً على إخلاء المنطقة بعد أنْ وصل عدد الضحايا لما يتعدى المائة؛ ففي العام التالي للزلزال سقطت أولُ صخرة عملاقة من الجبل ساحقةً أسفلها عشراتٍ بلا رحمة أو هوادة، إلّا أنّ استماتة السكان جعلت مِن مهمة الدولة شبه مستحيلة فتركتهم لمصيرهم المحتوم.

بنفاذ صبرٍ تطلّع فرج لعمّ سيد قائلاً:

- مِن الآخر كده يا حاج، أسافر ليبيا إزاي؟

بتعجُّبٍ ردَّ الرجل العجوز:

- ليه يابني عايز تسافر؟ إنت لسه صغير على السفر وإن شاء الله تعرف تبدأ من هنا تاني، الأوضة بتاعتكم لسه محدش قرّب منها، الكل خايف من عفريت أبوك وأمك، بيسمعوا طول الليل صريخ وعياط، ممكن تروح تبنيها ونشوفلك واحدة من المنطقة سنتين كده وتتجوزوا، وأهي حاجة تبدأ فيها أحسن من مفيش.

علّق فرج بتهكُّمٍ واضح:

- صريخ وعياط طول الليل!!! تلاقي بس عفريت أبو فرج مزاجه عالي شويتين، بيسلّي نفسه هوه وعفريتة أم فرج شوية!!! يا عم حسين ركز معايا شوية الله يكرمك، بقى أنا أقولك إتعلمت القراية وبعرف أعمل كراسي وسراير زي الفل، تقوم تقوللي أرجع هنا تاني! أنا هنا معرفش غير الأخرس واللول وسوكا وأبو الليل وعبده إفترا، كلهم وشوش كالحة بنت ستين كلب، أنا عايز أكون بني آدم أحسّ حتى إني لسه عايش، قادر أعمل حاجة حلوة في حياتي زي اللي بنشوفهم في الشارع يا عم حسين، وبعدين جواز أيه اللي عايزني أفكر فيه!!! ما أنت تعرفش حاجة، ما علينا! هتساعدني ولا أتوكل على الله؟

شدَّ الرجل على يده مانعًا إياه من النهوض، مسترسلاً:

- استهدي بالله يابني، إنت معاك حق أنا بس صعبان عليا الغربة ملهاش قلب، ياما دوّبت ناس يا حبيبي وأنت لسه صغير وأنا خايف عليك.

نهض فرج بنفاذ صبرٍ جاذبًا الرجل مِن يده بعجلةٍ متجهًا إلى خارج حجرته قائلاً:

- بص حواليك كده يا عم حسين. إيه المكان ده!؟ ومين الناس اللي حوالينا دول!؟ وأنا اصلاً مين!؟ إحنا أساسا انتهينا قبل ما نبدأ يا حاج. وخليني أطمنك إنْ عمري ما هاشوف حاجة أكتر من اللي شوفتها وانا لسه بقول يا هادي في الدنيا. يا عم حسين، إنت راجل محترم وطول عمرك في حالك متعرفش

حاجة غير ربنا، وشغلك اللي في الوزارة. متعرفش أنا شفت وعرفت إيه السنين اللي فاتت، وده اللي خلاني أجيلك لإنك أكيد هتعرف حلّ ليا. مش معقول فرّاش في الخارجية ميعرفش السفر لليبيا بيكون إزاي؟

أنهي كلامه مادًّا يده في جيب بنطاله قابضًا على عدة مئات من الجنيهات، ووضعهم أمام عيني الرجل قائلاً:

- شوف الموضوع يتكلف كام وأنا هتصرف.

ردّ الرجل فزعًا:

- حطّ فلوسك في جيبك يابني، أبوك الله يرحمه كان صاحبي، مش هاخد مال أيتام، دا إنت زي ابني، أنا هقولك تعمل إيه وإنت تختار بقى اللي يريحك.

أشار عليه عم حسين إنّ الحلّ الوحيد لخروجه دون أوراق، هـو الهرب إلى ليبيا عن طريق صحراء الفيوم، هناك توجد قبيلة أولاد علي، تربطهم بالقذافي علاقة قرابة ونسب، يعرفون كيف يعبرون الحدود، فالصحراء لعبتهم المفضلة. أعطاه عنوانًا مفصلاً مليئًا بالمدن والإشارات، وعدة أسماء لعُمَد ومشايخ قرًى، ممّن يعرف عنهم كرم الضيافة ومدّ يد العون للغريب. والأهم، عدم ملاحقة فرج بالأسئلة، انطلق بعدها فرج في رحلته القصيرة إلى الفيوم، بكثير من العناء توصّل إلى أحد السماسرة من أهالي القبيلة المذكورة، بعدها بأيام معدودة تحقّق له حلم الخروج.

١٥

القاهرة - ٢٠١٠

كَحَبّات عِقد مُحكم الوثاق شارف على بلوغ اللحظة الحرجة، صارت خيالات المشهد تتراءى بذاكرة الأسيوطي بتتابُع رتيب؛ يوقن تمامًا أنّ المشهد قارب على النهاية إلّا أنّه يُصرّ تمامًا على سياسته الخاصة، مراهنًا على ما يملك من أوراقٍ وما لديه من صلاحيات.

يستميت في جذب طرفيْ الخيط، ملأ كافة الفراغات، مُحاذيًا جميع حبّات العقد بجوار بعضها بعضًا، مغلقًا أيَّ منفذ يسمح بأيّ حركة مقصودة أو تتمّ بمحض الصدفة، أملاً في إطالة الموقف، محاولاً تجنُّب لحظة الانفجار الوشيكة، بالرغم من قوة الإحكام إلّا أنّه يؤمن تمامًا بها؛ فلديه رؤيةٌ ثاقبةٌ لما يؤول إليه الحال في الدولة، يرى الشرارة الأولى تندلع من حركة «كفاية». اسمٌ معبّرٌ عمّا يشعر به قادة المعارضة، وشباب الجامعات من تشبُّع

واكتفاء، تأتيه التقارير عن تجمُّع العشرات في وسط البلد كلّما اجتمع أعضاء الحزب الحاكم في مقرّهم الكائن على الكورنيش، يهتفون ويسبُّون، يحوطهم الأمن المركزي حاجبًا هتافهم عن الشارع، تاركًا لهم فقط حرية الهمهمة الدفينة.

- مفيش ضرر منهم يا محمدي، دول شوية معارضة فارغة ملهاش وزن، إنت فاكرنا في أوروبا؟ هيعملوا رأي عام؟ هوه إحنا أصلاً عندنا معارضة؟ يابني هو إحنا نعرف يعني أيه رأي من أساسه!!

تتحرَّك الصور تدريجيًا في رأسه في مشهد غير سارٍّ يحوي صورةً للدكتور أيمن نور، يطوف مختلف المحافظات عاقدًا مؤتمراته الجماهيرية بحجّة اعتزامه الترشُّح للرئاسة أمام الكبير!

تبًا لها أمريكا! بالرغم من التفاهُم شبه التامّ بين سياستَيْ الدولتين؛ من تلاقي المصالح وحماية الأمن القومي لإسرائيل، إلّا أنّها من حين لآخر تتدخّل لتفسد المشهد، وتثير القلق، فتبسط نفوذها على الرجل، فلا تقدر الدولة على النيل منه، ليتصدَّر المشهد مُزاحِمًا الكبير في أول انتخابات تعدُّدية تحدث في تاريخ البلد.

بالرغم من يقينه التامّ بعبثية ما يفعل، واستحالة أنْ يصل حتى لرُبع ما يحلم، إلّا أنه يُصرُّ على المُضيّ قدمًا لذروة الانتحار السياسيّ، خطوتان فقط صار على الأسيوطي فعلهما، حتى يُجهز على ما يُسمّى بصحوة أيمن نور:

تزوير، وتزويرًا!

الأولى أشرف فيها على تزوير انتخابات الرئاسة بالنيولوك الجديد له، ليقضي بذلك على ما يُسمّى أسطورة الأغلبية المطلقة ٩٩,٩٪، فلا مانع أنْ تصل النتيجة للثمانينات حتى تُحبَك جيدًا. والثانية قضيةٌ مُعدّةٌ بعناية، تُلقي بالرجل خلف القضبان سنوات عدّة، تهمتُه فيها تزوير توكيلات إنشاء حزبه، وكيف يمكنه الخروج منها والأسيوطي لديه الشهود ونسخ التوكيلات أيضًا؟!

- قال رمز النخلة قال! أهو إحنا طلعناه يجيب منها بلح.

يُحكِم الوثاق بقوة أكبر هذه المرة، فملفُّ التوريث على الأبواب، المؤشرات جميعها تفيد بأنّها آخر الولايات وأنّ القادمة للوريث لا محالةَ. تتوالى المَشاهِد على استحياء في محطاتٍ عدّة، منها ما حدث من دفعة جمعية جيل المستقبل في أسيوط صيف ٢٠٠٧. حين أتاه الخبر فجرًا، مجموعةٌ من شباب المحافظات مجتمعون في مقرّ إقامتهم بمنطقة الأربعين بأسيوط، معسكرٌ شبابيٌّ تابعٌ للجمعية التي يرأَسُ مجلس إدارتها الوريث ذاته، يتلقّون عددًا من البرامج الدولية بغرض تأهيلهم لسوق العمل ظاهريًا، وجواز مرور للوريث من خلال شعبيةٍ مُفتعلةٍ في الخفاء.

فجأةً، يقرِّر هؤلاء الشباب الإضراب عن الطعام والدراسة احتجاجًا على معاملة غير آدمية تحدُث لهم هناك!!! إضرابٌ واحتجاجٌ، وتهديدٌ!!! كلُّ هذا يحدث داخل مَعْقل جمعية الرئيس القادم، ومن شباب يُفترَض فيهم أنْ

يكونوا نواة القاعدة الشبابية له!

تطوُّرٌ صادمٌ للأحداث لا ينبغي التغاضي عنه، ساعاتٌ قليلةٌ مرّتْ فتحرّكت طائرةٌ ضمّت الرجل الثاني في الجمعية لاحتواء الموقف مع قيادات الطلاب وتحقيق جميع طلباتهم فورًا دون إبطاء. حدثٌ صغيرٌ يكاد لا يُذكَر إلّا أنه وفقًا لتحليل الأسيوطي لتطورات الأوضاع له بالغ الأثر لِمَا يتوقّع حدوثه.

تمضي الصورة بسرعة خرافية لتحُطّ على رصيف المحطة الأبرز، تلك التي جعلته يستشعر القادم بقوة، تحت الرماد يقبع ماردٌ طالما اكتوى بنار الظلم، تتقاذفه ضربات الفقر والمعاناة، تدهسه الأيام تحت وطأة غلاء لا يرحم، لن يُجدي معه الحلّ الأمنيّ على الدوام. يأتي إضراب عمال المحلة ٦ إبريل ٢٠٠٨ ليسطر أقوى مشاهد الاحتجاج في تاريخ مصر المعاصر، وتاريخ الأسيوطي شخصيًا.

مظاهراتٌ حاشدةٌ تجتاح البلد جميعًا، عشرات العربات المُصفّحة وعشرات الآلاف مِن العساكر بهراواتهم وقنابلهم مسيلة الدموع لم توقف زحفهم المذهل، يعتلي الشباب أكتاف بعضهم للوصول لصور الكبير التي تملأ الميادين بابتسامته الأبوية الحانية، تنال منهم الجرأة حدًا غير مسبوق فينهالوا عليها تمزيقًا وتدميرًا في صورةٍ هي الأجرأ منذ انتفاضة الأمن المركزيّ مِن العام ١٩٨٦.

بلغ منه إحكام الوثاق حدًا مُريعًا إثر هذه الحادثة، تلاها مزيدٌ من حالات

القمع والتعذيب والملاحقات، امتدّت يد الطوارئ للجميع بلا استثناء، في رغبةٍ محمومةٍ لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، إلّا أنّه شعر لأول مرة بالفزع؛ الفزع مِن جموع شعبٍ أعزلَ لم يرَ مثيلاً لها منذ تخرُّجه في كلية الشرطة. فَزَعُه مِن سيناريو اللحظة الحرجة أو الكتلة الحرجة، تلك التي تحدُث في التفاعلات الكيمائية قُبَيْل انفجار القنبلة، دومًا حذّره رؤساؤه مِن وصول غريمه لتلك اللحظة، لن يتردّد في تدمير كلّ شيء، ولن يعود هناك مجالٌ للتراجع أبدًا، ليترك دومًا منفذًا ضئيلاً جدًا يهرب منه خصمه، أو يلتقط أنفاسًا كافيةً تجعله على قيد الحياة، أمّا أنْ يسُدّ كافة منافذ الحياة، فلا يلومنّ إلا نفسه.

يلي ذلك المشهد الأبرز، عدّة مشاهدَ فرعية، مِن وقفاتٍ احتجاجية لشباب المدوِّنين على شبكات التواصل الاجتماعيّ وغيرها، وعلى سلالم نقابات الصحفيين والمحامين والأطباء، وأمام دار القضاء العالي. عشراتٌ لا وزن لهم، يلتقون سويًا لأسبابٍ عدّة؛ مرةٌ للاحتجاج على تصدير الغاز لإسرائيل، وأخرى ضدّ قانون الطوارئ، وثالثةٌ لتعديل موادّ الدستور، ورابعةٌ ضدّ التوريث وغيرها مِن مطالبَ صبيانيةٍ لن يلتفت إليها النظام مطلقًا، يهدم ثوابته مقاطعُ فيديو يراها لأحد شباب المعارضة يسبُّ فيها الذات المباركيّة العليا. يرى الشابّ يضغط فيها على مخارج ألفاظه، ينتزع الكلمات مِن أعماقٍ فاضت بالقهر والمقت.

يستفيض في الوصف قائلاً:

- ابنٌ وأبٌ، كلبٌ وكلبٌ!

قانونه دمٌ يسيل للرُّكبْ!

مع أنّه قد شاخْ!

يريد أنْ يورِّث الأوساخْ!!!

جرأةٌ لم يعهَدْها مُسبقًا، مستوًى جديدٌ من المعارضة بات يستفحل بلا رادعٍ. تزيغ نظرات الأسيوطي وتميد الدنيا حوله، لم يتصور يومًا أنْ يصمّ أذنيْه ذاك الهدير الغاضب، ينطق لسانه دومًا خلاف ما يختلج في صدره، يصبُّ كلماتٍ مرتعشةٍ على مسامع مساعده أملاً في تلمُّس أمانٍ بات وشيكًا على الرحيل:

- يا سعد، بقى إنت بتحذرني من شوية خنافس مش لاقيين اللي يشكمهم؟ يا بني، العيال دي بتبات عندنا في الحجز وفي التحقيقات أكتر ما بيباتوا في بيوتهم، لدرجة إنّ ظباط الأمن المركزي اتصاحبوا عليهم من كتر وقفاتهم وحواراتهم اللي على الفاضي، هما كمان عارفين إنهم بيعملوا شوية حركات، حاجة كده بتحسِّسهم بجَوّ عُرابي وسعد زغلول وشغل المعارضة ده، أكتر من كده مفيش يا محمدي. إحنا نظام بقاله سنين كتيره ماسك البلد، بنحكم ملايين يا سعد زي ما الكتاب بيقول، ده احنا تفوقنا على أي كتب يا راجل. يوم من الأيام هشتلك قد إيه نظامنا متماسك، متماسك لأبعد درجة ممكن تتخيلها.

ينتهي التتابُع بعدّة صورٍ لمَن تصوَّروا أنفسهم يومًا ما قادرين على تحدّي النظام، أو النيْل مِن سمعة أحد، أو حتى مجرد التفكير في الازدهار والشهرة دون مراعاةٍ للقواعد، كيف كانت النهايات مختلفةً وعبقريةً! تقتحم العرض صورةٌ تطفو فجأةً على السطح، قادمةٌ من العدم على حين غرةٍ، تُبعثِر شتات خيالاته، تُزاحم لتحتلّ كافّة أركان وعيه، يمسك الصورة بين يديْه، باليد الأخرى ورقةٌ تحوي عدّة مطالبَ يعلوها عنوان «معًا سنُغيِّر» أسفلها إمضاء الجمعية الوطنية للتغيير! يرى سيناريو أيمن نور يوشك على الظهور ثانيةً بصورةٍ أكثر حنكة، أشدَّ مقاومة وعنادٍ ومناعة تستعصي على الهدم، وشخصيةٍ عالميةٍ لا غبار عليها.

ما يدفعه للدهشة العارمة تساؤلٌ يطرق ثنايا مخه مرارًا، لماذا يُقدِم رجلٌ بمكانة وخبرة د. البرادعي على مثل هذه الخطوة غير مأمونة العواقب؟ كيف ينجرف لمجموعة مِن الموتورين أمثال، كفاية وحزب الكرامة والإخوان وعيال ٦ أبريل وشلة ٩ مـارس؟ ليقود بنفسه مجموعةً مِن المطالب المستحيلة؟!! بل والأدهى يؤسِّس جمعيةً تتولى مهمة جمع توقيعاتٍ لتوثيق هذه المطالب شعبيًا!!

رجلٌ مثله لا يريد من السياسة شيئًا، لا مناصبَ ولا أموالاً أو حتى سلطة، ما الداعي له لتحدّي سطوة النظام الكاسحة في توقيتٍ شديد الحساسية كالذي توشك الدولة على خوض غماره؟ انتخابات مجلس الشعب على الأبواب، تليها رئاسة الجمهورية، ولن تتوانى الدولة عن فعل أيِّ شيءٍ لتأمين مرور

هاتين المحطتين إلى برّ الأمان.

يقطع عليه سيل خواطره طرقاتٌ عاليةٌ على باب مكتبه، يدلف بعدها المحمدي على عجلٍ، ترتسم الجِدّية خطوطًا عريضةً بملامحَ أجهدها العمل ساعاتٍ طويلةٍ دون انقطاع:

- حازم السعدني وصل بره يا فندم، منتظر الإذن لمقابلة معاليك في الاستراحة بقاله ربع ساعة.

يهزُّ الأسيوطي رأسه اعتراضًا على بعثرة خواطره محاولاً السيطرة على نبرات صوته وانفعالاته:

- بالراحة عليا يا سعد، مش شايفني غرقان لشوشتي في البلوه الجديدة دي؟ البرادعي ده طلع داهية كبيرة. مش عارف المفروض نتعامل معاه إزاي، خطواته سريعة ومحسوبة كويس، وكلّ طرقنا القديمة مش هتنفع معاه. يعني لا تهديد ولا ملفات ولا سجن، الراجل كان مدير وكالة الطاقة النووية، وواخد نوبل يعني حصانة دولية، وكمان الكبير كرّمه من فترة وإداله قلادة النيل، يعني كمان حصانة داخلية، أيّ حوار هنعمله هيقلب علينا الدنيا، وأنت جاي تقولي حازم دلوقتي!!!

بهدوئه المعتاد يردُّ المحمدي:

- واحدة واحدة عليا يا باشا، مفيش حدّ يستعصي علينا ده حضرتك أستاذنا، إنت اللي علمتنا مدرسة «مفيش أنبيا في الزمن ده»، وطالما إحنا بنتعامل

مع بشر يبقى كل واحد ليه حاجتين: نقطة ضعف، وغلطة، ومهمتنا إننا نوصل للضعف ده أو نخليه يغلط، ساعتها نقدر نعمل أي حاجة تانية بيه أو معاه، ده لو هوه يستاهل إننا نركز أصلاً عليه. والبرادعي اكيد من اللي تنطبق عليهم المقولة، ولا أيه يا باشا؟

أطرق الأسيوطي مُفكّرًا في ثوانٍ، وفي رأسه تتضارب أفكارٌ عدةٌ، يُطلِق كلابه تنهش في عِرْضِ الرجل لتنال من سمعته رويدًا رويدًا، ينشر على استحياء شائعاتٍ من شأنها أنْ تُثير حوله القيل والقال. خطواتٌ عدّةٌ تراءت له، قرر أنْ يُنحّيَها جانبًا للتفرُّغ للقاءِ طال الإعداد له، مُستعيدًا هدوءه، قال:

- ناولني آخر معلومات جمعناها عن حازم من الدولاب اللي جنبك ده، واديني خمس دقايق كمان بعدها خليه يتفضل، لما نشوف آخرتها أيه مع اللي عاملي نفسه ملاك!!

انسحب المحمدي بهدوءٍ بعد أنْ ترك عدّة أوراقٍ بين يديْ وليد، ظلّ يراجعهم مراتٍ في عجالةٍ ساحبًا عدّة خطوطٍ أسفل بعض الجُمَل، خمَّن أنّها الأهمّ في حواره المقبل مع واحدٍ من أشهر وأقوى خطباء الوطن العربيّ.

قانون رقم (٦)

اتّخذ هيئةً لا شكل فيها

عند اتّخاذك شكلاً ما، وامتلاكك لخطة مرئية، فإنّك تُظهِر نفسك للهجوم.

أبقِ نفسك قابلاً للتكيُّف ومتحرِّكًا، وتقبَّلْ حقيقة عدم وجود شيءٍ مؤكّد وعدم وجود قانونٍ ثابت.

فأفضل طريقةٍ لحماية نفسك هي أنْ تكون سائلاً وبلا شكل كالماء. وإياك أنْ تراهن على الاستقرار أو النظام الباقي الدائم، فكلُّ شيءٍ يتغيَّر.

١٦

السواحل الإيطالية - ١٩٩٥

يقنع الناس دومًا بما يثير لديهم العواطف والرغبات الدفينة، فلا الحقائق المُجرَّدة أو الأرقام هي ما يشغل خلاياهم المُجهدة من طول التوقُّف، وكثرة الانتظار حتى تيبَّست وصارت صلبةً تستعصي على الفهم والتحليل، والأخذ والعطاء. وحدها العاطفة هي ما تُريح عقولهم، تجعلهم يميلون لِمَا يمسُّ شغاف أرواحهم المسحوقة بثقلِ ما مرَّ عليها مِن آلامٍ، وما اعتراها من أحزانٍ.

كأنّما يجدُ بعضهم نفسه في سماع مآسي غيره كنوعٍ من التطهير، أو كما يقولون، مَن يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته. انعكاس صورة الفرد على لسان غيره تعني له الكثير؛ لذا يُجيد فرج هذه اللعبة دومًا حين يقع العبء على إقناع بعضهم بأمرٍ ما، فلا يَجِدُ صعوبةً في اختلاق مأساةٍ تخدم خطوته القادمة بعناية للوصول لما هو أبعد.

مهارةٌ اكتسبها من سنين، دفعه إليها دفعًا خوفه من عقابٍ قد يتخطّى حدود حواسّه، تنهار بعدها قدرته على التحمُّل، لطالما جرى الأمر على يد والديه أو معلم الورشة، أو أحد الجيران حين يضبطه متلبسًا بالتلصُّص عليه من إحدى شقوق عشّتهم المهترئة!!! يسارع وقتها لاستحضار أقصى درجات الانكسار، مع حبكةٍ دراميةٍ مليئةٍ بالنهنهة والدموع. يلين بعدها قلوب الجميع، عدا والده!

كأنّما لم يكنْ يرى سوى مسخٍ وجب التخلُّص منه، كما لم يرَه فرج أبدًا كالآباء منذ أنْ وعى لذاته وجودًا، حين تخشى العقاب لن تجد سوى الكذب سبيلاً للخلاص. وفي الميكروباص المكتظّ بحمولته، مخترقًا الصحراء الغربية قاصدًا الحدود الليبية، دمعت أعين بعض المسافرين تأثرًا لرواية فرج عن مرارة العيش في أحضان جبل الدويقة. لسعات البرد ولدغات العقارب، عن الصخور التي تسحق الرؤوس دون مقدمات، عن عشاش الصفيح التي تشوي قاطنيها في نهار الصيف القاتل، عن الدولة التي غابت عن شعب العشوائيات، وحكومة صمّتْ آذانها عن أنين الناس فصار سرطانًا يفرز سمومًا في قلب الوطن، يسدُّ شرايينه ويعيق حركة الحياة فيه، عن زلزالٍ كئيبٍ دمّر ما كان يحسبه حياةً، ومن كان يعيش من أجلهم؛ والديه، أعزّ وآخر مَن يملك في هذه الحياة!!!

سنين عاشها في الشوارع، أسفل الكباري، بجوار مداخل المطاعم والمقاهي، يلتحف الهواء غطاءً، والرصيف وسادةً، والطريق بيتًا وسكنًا. كم عبثَ بسلال

القمامة وساحات المنازل ليجد ما يستحقُّ أنْ يؤكل! وكم باتَ لياليَ طوالٍ بلا طعامٍ يسمع صرير أمعائه تعوي طلبًا لأيّ شيءٍ يصلح لأنْ يدعوه طعامًا!!! لذا قرّر أخيرًا أنْ يهرب من جحيم التشرُّد قبل أنْ يسقط فريسةً للانحراف أو البلطجة، قاصدًا ليبيا للعمل مع خاله الوحيد على مراكب الصيد في أحد الموانئ الليبية!

وما إنْ يُنهي فرج قصّته المُعدَّة بعنايةٍ خاليةٍ مِن الثغرات، مُشبَّعةً بالحزن والأسى، حتى يُحني رأسه بانكسارٍ وروحه تتقافز فرحًا على لوحته الفنية البديعة، تلك التي صاغ سياقها بعنايةٍ وخبرةٍ وتلقائية. تمتدُّ بعض الأيدي عابثةً في زوايا جيوب القمصان أو البنطال، باحثةً عن عملةٍ ما لوضعها في يد الشاب المنكمشة بكلّ تعاطُفٍ وشفقة، كما يأبى الفتى أنْ يأخذ أيّ شيءٍ بكلّ حزم، كلّ ما يطلبه هو أنْ يساعده أحدهم في إيصاله إلى خاله الوهميّ، ما إنْ يعبروا الحدود الليبية تسلُّلاً مِن النقاط العديدة المنتشرة.

تتّسع ابتسامته وهو يتذكّر تلك الأيام القريبة، كيف ضمن لنفسه بتلك القصة المفبركة، دليلاً مجانيًا لن يفارقه حتى يصل لأيّ ميناءٍ بأمان، بعدها يبدأ فرج في البحث عن أيّ عملٍ في صيانة وتصليح المراكب نظرًا لخبرته في هذا الأمر. فعلها سريعًا؛ فما هي إلا أيامٌ قليلةٌ حتى تسلّم عمله على أحد مراكب الصيد الكبيرة بميناء زوارة غرب طرابلس العاصمة، يبعد حوالي ٦٠ كيلومترًا عن الحدود الليبية التونسية، وهو ميناءٌ صغيرٌ مُخصَّصٌ لنقل البضائع والتصدير، كما يوجد فيه أرصفةٌ للصيد وإصلاح القوارب والجرّافات.

كلُّ هذه عواملُ ساعدت فرج على الاختباء عن الأعين بكفاءة هربًا من الأسئلة، كما مهّدت لخطوته الأكثر جرأة، عبور البحر لأرض الأحلام!

لم يمرّ سوى ستة أشهر أو يزيد حتى قادته الصدفة، أو ربما هي رسالته التي يعمل جاهدًا لتحقيقها، للتعرُّف على أحد سماسرة الهجرات غير الشرعية، وما إنْ علم بالأمر حتى عدّل بسرعة من خطته التي كان مقررًا له البقاء فيها داخل ليبيا، ليعبر البحر إلى عالَم أوسع وأكبر وأكثر ثراء وحضارة.

جُلّ ما يتمناه فرج هو أنْ يغيّر جلده تمامًا، ينسلخ من ربيعه وما علق بروحه من ندوب، وما اعترى جسده من أقذار، أن يولد جديدًا تمامًا، نظيفًا وبرّاقًا، أنْ يحوي عقله أفكارًا متطورةً، ثقافةً ورقيًا، وتحوي روحه قدرةً هائلة على التغيير، كما يحوي رصيده في البنك أصفارًا عدّة لا يعلم كيفية نُطقها حتى الآن، ليصل إلى مبتغاه!

هذا ما تدفّق في ذهنه وتمنّى تحقيقه منذ أنْ علم أنْ هناك ما يسمى إيطاليا، دولةٌ لا تعرف المستحيل، يعمل فيها آلاف المصريين طمعًا في الليرات، تلك العملة التي يمكن أنْ تغيِّر كلّ شيء!

برغم المشاقّ استطاع أنْ يجمع المبلغ المطلوب للسفر، عدةٌ لا يحصى من الحيل قام بها، وكثيرٌ من الحبكات والمأسويات، قلّص المطلوب منه للنصف، كما اعتلى سطح المركب ينكمش في زواياه هربًا من فضولِ مَن معه؛ في نظرهم لا يعدو كونه طفلاً لم يكمل عامه الثامن عشر بعد، فما الذي يدفعه لمغامرة قد تدفع به وجبةً سائغةً لأسماك القرش! أو يطفو

منتفخ البطن قرابة السواحل الإيطالية في أحسن الظروف!

إلّا أنّ قَدَرَه كان يرتِّب له ما أُعِدّ من أجله، يجزل عليه عطاياه حتى يؤمن تمامًا أنّه ماضٍ في طريقه لتحقيق رسالته الكبرى. يسوق له هذا الشندار مسعود ليصبَّ الهراء على أمّ رأسه طوال الطريق، فقط ليمنحه مفتاح السلامة، جواز مروره من عقبة الطريق الكبرى. جملةٌ واحدةٌ ألقاها عليه هذا الشندار دون وعي كفيلةٌ بأنْ تجعله رائق البال مطمئنًا، حتى وإنْ لاحت أضواء كاشفات طائرة خفر السواحل الإيطالية كما هو الآن، حتى وإنْ صمّ آذانَ الجميع هديرُ مروحتها الطاغي فوق الرؤوس، جاذبًا معه كلّ أحلام الثراء، مُلقيًا بها على صخور الشاطئ لتتحطم فتخبو معها آمال الجميع.

يُلقي المئات بأنفسهم من المركب آملين في الوصول إلى الشاطئ القريب، ومنها إلى غابة الأشجار هربًا من الشرطة الإيطالية، خوفًا من شبح السجن والترحيل، بعد خسارة تحويشة العمر والعودة إلى جحيم أوطانهم ثانيةً!

يُلقي فرج بنفسه في وسطهم، يسبح بقوةٍ وثباتٍ تجاه الشاطئ بمهارة لم يكنْ يملكها قبل ركوب البحر سوى بعدة أسابيعَ، غير عابئٍ بما حوله من هلع واضطراب، حتى كان من اليسير عليه سماع نحيب بعضهم وهو يغرق.

لم يُمهِلْهم صاحب المركب لارتداء أيّ واقٍ ضدّ الغرق والكثير منهم لم يقرب المياه طوال حياته!

فقط ما يشغل باله سلامة موقفه حين يلقون القبض عليه، فلا يجدون

على المركب أيّ شخص، فينكر صلته بالجميع بل ويتّهمهم بخداعه والتسلّل دون علمه للاختباء في صناديق البضاعة! وحين ألقت الدورية الإيطالية القبض على مَن تبقّى منهم، أشار فرج للضابط المسؤول عن التحفّظ عليهم لحين وصول الصليب الأحمر المسؤول عن ترحيلهم، وهمس في أذنه بجملة واحدة لم يميِّز الضابط منها سوى كلمتين: عربيّ-فلسطينيّ.

ما هي إلا ساعتان حتى كان فرج يحتسي كوبًا من عصير البرتقال المنعش، في أحد معسكرات الصليب الأحمر للاجئين، أمامه تجمّعت لجنةٌ تحوي طبيبًا وإداريًا وثلاثةً من المسعفين ومترجمًا، تولّى الأخير ترجمة قصة فرج المذهلة عن هروبه من جحيم الحصار في فلسطين والتسلل إلى مصر ومنها إلى ليبيا حتى يصل لأرض الأمان طالبًا اللجوء!

ونظرًا لكونه لم يتعدَّ الـ ١٨ عامًا من عمره، فإنّ القوانين الإيطالية تعطيه الحقَّ كلاجئٍ فلسطينيٍّ فَقَدَ أوراق هويته في البحر ولا يعي أيّ شيءٍ عمّا حوله، في كامل الرعاية الصحية والتعليمية كأنّه أحد أبناء إيطاليا.

فعلها فرج بكلّ دقة، لذا أغمض عينيه بعمقٍ، تاركًا نفسه يسقط مسترخيًا، يُعِدُّ العدة لما هو قادمٌ، فحياته بدأت منذ الحين.

١٧

القاهرة - ٢٠١٠

لوهلة لم يعِ المشهد بصورةٍ كلية، تلك القامات الفارهة مفتولة العضلات، نظاراتٌ شمسيةٌ داكنةٌ وملامحُ جادّةٌ لرجلَيْن اقتحما عالمه الخاص بدار رعاية أطفال الشوارع التي يرأس مجلس إدارتها، في اليوم المخصَّص من كلّ أسبوع يقضيه بين الأطفال، مُتناسيًا الدنيا بما فيها ومَن فيها. خطواتٌ آليةٌ مُتعجِّلةٌ عبرت البوابة الرئيسية للمبنى صوبه مباشرةً، بلا مقدمات أتاه الاستدعاء.

كلماتٌ مقتضبةٌ، دون أيّ معلوماتٍ إضافية؛ فقط جملتان: «دكتور حازم، حضرتك مطلوب على وجه السرعة بمقرّ أمن الدولة التلات الجاي الساعة واحدة بعد الضهر.»

ثم مدَّ أحدهم يده بخطابٍ مُحكم الغلق، تركه بيد السعدني وانصرفا كأنّ

في حياة الفرد اليومية ثوانٍ كفيلةٌ بأنْ تجعل الزمن يتوقّف عندها ساعات طويلة، ربّما لها وقْع السِّحر قد ترتدُّ بالفرد صوب ماضيه السحيق، أو ربما ألقت به في غياهب الحيرة القاتلة حتى يفقد القدرة على الشعور بالزمن ذاته. وسط ذهول العمال والأطفال المحيطين بحازم، انسحب الأخير بهدوء ليقرأ فحوى الخطاب بمكتبه في الطابق الثاني من المبنى.

لطالما حاول السعدني تجنُّب الجهات السيادية للدولة منذ أنْ وطئت قدماه أرض مطار القاهرة، حين قرر العودة لوطنه، وهو يعي خطورة حقيقة عملية مفادها: لا أحد يثمر في هذا البلد إلا بشروطٍ أهمُّها المال والسلطة.»

يملك مِن المال الكثير لذا لا يعنيه الشرط الأول، إلّا أنه يفتقر تمامًا لأيّة سلطة، وهذا ما سبَّب له العديد من المتاعب في بداية عمله، خاصةً وقت أنْ حاول تخطِّي العقم الروتيني المهترئ، الضارب بجذوره أقصى زوايا المنظومة الحكومية، حين سعى في إنهاء تراخيص مؤسساته العديدة، فكلَّفه الأمر أموالاً كثيرةً، ليُقنِع عددًا لا بأس به مِن الأقلام أنْ تمرَّ على أوراقه أو تنهال على مستنداته بالخاتم السحريّ، شعار الجمهورية الكحليّ!

لذا يوقن تمامًا أنه غير آمنٍ دون مظلة السلطة، بالرغم مِن أنّ الشهرة ذات حصانة مِن نوعٍ خاصٍّ قد تعوِّض كثيرًا عن غياب القوة المطلوبة لوساطة فلان أو علان، إلّا أنّ الشهرة قد تتهاوى مع أول مَطبٍّ شعبيٍّ أو أمنيٍّ مُعَدٍّ

بعناية؛ فلاعب الكرة الهدّاف قد يظلُّ معشوق الملايين لسنوات عدة، وما إنْ يُهدِر ضربة جزاء حاسمة أو تقلُّ كفاءته، حتى تنهال عليه اللعنات مِن كلّ جانب، قد تطال الشتائم كلّ أسرته دون مبررٍ كأنّما لم يُحرِز أيّ انجاز يومًا ما أو يُسعِد الملايين بصدى بطولاته! وها هو يواجه أعتى كوابيسه قتامةً؛ أمن الدولة.

لماذا؟ وكيف؟؟ وما الحل؟؟؟

لا يرى في أنشطته ما يريب، كما أنه لا يعتنق أيّ فكرٍ معارضٍ بل هو لا يتكلم في السياسة مِن الأساس، لا من قريبٍ أو حتى بتلميح. قد يتعلّق الأمر بأحد أفراد فريق عمله؟ ربما! ولكنْ لِمَ كلّ هذه الضجة والرهبة في استدعائه طالما أنّ الأمر لا يعنيه هو بالذات؟ تدافعت الشكوك بعقله المجهد تكاد تعصف باتّزانه، وعيناه تلتهمان فحوى الخطاب المقتضب في عجالة:

«السيد المحترم / حازم السعدني

إنه لمن دواعي سروري أن أتقدم بدعوة سيادتكم للتعارف وتقارب وجهات النظر وبحث سبل التعاون. نظرًا لما وجدناه من نشاطات وأعمال مميزة لكم في خدمة الوطن وشبابه.

عقيد- وليد الأسيوطي»

بحث سبل التعاون!!!

دوَّت الجملة في رأسه عشرات المرات، تحمل في ثناياها آلاف التأويلات، هل قرَّر وزير الداخلية تدريب ضباط أمن الدولة على مهارات التنويم الإيحائي وفرضيات البرمجة اللغوية العصبية مثلاً؟! أم أنّ الجهاز السيادي المُخيف يرى في التنمية البشرية الحلّ السحريّ للقضاء على الإرهاب؟! أيّ سبل تعاونٍ يرغب هذا الأسيوطي في بحثها معه، ولِمَ يضعه في حساباته الأمنية مِن الأساس؟

هكذا عصفت برأسه الأسئلة يومَيْن متتاليَيْن تصاحبه أينما حَلّ، لم يقدر على النوم ولا كفّ عقله المنهك عن التفكير، ألغى جميع محاضراته واجتماعاته عاكفًا على دراسة كافّة الاحتمالات، يُعِدُّ العدّة لذلك اللقاء فلا يشعر بالراحة مطلقًا، يومض بداخله إنذارٌ خفيٌّ يتعاظم دويُّه كلّما اقترب الموعد.

تمرُّ الدقائق ثقيلةً، يزداد معها ثقل رهبة الكيان المهيب الذي يقبع حازم بين جدرانه، ينتظر الإذن للقاء ذاك الأسيوطي في مكتبه، يحاول جاهدًا السيطرة على اضطرابٍ يعصف بكيانه، سحابةٌ من القلق تحجب الوعي عن إدراكه، يخشى أنْ يمدَّ أحدهم يدًا تُبدِّد سكون سنين طويلة كافح مريرًا لحذفها من ذاكرة الوجود، محو أيّ آثارٍ قد تُنبئ عنها يومًا ما، يقطع عليها خطَّ الرجعة، يُلقي بها في غياهبَ سحيقةٍ لا يقدر هو ذاته على الولوج داخلها.

إلا أنّه يستشعر صوتًا خافتًا يأتيه خلف تلك الغياهب، يهمس له أنّ الأمور

ليست كما خُطِّط لها، تتصاعد حدّة الهمس كلما مرَّ الوقت، ربما يفقد السيطرة قريبًا إذا لم يضع نهايةً لكلِّ هذا العبث، صوتٌ آخر أكثر وضوحًا يأتيه في نهاية الممر، يدعوه للتفضل بمقابلة وليد بيه.

نَفَسٌ عميقٌ تليه زفراتٌ حارةٌ أودعها ما تجيش به أعماقه من جحيم مستعر، راسمًا على وجهه ابتسامة ثقة استحضر معها كافّة علوم الثقة بالنفس ومهارات التواصل التي يتقنها عن ظهر قلب. دلف إلى الحجرة الواسعة بكلّ هدوء، مُتفحِّصًا أثاثها بالغ الأناقة، ضوءها الهادئ، ومكتبها المهيب، والأسيوطي!

لثوانٍ شعر حازم بقشعريرةٍ باردةٍ تسري في أوصاله ما إنْ تلاقت الأعين، هو أمام رجلٍ يعرف جيدًا ما يجب عليه عمله، لا يمكن خداعه أو حتى إثارة غضبه، صندوقٌ أسودُ مليءٌ بالرهبة.

بترحابٍ بالغٍ استقبله الأسيوطي ضاغطًا على يده عند التحية، وعلى حروف كلماته حين بادره بالقول:

- متشوق أنا من زمان للقاء ده ياحازم بيه.

غصةٌ مكتومةٌ جاهدت للانفراج عن حلق السعدني، انتزع منها كلماته المبتورة:

- شرف ليا أكيد يا وليد باشا إنّ معاليك تتشوق تقابلني، إن شاء الله أكون عند حسن الظن دايمًا.

مشيرًا بيدا صوب مقعدٍ جانبيٍّ، أجاب الأسيوطي:

- هتكون عند حسن الظن، متقلقش من الناحية دي واتفضل ارتاح هنا يا دكتور.

للانطباعات الأولى مذاقٌ آخر، نشوةٌ بالغةٌ شعر بها الأسيوطي حين ارتجفت يد السعدني بين أصابعه الواثقة عند التحية، مع اختلاج الكلمات داخل حلقه، هذا الخطيب المفوّه، ساحر الكلمات، القائد الملهم، لمْ يصمد من الوهلة الأولى أمام طُغيان شخصية الأسيوطي وقوة هالته ونفوذه كما توقّع تمامًا، ملفُّه يَشِي بما هو أكثر مِن الظاهر، وسطوة الأسيوطي الكاسحة تكاد تجهز عليه من الجولة الأولى.

تهاوى السعدني على المقعد المشار إليه، يحاول السيطرة على بعثرة خلايا ثقته الهزيلة بذاته، تلك التي تَشَتَّتتْ مع كلمات الأسيوطي القليلة، يتوجب عليه البحث بعمقٍ أكبر عن معنًى آخر للثقة بالنفس، وكيف لها أنْ تصمد أمام العتبات القصوى للإثارة، أعتى درجات الرهبة والقلق! غاص في مقعده أكثر كمَن يلتمس فيه دفئًا غاب عنه سنين طويلةً، بادره الأسيوطي:

- هختصر عليك الموضوع يا دكتور علشان مندخلش في محطات تعارف كتير إحنا في غنى عنها، لا طبيعة شخصيتك هيفرق معاها البدايات دي، ولا أنا مستعد أضيع وقتي في مجاملات روتينية فارغة.

يهزُّ السعدني رأسه بالموافقة، مستحثًا الأسيوطي على مزيدٍ مِن الكلام.

من الآخر كده يا دكتور، الكبير مش هيكمل في انتخابات الرئاسة الجاية، وجيمي هيكون الريس، وده موضوع يلزمه شغل كتير وتخطيط، ملف ضخم بيترتب فيه بقالنا سنين علشان الصورة تطلع صح الصح، منطقيًا وعمليًا وشعبيًا، وتظهر الأمور عكس ما يشاع عنها.

اتسع عينا حازم بدهشةٍ مِمّا يسمع من معلوماتٍ مفاجئةٍ، يهزُّ رأسه دلالة عدم الفهم:

- تقصد إيه يا وليد بيه؟ أنا مش فاهم!

- قصدي إنّ الناس بتتكلم عن الموضوع بطريقة تضايق شوية، يعني شايفين إنّ ده توريث، وإنّ الملكية انتهت من زمان وده مش المفروض يحصل، مش ده اللي الناس بيقولوه؟ مع إنّ كل حاجة في البلد ماشية كده، الدكتور والظابط والقاضي والمغني والممثل وغيره وغيره، كلهم بيخلّوا ولادهم يكملوا المسيرة بالذوق أو بالعافية، ده حتى اللي عنده حتة مطعم ولا ورشة بيبقى عايز ابنه يمسكها من بعده، تيجي بقى على الراس الكبيرة وتقولوا لأ!!!

- يا أفندم، حضرتك أنا لا بقول لأ ولا بقول آه، اللي يمسك يمسك طالما الدنيا ماشية، أنا في حالي ومركّز في شغلي يا وليد بيه، وأكيد حضرتك قدامك ملفي وعارف الأمور ماشية إزاي.

قال حازم جملته الأخيرة بنبرةٍ استعاد فيها الكثير من ثقته المهدرة، ظنًّا

منه أنّ ما كان يخشاه لم يَعُدْ له وجودٌ، فطن الأسيوطي للأمر فضاعف من قوة كلماته:

- فعلاً موقفك السياسي نزيه جدًا يا دكتور، لا تشوبه أي شائبة زي ما بيقولوا في الكتب ما شاء الله عليك، قدوة فعلاً للشباب، كمان قربك من المستشار هشام الزيات وخطوبتك لبنته بيعزز النزاهة دي ويقوّيها وبيحسّسك بالحصانة، ظاهريًا!

قال كلمته الأخيرة ضاغطًا على مخارجها بقوة، ثم أردف:

- هنا يا دكتور مفيش حصانات من أي نوع، لا الزيات ولا أبو شقرة ولا الرفاعي، ولا أي عيلة تانية من الحيتان ليها حصانة هنا، ومش معنى إنك محايد تبقى براحتك أو حرّ نفسك، بالعكس! إحنا بتعامل مع أي حد مش معانا على إنه ضدنا، بالذات لما نحتاجه ويعمل نفسه متحصن! إحنا هنا علشان عيلة واحدة بس، هيه اللي ليها كل الحصانات وكلنا شغالين علشانها.

ابتسم السعدني بسخرية عفوية حين فطن لمغزى الكلام:

- ده الوطن طبعًا يا وليد بيه.

رفع الأسيوطي حاجبيْه بدهشة محاولاً كظم انفعالٍ قد يعصف بكلّ شيءٍ قائلاً:

- تسميه الوطن، تسميه محسن، تسميه حتى أم الخير، مش هيفرق معايا كلامك في حاجة، أولاً لأني مؤمن كويس جدًا بإنّ اللي بعمله هوه الصح،

وثانيًا لإنك هتشتغل معايا وهتعمل اللي هقولك عليه! وقبل ما ترد أو تعترض خليني أوضحلك حاجة مهمة جدًا يا ملك التنمية والنفسيات يمكن تكون عمرك ما أخدت بالك منها، نفسية الشعب ده ليها كتالوج بقاله سبع تلاف سنه ماشي عليه مبيتغيرش ومش هيتغير، الناس دايما عايشة في ضلّ الكبير ولو خرجت من تحت عبايته تتحرق وتموت، أو تتوه متعرفش الطريق فين. بصّ كده على تاريخك من أيام الفراعنة تلاقيهم يعبدوا الإله الحاكم، ظلّ الله على الأرض، وأول ما يموت ييجي اللي بعده يمسح اسم اللي قبله من على حيطان المعابد ويمحي انجازاته وينسبها لنفسه هوه! الحل دايما بيكون عند الكبير، ده حتى في القرآن يا مؤمن ربنا بيبعت كلّ رسول لأهل بلده إلا في مصر، ربنا قال لموسى وهارون «اذهبا إلى فرعون».

المُمتع في الموضوع إن الناس هيه اللي بتعمل كده في حُكّامها، بتقوّي عند الواحد منهم إحساسه بعظمته حتى لو كان ضعيف أو ميستحقش، وبتفرح وتهلل لما يمحي خطوات كلّ اللي سبقه، ده بيحسسهم إن اللي موجود أقوى وأفضل، يستحق يتعبد ويتمجّد، أما اللي سبقه فيستحق النسيان!!! حتى لو الحاكم كان محتلّ أو أجنبي، برضه الناس بتعمل معاه كده وأكتر؛ مماليك وعثمانيين، فرانسويين وإنجليز، ملوك ورؤساء، كله عندهم شغال، طالما العباية مفرودة! إحنا بقى دورنا نحافظ على الصورة دي، نحمي النظام ونحفظ توازنه، نعالج عيوبه ونداريها بسرعة، نثبت أركانه ونقوّيها،

وكمان نحافظ على العباية تغطي كل واحد في البلد، يطمن ويعيش في أمان. أهم ما في الموضوع إنه ميشوفش إيه اللي بره العباية.

فطن الأسيوطي مِن الوهلة الأولى أنّ الطرق الفضفاضة لن تجدي نفعًا مع ملك اللعب بالكلمات، وأنّ ما يملكه مِن نقاطٍ للضغط على حازم قد توفّر عليه سيلاً مِن الجُمَل لا طائل منه، طالما الهدف واحدٌ في النهاية. حاول السعدني استعادة دفّة الحوار مرةً أخرى:

- البلد فيها قانون يا وليد باشا، والزمن غير الزمن. يمكن اللي بتقوله صح بدرجة كبيرة، بس الشعب مش كله زي ما بتقول كده، والعالم كمان بقى بيبص علينا، حتى اللي تحت العباية بقوا يعرفوا كتير جدًا عن اللي برّه من غير حتى ما يحاولوا يشيلوا العباية عنهم.

شعر حازم بعدم الاقتناع شخصيًا لما تفوّه به، عن أيِّ قانون يتحدث أمام رجلٍ يتهاوى أمامه كلُّ شيء، لذا حاول التطرُّق جانبًا قائلاً:

- وبعدين أنا شخصية عامة، وحضرتك بتتفاوض معايا في حاجة أنا لسه معرفش إيه طبيعتها، بس يبدو إنها حاجة مش مظبوطة وإلا كنت طلبتها مني من غير تهديد. طريقة كلامك معايا يا وليد بيه بصراحة حادّة جدًا وغير مقبولة. دانا ضيف عند معاليك، ولا أنت شايف حاجة تانية؟

كعادته دومًا، يلقي حازم بما يودُّ إيصاله مهما بدت حدّته، إلّا أنه يختمه بما يُزيل أيَّ آثارٍ سيئةٍ قد تنتج عن حدّة كلماته. بهدوءٍ مبالَغٍ في أمره، ابتسم

الأسيوطي مجيبًا:

- تشرفني ضيافتك يا دكتور طبعًا، بس حابب أوضح لمعاليك إن زي ما في البلد قانون، البلد كمان فيها طوارئ، والشخصيات العامة اللي زي حضرتك ليها برضه أسلوب عام للتعامل معاها، مش بنلجأ ليه غير لما نغضب عليها، لما بتفكر تخرج عن الخط اللي احنا رسمناه، أو ترفض تتعاون معانا.

مجدّدًا يهزُّ السعدني رأسه بعدم فهم:

- خطّ إيه اللي مرسوم؟ أنا فعلاً مش فاهم حاجة، يا ريت تقول كلّ اللي عندك لإني بجد بدأت أقلق.

- لا متقلقش خالص يا دوك، هنا مفيش حد بيقلق إلا لو أنا قررت إنه يقلق. إنت بس فاتك كتير من نظام بلدك ماشية عليه علشان اتربيت واتعلمت بره. خليني أقولك على سر صغير، بس فيه الخلاصة؛ نظام البلد كله إحنا اللي بنخطط مساراته، وبنحط السيناريو، وبنشرف على الإخراج كمان، وساعات إحنا اللي بنجيب المشاهدين اللي بيهللوا للمشهد، واللي كمان مش بيعجبهم ويعارضوه! دا إحنا كمان ساعات بنعمل المشكلة بدل ما نستنى تحصل لوحدها، علشان نجرّب عليها أفضل الحلول! باختصار يا دوك، إحنا كلّ دُول.

قال جملته الأخيرة مشيرًا بيده تجاه نافذة المكتب المُطلّة على الشارع الرئيسي المزدحم دومًا بصخب الحياة، أكمل قائلاً:

- ساعات بقى، قلة قليلة بتحاول تخرج عن الإطار ده، يا إمّا بتتصرف من دماغها، أو بترفض تكمل دورها. إحنا بقى نتدخل علشان نظبط الأمور تاني ونحمي الدولة، حاجة كدة زي التوازن البيئي اللي بيحصل في الطبيعة.

بنفاذ صبرٍ يتململ السعدني قائلاً:

- كلّ ده جميل وممتاز ورائع. كان الله في عونكم إنتوا بتتعبوا فعلاً في حفظ الأمن وحماية محسن قصدي حماية الدولة، أنا كده تهت منك يا وليد باشا. إيه بقى دوري في كل ده؟

بنفاذ صبرٍ يبتلع الأسيوطي السخرية الفجّة في كلمات حازم قائلاً:

- دورك إنك هتدور معانا في وسط المنظومة، هتكمل حفظ التوازن اللي إحنا مخططين ليه؛ هتستخدم شعبيتك الكبيرة دي يا منقذ في إنك تزود شعبية الوريث، من خلال جيش الشباب والبنات اللي بيحبوك هنقدر نزود القاعدة الشبابية للريس اللي جاي. ده ببساطة اللي خلانا نسيبك كل الفترة اللي فاتت تكبر وتتشهر وتبقى رقم واحد، إزاي بقى هتعمل ده؟ إحنا هنقولك في الوقت المناسب.

بدهشةٍ بالغةٍ ينهض حازم مواجهًا وليد بكلّ غضب:

- ده بفرض إني وافقت خلاص! إزاي يعني يا وليد بيه عايزني بعد كل اللي عملته في اسمي وسمعتي أضحي بيها في تلميع الوريث بتاعكم؟ وأنا أصلاً ماليش لا في السياسة ولا في العباية ولا في لعبتكم دي من الأساس!

مستحيل ده يحصل!

يسحب الأسيوطي ورقةً من الملف الموضوع أمامه قائلاً بكلّ برود:

- ولا مستحيل ولا حاجة يادوك. ما هو اسمك اللي بتبني فيه ده ممكن يتدمر في ثواني، وسمعتك اللي بتتباهى بيها تتشوه في لحظة، ساعتها بقى إيه اللي هيفيدك من نشفان دماغك! اهدى كده واعقل واعرف بتتعامل مع مين. أنا هعتبر كل اللي انت قلته ده مجرد انفعالات وليدة اللحظة، ولا كأنها حصلت، ومش هتخذ أيّ إجراء. هسيبك تفكر يومين تلاته كده، وبعدها تكلمني علشان تقوللي إنك جاهز، مفيش اختيار تاني.

حاول السعدني أنْ يردَّ، أوقفه الأسيوطي بإشارةٍ من يده قائلاً بكلّ حزم:

- المقابلة انتهت يادكتور، ده الكارت بتاعي كلمني خلال التلات أيام دول، وبلاش تستنى بعدهم لإني هبدأ اتحرك من اليوم الرابع. فكّرْ كويس واعرف مصلحتك فين، وعلشان أنا بحبك وقلبي عليك هقولك كدا على كذا حاجة هتساعدك تفكر بإيجابية وتحسم قرارك وتحطّه في الفعل زي ما انتوا بتقولوا في محاضراتكم؛ هوه انت ليه مخبي على الناس جنسيتك الفلسطينية وقصّة لجوءك لإيطاليا من ١٥ سنة فاتت؟؟ ولا أنت فاكر إنّ الكلب بتاع السفارة اللي زورلك الورق المصري هيفضل مخبي الحقيقة!!! الرجالة بتوعنا بيقولوا ده مخدش في إيديهم نص ساعة وكان حاكيلهم على كل حاجة، بيقولوا كمان كان عايز يعمل معاهم واجب وديهم نص الفلوس

اللي إنت اديتهاله!! أنا بقى يا مُلهم يا عظيم مش عايز أعرف إنت مين ولا جاي مصر تهبب إيه، ولا يهمني أساسًا في حاجة. الناس بقى اللي إنت فرحان بشعبيتك بينهم هما اللي هيحبوا أوي يعرفوا البلاوي دي، ضيف على كده التاتش الإعلامي بتاعنا لما نتكلم فيه عن التخابر والتآمر وكل التحابيش دي، ساعتها بقى هتسلّى بمعجبينك اللي بتتنطط بيهم دول وهما بينهشوك حته حته... يامُنقذ!

سقط السعدني منهارًا على المقعد الذي ما عاد كافيًا لِبَثّ الثقة في أوصاله المتجمّدة، سقطت ورقة التوت، فبدا له ما ظنّ ألّن يراه أحدٌ. من فوقه سقط جدارٌ حاول إخفاء معالمه سنواتٍ عدة، بذل فيها كلّ شيء، وعمل خلالها الكثير والكثير، فقط لتبقى الحقيقة تحت الأنقاض... هناك، في عشة ربيعة!

١٨

لولا أنها لا تؤمن بنظريات المؤامرة لأيقنت منال أنّ هذا السعدني يُعِدُّ العدّة لأمرٍ ما!!!

شهورٌ عدّةٌ قضتها غير مبالية بتصاعُد حدّة الأحداث على الساحة السياسية حدَّ الغليان؛ فكلمات مبارك الساخرة أشعلت نارًا في صفوف المعارضة لا يعلم سوى الله مداها، يشيد بنزاهة العملية الانتخابية ومصداقية جميع مراحلها في أولى جلسات مجلس الشعب ٢٠١٠، يعلّق بتهكُّم لاذعٍ على قيام المعارضة بتشكيل برلمانٍ موازٍ: «خليهم يتسلوا!!»

لم يَعُدْ يكفيه أنْ تشهد مصر أسوأ عملية تزوير لإرادة أمة في تاريخ الدولة المعاصر، وأكثرها فجاجةً وطغيانًا على الإطلاق! بل يصرُّ بكلّ صلفٍ على إثارة سخطٍ عامٍّ ممزوجٍ بمرارة القهر داخل أوساط المعارضة والشباب.

تساءلت في قرارة نفسها، إلا يعلم أنه يظلّ ممسكًا بمقاليد الأمور والحكم،

وبسط سلطاته على الشعب، طالما لم يسلبهم سلطتهم على ما يملكون؟! ناهيك عن سلبهم آخر ما يقبضون عليه؛ أصواتهم، إرادتهم، اختيارهم الحر لمن ينوب عنهم ولو رمزيًا! إذا ما فقد الفرد كلّ شيء، لحظتها فقط تستحيل السيطرة عليه.

كتبت مقالاً ناريًا تستشهد فيه بواقعة حدثت لأحد المرشحين؛ لواء متقاعد في الجيش، يكاد يجنُّ منذ أنْ علم بنتيجة الفرز. الرجل متزوجٌ ولديه ثلاثة أبناء، أقاربه وجيرانه جميعهم ذهبوا يوم التصويت، وقفوا أمام الصندوق، وضعوا أوراق ترشيحهم له أمام عينيْه وعيون مراقبيه داخل اللجنة! هل خانته زوجته وأولاده وجيرانه وأقاربه جميعًا؟ هل عقدوا العزم جميعًا على منح أصواتهم للمنافس الذي لا يعرفونه من الأساس؟! فلا يحصل هو إلا على صوته فقط؟! هل بلغت الوقاحة والبجاحة حَدًا في التزوير لا يراعى فيه أيُّ منطقٍ في تسويد النتيجة لصالح مرشح الحزب الحاكم! يعطونه صوتًا واحدًا وباقي أصوات اللجنة جميعها تذهب لمرشّحهم!

حذرت منال في مقالها من القادم بقوة بعد أنْ أحكم الأمن قبضته على البلد تمامًا، كما حلّق عز رجل الأعمال الحديدي، بالمشهد السياسي بعيدًا راكلاً بحذائه الإيطالي اللامع مؤخرة أيّ صوتٍ معارض!

حين تُحكم غلق الوعاء عند الغليان، تسدُّ كافّة المنافذ، أدقّها وأقواها، فلا تنسَ أنْ تُحني رأسك جانبًا أو تهرب سريعًا، فالانفجار وشيكٌ، والبخار المتراكم، مهما زاد وطء الكبت وسطوة القمع، مصيره للخروج لا محالة.

رغم هذا الكمّ من لهيب الأحداث، لم تخرج منال عن انغماسها في حياة السعدني محاولة الإجابة عن العديد من الأسئلة التي تزاحم رأسها بشأنه، تسعى جاهدةً لفكّ طلاسم لغزٍ بات يؤرِّقها كثيرًا؛ كيف لشابٍّ مثله لديه حياةٌ هانئةٌ مثاليةٌ زاخرةٌ بنجاحاتٍ عدة في عالم البيزنس والتجارة بأوروبا، أنْ يترك كلّ هذا وراءه ليعود مهرولاً إلى مصر؟ يصبُّ الهراء على آذان مستمعيه داخل قاعات التدريب المكيفة، ويبدِّد أمواله في إيواء أطفال الشوارع والعشوائيات!

لوهلة قد يرتاح العقل للتفسير الأسهل، ترى فيه شابًا مليئًا بالطموح وحبّ الخير، يسعى لنشر رسالته الأسمى لرفع الوعي وتنمية شعبٍ انتهت صلاحيته منذ سنين، كما يحنو على أطفالٍ شاء قدرهم مقارعة الحياة بكلّ مراراتها وقسوة أيامها، يركن عفويًا لذاك الفهم السطحي المريح، إلّا إذا تعلّق الأمر بعقل منال المنطقيّ صاحب التفسيرات العجيبة.

لم يَجِدْ عقلها الأمر مستساغًا؛ فالملائكة لم يعودوا يسكنون حولنا، ضجّوا بنا وفقدوا الأمل في صلاحنا، والسعدني ليس ملاكًا جناحاه بيضاء يرفرف بهما كيف يشاء فوق أسطح البسطاء ينصت لأنّاتهم، ويحنو على وجعهم المكتوم، مكانته وعقله العمليّ لن يتركاه يخطو خطوةً واحدةً دونما حسابات الفعل وَرَدّ الفعل؛ المكسب والخسارة، قوة التأثير والنواتج.

هكذا تجزم منال بدقّة تحليلها من عشرات الساعات المرئية وآلاف الكلمات قرأتها وسمعتها منه وعنه، في دراستها لشخصه وحياته؛ لا يخطو الخطوة

دونما التخطيط لها مليًّا، دراسة الاحتمالات والعبث بعشرات السيناريوهات. حتمًا يخطِّط لأمرٍ ما؟ لا تراه ملاكًا، وإنْ كانت تشكُّ في ما هو أشدُّ قوةً وتأثيرًا مِن الملاك، ترى السعدني أقرب لنبيٍّ يسعى لحشد أتباعٍ، يؤسِّس لمنهجٍ ما، كما ينشد الوصول لمحطةٍ لم تهتدِ لها حتى الآن!

أمورٌ عدةٌ ينبغي لها أنْ تجد لها أدلةً لما يضرب عقلها من شكوك؛ دار رعاية الأطفال، هايدي الزيات، وشريف زكي، فهناك تكمن جميع الإجابات.

القانون رقم (٧)

استغلْ حاجة الناس إلى الإيمان لخلق أتباعٍ طقوسيين

في الناس رغبةٌ جامحةٌ للإيمان بشيءٍ ما، فاجعلْ نفسك النقطة المركزية لهذه الرغبة بإعطائهم قضيةً جديدةً يتبعونها.

أبقِ كلماتك غامضةً، ولكنْ ملأى بالوعود. شدِّدْ على الحماس أكثر مِن العقلانية، وأعطِ أتباعك الجدد طقوسًا يؤدّونها، واطلب منهم تقديم تضحياتٍ بالنيابة عنك.

في غياب الدين المُنظَّم الصحيح والقضايا الكبرى، فإنّ نظامك الإيمانيّ الجديد سيأتيك بسلطةٍ لم يسمع بها أحدٌ مِن قبل.

١٩

مِن رحم المعاناة تتفجّر ينابيع الإبداع، تحت وطأة الألم تغدو الحاجة للتغيير ضرورةً ملحةً، ومع تشابُك الطرق ووعورة الأفكار وازدياد التيه، يُعَدُّ المسرح مهيئًا لاستقبال المخلِّص.

هكذا آمن السعدني بقلبه، فطن لرموز رسالته حين جمع أحاجيها من ثنايا حياةٍ حفلت بالكثير، تلقّى خلالها صنوفًا مِن الألم فاقت في العديد منها عتبات حواسّه القصوى، ذاك الحدّ الفاصل بين الممكن والمحال.

حين تحرّك الجبل ليُطبق على الجميع أسفله، لفظ السعدني مِن أحشائه ليقذف به صوب قدره، مُلزِمًا إياه بحمل رسالةٍ وجب نشرها مهما كلّفه الأمر من تضحياتٍ! إيمانه المطلق بصدق حدسه، وأنّ مَن أرسله لن يغفل عنه طالما يمضي نحو الهدف، يلتقط الإشارات ويمزج المواقف ليخرج بأنسب الحلول.

محطاتٌ عدّةٌ يراها السعدني، ومضاتٌ تتقاذفه يمنةً ويسرةً يرى نفسه فيها وقد ارتقى، سابحًا في سماءٍ لانهائية، ينصهر وينصبُّ عشرات المرات ليغدو لامعًا براقًا غير قابلٍ للخدش أو الانثناء، قادرًا على التأثير دومًا.

والداه كانا محطته الأولى، اختبار تحديد مستوًى يثبت به أحقيته وجدارته لحمل ما هو قادمٌ، إمّا أنْ يمرّ منه بثقةٍ وثباتٍ، أو ينتهي به المطاف بين أكوام القمامة بعشة ربيعة، نفايةٌ لا وزن لها تُزاحم غيرها من الملايين، يمضون جميعًا صوب احتراقٍ ذاتيٍّ ينتج غاز الميثان في نهاية المطاف!

لذا لم يتوانَ عن شيِّهما حيَّيْن، سلخهما حتى لو أنّ هذا فقط ما يعوقه عن الوصول لهدفه، فبعض الأمور لا يصحُّ التهاون بشأنها، السحق التامّ هو ما يلزمه للانبعاث من جديد. ولأنّه أتمّها بنجاحٍ، كافأه القدر على ما قام به، عامان من الراحة والهدوء احتوته داخل الملجأ، عبرت به قتامة سنين ربيعة الكئيبة كريهة الرائحة. مرحلةٌ انتقاليةٌ زجّت به رويدًا رويدًا لجنبات أكثر رحابةٍ، أخذت تُعدُّه بكلّ سلاسةٍ لمحطته الأكثر قوةً، كالرياضيّ حين يقوم بالإحماء قبل ولوجه خضمّ البطولة، أو لعله الجندي قبل خوضه غمار أعتى معاركه! ولأنه ليس جنديًا عاديًا، وجب عليه أنْ يتصدّر المشهد، يتقدّم إلى الصفوف الأولى ليرتقي ويشتد، صار لزامًا عليه مَحْوَ ماضيه بالكامل، إحراقه وبعثرة محتواه كما فعل مع والديه.

وعلى سواحل إيطاليا تحنو عليه يد القدر ثانيةً، ينتقل من مدرسة إلى أخرى ومن كليةٍ إلى أكاديميةٍ، ومن مشروعٍ إلى آخر، تمامًا كالسحر! تفتح

له دولة الخواجات ذراعيْها طالما وطأت قدمه أراضيها المباركة، أرض الرب، ولم يتخطَّ سنّ البلوغ بعد، هكذا هي القوانين!

تتخذه الدولة أحد مواطنيها، تسبغ عليه وافر مزاياها من تراخيصَ وأوراقِ للهوية والإقامة، كذلك فرصة عملٍ مع حياةٍ آمنةٍ مستقرةٍ، أمّا الأدهى من ذلك كلّه فيكمن في مقدار التحضُّر والرقيّ الذي لم يَدُرْ بخلده أنْ يراه واقعًا وحقيقةً فاقت كلّ أحلامه!!!

شعر فرج بدماء الحياة تتدفق لتملأ خلاياه، حياةٌ حقيقيةٌ تزيده بريقًا، تشرق بجنبات روحه لتبدِّد رواسبَ علقت به سنين طويلةً يوم أنْ كان يزحف بين شقوق جدران ربيعة يتجرّع عفنها ليتجشأ قذارةً. تطهّر فرج من أسماله البالية، صار قلبه أكثر حيويةً، مُعَدًّا بكلّ احترافٍ لتحقيق ما يتمنى ويريد.

عشرُ سنواتٍ كاملةٌ قضاها فرج بإيطاليا، يتماوج بين جنبات العلم والمعرفة، ينهل منها بشغفٍ مذهلٍ يكاد يلامس حدّ الإعجاز، يُقبل على كلّ ما يتوسّم فيه من علومٍ ومعارفَ قد تعينه على الوصول لهدفه، يمتصّ كلّ ما تطاله يداه؛ علم النفس والتنمية البشرية وجهان مكمّلان لبعضهما بعضًا، أحدهما ضروريٌّ للولوج لمختلف البشر، والآخر أساسٌ تقوم عليه الفكرة ذاتها، لذا فقد انكبّ فرج عليهما جاعلاً منهما ركيزتاه لعقول وقلوب الناس.

أمّا البيزنس والاقتصاد، فقد اقتحم عالمهما بثباتٍ وثقةٍ، مدعومًا بضمانات

الدولة وتمكُّنه مِن صناعة الأثاث المنزليّ الفاخر، فانتشرت فروع معارضه للأثاث الراقي لتملأ جنبات إيطاليا، تجد لها مكانًا في أكبر مدنها وأكثرها شهرةً على الإطلاق، روما وميلانو ونابولي، تزداد معها دولاراته لتأخذ به خطواتٍ أكثر دقةً نحو الهدف، ولأنه لا يترك شيئًا إلا وقد أعدّ له طريقة التنفيذ، هكذا وضع خطّته للعودة إلى مصر مرةً أخرى، منها يبدأ الانطلاق، وفيها يتحقق له الانتقام! ولأنّ المال وحده يحني الجباه ويلوي الأعناق ويسيل اللعاب، يفتح كافة الأبواب، فقط حين يستحوذ على النفس هاجس الحياة السعيدة والغد الآمن المشرق.

عشرات الآلاف من الـدولارات وضعها في حساب أحد موظفي السفارة المصرية بعد أن اتفق معه على كافة التفاصيل؛ فالأمر برمّته لن يخرج عن سيناريو البحث عن مهاجرٍ مصريٍّ ترك البلد فترة الستينات، بلا أهل أو ميراثٍ فلا يعلم أحدٌ عنه شيئًا، توفي حديثًا بلا أولاد، فلا يتبقى أمام موظف السفارة سوى العبث ببعض الأوراق لينسب إليه ابنًا ما دون أنْ يتقصّ أحدٌ في الأمر أو يكشفه!

عز الدين أبو بكر السعدني، واحدٌ مِن أقدم وأبسط المهاجرين إلى إيطاليا أوائل الستينات، لا أحد يعلم عنه الكثير كما أنه لم يُثِرْ المشاكل يومًا، توفي منذ أشهرٍ قليلةٍ وانتهى أمره تمامًا، أضاف له فرج اسمًا يراه عنوانًا يتناسب بقوةٍ مع المرحلة الجديدة: حازم!

الخلاص دومًا يستلزم حزمًا من نوعٍ ما، في كلّ مرةٍ تسعى لإنهاء الأمر، فلتنْهه

بقوة، هكذا كان، هكذا سيظل. عبقرية حازم تكمن في قدرته على النفاذ عبر مسام النفس البشرية لمن يحيط به خلال مراحل حياته المختلفة؛ يجيد الأمر ببراعة منقطعة النظير لا تضاهيها سوى قدرته الفطرية المذهلة على التكيُّف مع أيِّ ظرفٍ وفي أيِّ مكانٍ!

حتى وإنْ أطبق عليه الأسيوطي، يحاول جاهدًا الإجهاز على صَرْحِه الذي بات يدشّن فيه ما يقارب الـ ١٥ عامًا، يوقن تمامًا أنّ القدَر لن يطوي مظلّته عنه هذه المرة أيضًا، فالقدر يحنو عليه دائمًا طالما هو ماضٍ في رسالته، يتلمّس حثيثًا بكلِّ ثبات خطواته نحو هدفه، لذا لن يدعَ القدر هذا الأسيوطي ينال منه بتلك البساطة، لن يدعه ينال منه مِن الأساس.

خمس سنواتٍ مرّتْ عليه منذ وطئت قدماه أرض مصر، طاف خلالها الدولة مئات المرات شرقًا وغربًا، يلتقي الآلاف، يعتلي قامات أعتى القاعات والمنصّات، يبذل جهدًا خرافيًا في الشرح والتوضيح والإقناع والتأثير، يستنزف كامل طاقاته، فقط ليصطفي مَن يستشرف فيه نواة الفريق الخاصّ به؛ فريق الخلاص.

يعزلهم رويدًا رويدًا عن أيّة حياةٍ خَبِروها مسبقًا، بكلِّ دقةٍ واحترافٍ يمحو خبراتهم السابقة وأحلامهم وآراءهم، يلقي بداخلهم ما يحقِّق له ولهم أهدافه القادمة، يَعِدُهم بما تبرق له آذانهم وتذهل له عيونهم. يخطُّ في تلافيف عقولهم الفارغة توًا كلَّ ما يراه صوابًا، فلسفةٌ صاغ قوامها من تجلياتٍ عدةٍ، ومنهاجٌ أقام أعمدته من تجاربَ انغمس فيها عشرات المرات.

مجرد بذرةٍ يغرسها جيدًا بقوةٍ وعمقٍ، مجرد فكرةٍ يسطرها في عقولٍ تلهث عطشى بحثًا عن هويةٍ ما، يوقن أنها يومًا ستؤتي ثمارها، بعد شهورٍ أو ربما مئات الأعوام، لا يعنيه سوى أنْ يطمئن لسلامة البذور ولا يعنيه متى الحصاد. لن تتأخر العناية الإلهية، هكذا طمأن السعدني نفسه حين خرج من مكتب الأسيوطي يحاول جمع شتات ثباته، ذاك الذي بعثره وليد على أعتاب مكتبه، وداخل ردهات الكيان المروِّع (أمن الدولة).

قرَّر الانفراد بذاته سريعًا لتحليل الأمر والوصول للحلّ، جملةٌ واحدةٌ ألقاها على مسامع شريف ذراعه الأيمن، حين هاتفه آمرًا أنْ يلغي كافَّة مواعيده ودوراته القادمة، ثلاثةُ أيام فقط ليواصل بعدها العمل ثانيةً، ثلاثةُ أيامٍ هي ذلك الحيز الضيق الذي أطبق به الأسيوطي عليه حين منحها له للتفكير.

أغلق بعدها السعدني هاتفه تمامًا، وانزوى تاركًا شريف يلجُ دهاليز حيرة تلتهم روحه منذ فترة، لم يَعُدْ يحتمل وخزات ضميره ووقع الكلمات الصادمة من صديقه منير، يُبَدِّد بها أرجاء سكون روحه، وينشر رذاذ الحيرة في كافة الزوايا، كما يجاهد شريف مؤخرًا للهرب مِن فخِّ تلك الصحفيّة العنيدة منال مندور، تطارده بشتى الطرق للإيقاع به صوب ما يُدين السعدني في أمورٍ يخشى شريف حتى مجرَّد التفكير في الخوض فيها!

على أطراف الساحل الشماليّ يعود السعدني وحيدًا كما هو دائمًا، يهرب من الكون لذاته تحوطه أركان شاليهه الخاصّ يمتدُّ شاطئه أمتارًا عدةً داخل

البحر، مُنصتًا لقرع أفكاره خلايا مخه المجهدة، مستسلمًا لحالة من الصفاء الروحيّ يتلمّس منها نفحاتٍ قد يمنُّ بها القدر عليه تدفعه ليكمل ما بدأه الجبل منذ ما يقارب الثمانية عشر عامًا حين فاجأه الزلزال.

المعجزة تحدث مرةً واحدةً فقط في حياتك، فإمّا أنْ تستلهم منها المغزى ولمزجها بما تملك من قدرات وتضع لمساتك الفريدة عليه، لتصير امتدادًا دائمًا وأبديًا لها، تملك خواصَّ ليس لبشريٍّ قبلك أنْ خَبِرَها، تلامس بها حدَّ الكمال، أو أنْ تتطلّع لها بانبهارٍ وقت الحدوث، غارقًا في دوامات الدهشة فاغرًا فمك بذهولٍ، ويرفض عقلك التصديق فلا تفيق إلا وقد انسابت من بين يديك دونما رجعة.

ومع انسلال الوقت رويدًا رويدًا صَوْبَ نهاية المهلة المتفق عليها، تتقلّص الخيارات المتاحة لدى السعدني للخروج من تلك الأزمة الكارثية المحاصر بين دفتيها، تدور به داخل دوامات الحيرة الآخذة في الاتساع حارمةً إياه رفاهية الرسو على شواطئ الأمان. الأزمة نقطةُ تحوُّلٍ في الأحداث، تندفع بعدها الأمور صوب الأسوأ أو الأفضل!

ذاك أمرٌ منطقيٌّ ومقبولٌ، يراه السعدني من قوانين الحياة الأبدية لا فكاك منه، أمّا المستحيل بعينه فهو أنْ تعود الأمور كما كانت عليه تمامًا عقب انتهاء الأزمة، لذا يسعى جاهدًا للمرور من هذا الموقف بأدنى درجات الخسارة. ساعاتٌ قليلةٌ تفصله عن الوقت المحدَّد، كلّما دار العقرب دورته الكاملة تتآكل فرص الخروج الآمن، كما تقترب به أكثر صوب الكارثة.

ثلاثُ خياراتٍ فقط لم يعدْ أمامه سوى المفاضلة بينها؛ أحلاهم له مِن العواقب ما قد يعصف بمجده الشخصيّ في لحظة تهورٍ؛ أولى خياراته أنْ يلملم أوراقه سريعًا، يفرُّ صوْب مكانه الحقيقيّ، يحطُّ رحاله على شواطئ إيطاليا مرةً أخرى راكلاً بقدمه كلّ ما يمتُّ له في مصر بأيّ صلة تاركًا لهم الجَمَل بما حمل، إلّا أنه يخشى ردّة فعل الأسيوطي، اتهامات العمالة والتخابُر قد تؤثّر عليه حتى وإنْ طال به المقام في أوروبا، كما أنّ فضيحة تزوير أوراقه المصرية لن تمرَّ على السلطات الإيطالية مرور الكرام، لذا عَدَلَ عن الخيار الأول مُجبرًا.

فكّر أنْ يقتل الأسيوطي!!! لديه مِن الشباب في فريقه مَن هو مستعدٌ للتضحية بحياته مرات عدة لقاء إشارةٍ من يد السعدني، هكذا يعدُّهم لحمل رسالته، يصل بهم لأعتى درجات الولاء والطاعة، يغرس داخلهم قيمًا ومبادئَ تُعيد تشكيل ذواتهم مرةً أخرى، يغيِّر المنظور لصبغ الصورة بما يريد منهم أنْ يروه، يصوغ لهم أهدافًا لا يرون في الكون كلّه سوى رغبتهم في الوصول إليها، فقط!

إلّا أنّ هاجس القتل هذا لم يستقرّ بعقله كثيرًا، فطن سريعًا لاستحالة تحقيقه لأسبابٍ عدةٍ أهمُّها أنّ الأسيوطي ليس مجرد ضابط أمنٍ، بل هو الرجل الأهمّ والأقوى للمرحلة، حراسته وتأمينه لم يسبق لها مثيلٌ، كما أنّ خطة اغتياله تحتاج لرفاهيةٍ مِن الوقت بات السعدني لا يملكها في الوقت الحالي. حتى وإنْ فعلها! مَن يُدريه أنه بذلك قد أغلق الباب؟ من

المنطقيّ لملفٍّ بهذه الأهمية والخطورة أنْ يعمل عليه أكثر مِن ضابطٍ، ليس الأسيوطي إلا أول الصف خلفه كثيرون وراء الستار، قتلُه لن يفضي لأيّ إنجازٍ.

استكان عقله للحلّ الأخير، لا مناص من الانصياع لشروط الأسيوطي، والنزول عند رغبته في التعاون لخلق تلك الشعبية الشبابية الواهية للرئيس القادم، فقط لكسب الوقت ومحاولة للتكيف مع تطور الأحداث، خلق أرضيةٍ مشتركة للتفاوض بشأنها على خطواته القادمة، ربما يخبّئ له القدر بثنايا هذا الحلّ ما ينتشله من براثن الأسيوطي، فقط لو أنّه أحسن الاختيار.

ما إنْ استقرّت به أمواج أفكاره الهادرة صوب ذلك الحلّ حتى هدأ قليلاً، أسبل جفنيه ملقيًا برأسه للخلف بين راحتيْ يديه المتشابكتين، يمدُّ قدميه على اتساعهما أعلى مكتبه وقد اعتلت إحداهما الأخرى تهتزُّ بإيقاعٍ رتيبٍ.

بهدوءٍ يعود المنحنى إلى سابق عهده، تكفُّ ذبذباته عن القفز المفاجئ، تستكين خلايا مخه الرمادية، تهدأ أنفاسه كما تنتظم ضربات قلبه، تسبح روحه صوب توازنٍ خاصٍّ فقد أثره طوال الأيام الثلاث الماضية، تفرغ أطنانًا من الإجهاد الذهنيّ والعصبيّ، تمتدُّ يده ليمسك هاتفه واضعًا نهايةً لكل هذا دون إبطاءٍ.

تومض شاشة هاتفه بتتابعٍ مدروسٍ في انتظار الطرف المقابل، مرةً وأخرى وثالثةً دون جدوى. أنهى اتصاله دون أنْ يسمح للقلق بالتسلُّل إليه والنيل

منه مرةً أخرى مستبدلاً إياه برسالةٍ قصيرة، خطَّ بها كلماتٍ مقتضبةً وحاسمةً:

«وليد باشا أنا على أتمّ الاستعداد للتعاون، وفي انتظار التعليمات.»

ضغط زرَّ الإرسال وتنهّد طويلاً حين تمّ التسليم.

٢٠

مدينة ساحلية -٢٠١١

حين حاصر أهل البلدة الغاضبون جدّه الأكبر منذ ما يقارب قرنًا ونصفًا مِن الزمان، لحقوا به مختبئًا خلف أحد أجران القمح البعيدة بعد أنْ هرب حرّاسه وخفراؤه، أحكموا حصارهم له طويلاً، أثاروا فيه الفزع والخوف، صرخ وارتجف مرارًا.

بلَّل ملابسه حين انقضّوا عليه يسحلونه، مربوطًا من قدميه ملقًى على وجهه، مطروحًا بلعنات مَن فقدوا فلذات أكبادهم خيرة شباب البلدة الذين انتزعتهم الأيدي الغاشمة عنوةً مِن أحضان عائلاتهم، لم يجدوا وقتًا حتى للوادع، لم يجدوا أيّ متسع للبوح بما في صدورهم تجاه الأمّ أو الزوجة، دفء قُبلَة أبنائهم لم تخفّف عنهم حَرَّ الطريق وألم الفراق ولدغات حشرات الصحراء.

تكوّمت أجسادهم في خيامٍ مهترئةٍ أُعدّت لهم، لمْ تُدارِ أكثر ممّا تُظهِر، لم تمنع عنهم قيظ شمس أغسطس، ولا لسعات شتاء يناير القاتلة، وبين هذا وذاك يدورون في فلك السُّخرة يحفرون قناةً قيل لهم إنّها سوف تعبر بالبلد لعالمٍ آخر موجود فقط في الأساطير، فلم تُفِقْ حواسُّهم إلّا على وباءٍ سرى بينهم كالهشيم يُسقِط منهم المئات بلا أدنى رادع!!!

حصدهم بقدرته المذهلة على الفتك وسط هذا الكمّ من الأجساد السمراء البالية، يرسلهم سريعًا لأهاليهم جثثًا هامدةً كانت يومًا سيد ومحمود وحسانين وأبو مصيلحي!!! غرقت البلدة في حزنٍ دفينٍ يأكل القلوب، ويذيب سلامة العقول ولا يترك مُتّسعًا سوى لأمرٍ واحدٍ لن يحيدوا عنه مطلقًا. بسرادق العزاء الجماعيّ أقسم الأهالي على الثأر من جدِّه عمدة البلدة وكبيرها، يد السلطة التي تستحق بترها لتهدأ نارٌ تضطرم في النفوس ولا يهمّ بعدها أيُّ شيءٍ آخر.

وحده مَن زجّ بأولادهم بذاك الأتون لكسب ودِّ الباب العالي؛ الارتقاء درجةً نحو الباكوية على أجساد شباب قريته. خرجوا عليه على حين غرة، باغتوه حين ظنّ أنهم هلكوا مع أولادهم، حين ظنّ أنّ نفوسهم قد كُسرت يوم أنْ مدّوا أياديهم يتلقّون العزاء صفوفًا طويلة، فلمّا انْفَضّ السرادق لم يَعُدْ شيءٌ كسابق عهده أبدًا. في وسط القرية على طريقة القدماء أحرقوه حيًا، حين تراقصت على وجوههم ألسنة اللهب تطفئ نار صدورهم.

حكتْ له جدته الكبرى كيف كان والدها؛ جدّه الأكبر، يتلوّى كثعبانٍ هائل

الحجم مربوطًا بنخلةٍ عتيقةٍ لم تزل شاهدةً على الكارثة، يُطلق صرخاته الملتاعة تشقّ عنان السماء، لن تنسى وقع صداها يصمُّ أذنيْها كلّ ليلة، تتسلل رائحة اللحم المشوي لتزكم أنفها مراتٍ عدة، أمهلهم أهل البلدة يوميْن فقط، بعدها يغربون عنهم للأبد وإلّا لن يلوموا سوى أنفسهم.

تركوا أسيوط جميعهم ليرتموا في أحضان الأسرة الحاكمة في القاهرة، يُغدق عليهم الخديوي بالمنح والعطايا تعويضًا لهم عمّا حلّ بخادمه المطيع العمدة جابر الأسيوطي، جرّاء ولائه التامّ وخدماته الجليلة له وللحاشية!

دمعت عينا وليد الأسيوطي عندما طافت خواطره بتلك النقطة الحاسمة في طفولته؛ حين مزجتها جدته بخلايا روحه وجسده، ترتحل مع دمائه لتصبَّ حقدًا دفينًا داخل قلبه. يمقتهم دومًا، ويخشاهم حدَّ الموت، هكذا ظلّ يتأرجح خلال علاقته مع العامّة أو الرعاع كما يحلو له نعتهم. ظلّت تلك العلاقة الشائكة محورًا لحياته، دليلاً لكلّ اختياراته بدءًا من قراره بدخول كلية الشرطة، ووصولاً لاعتلائه قمّة أمن الدولة، فقط ليحلّق فوقهم جميعًا، يتحكّم بهم؛ أكلهم ولعبهم، حياتهم، وحتى موتهم. كما يأمن غضبهم!

السلطة المُطلَقة، تلك التي تجعله بمعزلٍ عنهم، كما تمنحه كافّة الحقوق ليفعل بهم ما يشاء، هكذا خُيِّل إليه، إلّا أنّ شبح جده الأكبر الذي لم يره مطلقًا، يتلوى كالثعبان، بات يؤرِّق مضجعه كثيرًا هذه الآونة، يراهم وقد قويت شوكتهم، يحرقون كلّ ما تطاله أياديهم، يحاصرونه ليالٍ طويلة، يمزِّقونه إربًا ثم يأكلونه حيًا في النهاية!! يدهسون ما تبقّى منه تحت

أقدامهم، عابرين خلاله نحو البقية، يتساقط الكلّ تحت وطأة ضرباتهم.

يباغته الكابوس لياليَ عديدةً، يوقظه شاهقًا متلاحق الأنفاس، عاجزًا عن الحركة. تمتدُّ يده تعبث بزرّ الإضاءة، ترتجف أوصاله فتنهض زوجته فزعةً، تهرع لتحضر كوب الماء الذي غالبًا ما يسقط متناثرًا قبل أنْ تمسّه شفتاه، مِن مخبئه يطالع الأسيوطي الكابوس متجسدًا أمامه في شاشة التلفاز، تنقل صورًا حيةً للآلاف يواصلون صمودهم بعد نجاحهم في الحفاظ على الميدان من هجمات البلطجية وراكبي الجمال والخيول!

تتناثر منهم الدماء والبسمة تعلو وجوهًا لا تعرف معنى الهزيمة، تَرى الغد مشرقًا لا تشوبه شائبةٌ، لقد انطلق القطار، وقد يتجاوز قضبانه في القريب العاجل.

القانون رقم (٨)

اسْحَقْ عدوّك سحقًا كليًا

لقد عرف القادة العظماء منذ موسى عليه السلام، أنّ العدوّ المرهوب يجب سحقه بصورةٍ كاملة، فإذا تركت جمرةً واحدةً مشتعلةً مهما كان احتراقها خافتًا، فإنّ نارًا ستندلع منها في نهاية المطاف.

التوقُّف في وسط الطريق يؤدّي إلى خسارةٍ ما هو أكثر مِمّا لو كانت الإبادة كليةً.

٢١

القاهرة -٢٠١١

وسط الجموع الهادرة تنذر بالويل فوق الرؤوس وجدت هايدي نفسها، تتقافز بسعادة تكاد تلامس عنان السماء، تصرخ فيخرج صوتها مشرقًا وسط الحشد المهيب، يتردد صدى كلماتها ممتزجًا برنين الغضب القابع في الصدور عشرات السنين؛ الشعب يريد إسقاط النظام!!

هكذا وُلدت مِن جديدٍ، حين استجابت لدعوةٍ تسلَّلت إليها عبر صفحتها بموقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك، تدعوها للنزول في الخامس والعشرين من يناير للتنديد بما يلاقيه الشعب من مهانة وإذلالٍ رغبةً في حياةٍ كريمةٍ وعدلٍ مفقودٍ ودولةٍ لا تمتهن الإنسان! أبدت رغبتها في المشاركة بلا ترددٍ بالرغم من حساسية موقفها؛ كونها ابنة المستشار المرموق لم يردَعْها عن المُضيّ قدمًا لتَصَدُّر المشهد منذ الساعات الأولى

لفجر الثورة.

لم تصدقْ يومًا أنْ تجد بداخلها ما يكفي من القوة كي تصرخ بما يتجاوز حدود عالمها الافتراضي، تزلزل عرش نظام بات يغتالها يوميًا بما يقترفه من ويلاتٍ بحقّ ملايين الشباب من جيلها، يغتال أحلامهم وآمالهم ورغبتهم في الحياة. أيّ حياةٍ وكفى! صار يتفنّن في وضع العراقيل محترفًا في خنق الأحلام ومصادرة الإبداع ووأد الكفاءات وإعلاء كلّ ما هو قبيحٌ ومَقيتٌ ولزجٌ، طالما يملك جواز مروره السحري؛ المال أو النفوذ!

يطفو بخيالها حديثٌ لها مع أحد زملاء عالمها الخاصّ، تلقاه دومًا خلف شاشة حاسوبها حين تتلاشى الحدود، ليصير الحكي عالمًا موازيًا، أفضى لها يومًا بما كان يعمل بعقده الحكوميّ المؤقّت في قسم رعاية الشباب بإحدى الجامعات الحكومية حديثة النشأة؛ وظيفته اقتصرت على التنظيم والإشراف على المعسكرات والمهرجانات الكبرى على مستوى الجامعة، حيث كان يدعو إليها وفودًا مِن مختلف الجامعات المصرية.

حكى لها كيف يتم إهدار ملايين الدولة تحت مسمًّى فضفاض واه، بمباركة مِن إدارة الجامعة ووزارة التعليم العالي، وكلّ الإشادة والتقدير من الحكومة والنظام! مهرجان التراث الأول للجامعات المصريّ، هكذا كان المسمّى الذي سهر على إعداد لائحته التنظيمية أسبوعًا كاملاً، يُرتّب كيفية استقبال وفود الطلاب وطاقم الإشراف وأعضاء هيئة التدريس، إسكانهم والعمل على راحتهم، وتجهيز الوجبات الخاصة بهم من مطعم الجامعة، كذلك الزيّ

الخاصّ بالمهرجان والدروع التذكارية.

رُصِدْ ميزانيةٌ تتخطى المائتي ألفٍ مِن الجنيهات، لمهرجانٍ أُعِدَّ لإحياء فعاليات لعبة السيجة والسبع طوبات والقطة العمياء والكرة الشراب، يتقاذفها طلاب الجامعات المصرية بشغفٍ طفوليٍّ أملاً في الفوز بالمراكز الأولى والعودة لجامعتهم بالكأس والدرع!!!

كادت تسقط من فوق مقعدها غير مصدقة، حملقت في شاشة حاسوبها حتى كادت تتوحّد معه، طلبت منه أنْ يُعيد على مسامعها ما قيل مراتٍ ومرات. أقسم لها أنّ المهرجان أُعِدَّ بالفعل وأنّ الطلاب تركوا دراستهم، استقلّوا حافلات الجامعة بصحبة مسؤولي الأنشطة وأعضاءٍ من هيئة التدريس. ثلاثةُ أيامٍ متواصلةٌ للعب الكرة الشراب وشدّ الحبل! وأنّ خزانة الدولة تحمّلت قرابة المائتي ألفٍ لإحياء ما لا جدوى من إحيائه، علمٌ لا ينفع وجهلٌ لا يضرُّ، وأنّه بنفسه قام بطبع الآلاف من أوراق الدعاية «البروشورات» الأنيقة ذات الطبقة الكوشيه اللامعة بتكلفة تجاوزت ثلاثة آلاف جنيه، فقط لتوضَع أمام منصة رئيس الجامعة يوم الافتتاح، يراها بعينٍ لاهيةٍ، يقلّبها بين يديه وقلّما يقرأ ما بداخلها من الأساس، ثم يلقيها بكلّ إهمالٍ، ليُلقي خلفها باقي النسخ طالما نالت إعجابه! وأنّه تقاضى في نهاية المهرجان مكافآته السخية عن التنظيم والإشراف؛ أربعين جنيهًا ونصفًا!!!

حين يقرّر المنطق أنْ ينتحر أو يموت كمدًا، لن يجد أرضًا خصبةً تُحقّق له مسعاه خيرًا مِمّا نعيش عليها، هكذا عجزت هايدي عن التعليق على رواية

زميلها. تعجّبت كثيرًا، بادرها أنه يتقاضى راتبًا شهريًا ١٨٠ جنيهًا، وهو بهذا الراتب يُعَدُّ مِن أهل الصفوة في فئة العقود المؤقتة، غيره يتقاضى ١٠٥ من الجنيهات يحمد الله عليها صباحًا ومساءً، وربما بعد القيلولة!

يُسرُّ لها أنه أسعد حظًا مِن غيره في الإدارة؛ فهو قد أشرف على مهرجان للتراث، أمّا زملاؤه في النشاط الرياضيّ فينظمون مهرجانًا سنويًا للطائرات الورقية، يَلقون نفس الوفود، وربما بصحبة بعض رؤساء الجامعات على شواطئ إحدى البحيرات ليشهدوا منافسةً حامية الوطيس، غايةً في البراعة والإتقان لحفظ توازن الطائرات الورقية أطول فترةٍ والابتعاد بها قدر الإمكان!

تكلفة هذا الأمر الشاقّ قد تتخطّى ربع مليون جنيهٍ، في حين أنّ جميع زملائه يتقاضون نفس راتبه أيضًا! ربما لو قرروا جمع رواتبهم سويًا لعشر سنواتٍ قادمة لَما كلّفت الدولة ميزانية مهرجانٍ واحدٍ! يُشفق على نفسه وزملائه حين يراهم متحلّقين حول إحدى الطائرات الورقية الفائزة بالمركز الأول، يلتقطون معها صورًا تذكاريةً أشبه بتلك التي حصل عليها أرمستورنج حين صعد القمر!

ظلت قصته عالقةً بذهنها لسنواتٍ، غير قادرةٍ على هضم تفاصيلها الموجعة، حتى رأته يتأرجح أسفل إحدى كباري وسط البلد، متدليًا من حبلٍ غليظٍ وضعه نهايةً لعبثٍ لا حدود له! طالعتها صورته في إحدى الجرائد أسفلها توضيحٌ باهتٌ عن غموض انتحار شابٍّ شنق نفسه صبيحة أحد الأيام أمام أعين الجميع، يقول شهود العيان أنّه تحدّث كثيرًا، تفوّه بكلامٍ لم يعِ

المحيطون منه سوى أنه ممتنٌّ جدًا لهم كونهم قادرين على المضي قدمًا حتى الآن، أمّا هو فقد أُحني له ألفُ ظهرٍ في العمل والحبِّ، وحتى بين أصدقائه، بات فارغًا عديم المعنى، لذا يودُّ الرحيل بسلام!!!

حملوا الجثة تاركين الحبل، ربما عن عَمْدٍ ليتدلّى منه جسدٌ آخر بعد أيامٍ قليلةٍ! عاملٌ باليومية من الذين تلقاهم بكثرةٍ أسفل الكباري، وإشارات المرور. ربما لم تأبه به مطلقًا في صخب يومك المليء بلقاءات العمل وعصبية المدير، وثقل دم العميل، أو ربما رائحة عطر زميلتك الذي يزكم أنفك طوال اليوم!

من أطراف المدينة أتى باحثًا عن أيّ شيءٍ يعمله، حائطٌ ما بحاجة للهدم، أو أيّة أحمالٍ تُنقَل من مكانٍ لآخر. ألقى به حظه العاثر أسفل الكوبري بعد أنْ خارت قواه طوال اليومين السابقين بانتظار أيّ عابرٍ يطلب منه أيّ خدمةٍ يمكنه أنْ يؤديها له طالبًا عليها أجرًا، أيّ أجر.

أطفاله يتلهّفون لعودته حاملاً أيّ شيءٍ يصلح للأكل، لذا امتدّت يده أمام وجهه تستجدي رحمةَ مَن لا يعرفون لها طريقًا! وما إنْ لامست أول قطعة نقودٍ راحة يده المبسوطة أمامه، حتى انتفض كمن يفيق من كابوسٍ جثم عليه عنوةً، جاهدت دموعه للبوح بما يحرق جوفه، تنعى روحًا أُهدرت للتوّ آدميتُها مع سبق الإصرار، لم يحتمل الرجل لسع العملة داخل جيب جلبابه المهترئ، نظر للحبل طويلاً، تقدّم نحوه بثبات طالبًا من ربه المغفرة.

اليأس أحيانًا يلامس حياة الفرد، يحجب عنه البصيرة؛ فيرى في الموت ملاذًا أخيرًا، يُحني بعدها رأسه وعلى شفتيه ثمة بسمةٍ، بسمة رضًا، وامتنان!!

٢٢

القاهرة - ٢٠١١

تندلع الثورة وتتبدّل كافّة الأحوال.

يتنحّى الرئيس بعد طول عنادٍ ليفلت زمام جميع الأمور أكثر مِمّا كانت عليه، شللٌ تامٌّ يتسرّب لعمله بمركز التدريب بعد أنْ هدأت حدّة الأمور وتكشّفت بعضٌ من نوايا حازم السعدني؛ رغبته في الحصول على أقصى ما يمكن أنْ يصل إليه على الخريطة السياسية الجديدة جعلته يحيد قليلا عن التدريب بل يحيد عن اهتمامه بخطيبته والوقوف بجانبها في محنتها، ليوجّه جُلّ إمكاناته للعمل الثوريّ والوعي السياسيّ. يتقدَّم الصفوف دومًا منذ اندلاع الثورة ولا يترك مليونيةً أو حتى مجرد تجمهرٍ عابرٍ إلا وعليه بصمةٌ ما تخصُّ السعدني، برق نجمه السياسيّ سريعًا كواحدٍ مِن أهمّ قادة الثورة لِمَا أحدثه من تغييرٍ في فكر وعقلية الشباب، ولما قام به مع فريقه من بطولاتٍ في

اقتحام مقرّات أمن الدولة وتسليم محتواها للجيش!

فاجأ الجميع بما أسماه فريق الخلاص، ذلك الفريق الذي عمل السعدني على إعداده شخصيًا بمعاونة شريف زكي في صمتٍ وسريةٍ تامة منذ ما يقارب الثلاثة أعوام، هدفه الأساسي انتشال البلاد من فوضى النظام السابق والضغط عليه حتى الوصول لحالة الثورة الكاملة، ثم البناء من جديد.

مائة شابٍّ وفتاةٍ، كلُّ واحدٍ منهم مسئول عن مائة آخرين موزَّعين في كافة محافظات الدولة، ولا أحد يعلم ما إذا كان التسلسل مستمرًا أم لا، تحكمهم قواعدُ وقوانينُ خاصةٌ بهم لا يعلمها غيرهم، فقط السعدني وحده القائد.

بلغت بهم السرية حدًا غير مسبوقٍ، للدرجة التي أوصلت بشريف صديق منير الوحيد والناصح الأمين له، أنْ يخفي تمامًا عن منير أيّ شاردة أو واردة تخصُّ هذا الفريق لدرجةٍ كادت تُذهب بعقل منير حين طالعته أنباء الضربة الأولى لفريق الخلاص بتطهير مقرّات أمن الدولة، في عناوين الصحف وبرامج التوك شو!

لم يُعِر الأمر أهميةً بعدها، ولم يُعِر شريف ذاته بعدها أيّ اعتبارٍ لينهمك في رسالته عازمًا على ترك مصر بما فيها ومَن فيها للتقديم على الهجرة في أيّة دولةٍ تسمح بذلك، أو العمل في أيٍّ مِن جامعات الخليج حال حصوله على الدكتوراة، إلّا أنّ الشلل تسرّب أكثر ليعبر حدود عمله ليحيط كافة أحوال البلد، ليطال في النهاية حلم منير الأهمّ والأقوى، ويلقي به في دوامة

التأجيل المتكرر.

لو سارت الأمور كما ينبغي، لكان الآن ينعم بلقب دكتور في علم النفس، يهنأ بعدها بحياةٍ أكثر استقرارٍ، فموعد مناقشة الرسالة كان مقررًا له يناير الماضي، لولا اندلاع الثورة. قتل موضوعها بحثًا، انغمس فيه حتى النخاع سنوات طوالاً، غارقًا في المئات من الأبحاث والدراسات للوقوف على فرضية شائكة شغلت باله طويلاً؛ عن علاقة السلطة بالمال ومدى الترابط النفسي لتركيبة أصحابها، يحاول أنْ يؤكّد فيها على العلاقة التبادلية بين طرفي القوة المطلقة؛ السلطة والمال، ليُثبت بالأدلة الدامغة أنّ أصحاب السلطة يطمحون دومًا لامتلاك المال بأيّ طريقة، لا تكفيهم حصانة السلطة وقوة القرار وحدها، لديهم دومًا نقصٌ ما، لا يرون تعويضه إلا بملايين في أيّ مكانٍ، إمّا حسابٌ وهميٌّ في أحد البنوك أو عقاراتٌ وكياناتٌ استثماريةٌ يديرها أحد الأقرباء.

والعكس صحيح؛ فأصحاب المال يسعون لامتلاكه تمهيدًا للوصول لسلطة ما تستعصي على الاختراق، يؤيد هذه الفرضية مئات الشواهد بقضايا فساد بعض كبار القضاة وضباط الشرطة ممّن تورّطوا بفضائحِ فسادٍ ماليٍّ أو رشوة، كذلك تكالُب العشرات مِن رجال الأعمال الناجحين ذوي الملايين المتراكمة، على الترشُّح لعضوية مجلس الشعب.

يُهدِرون عشرات الملايين في حملات الدعاية وتقديم فروض الولاء والطاعة للكبار في الحزب الحاكم والدولة، فقط لامتلاك السياج المنيع والدرع الواقي

وحصانة المجلس، هدفهم المعلن رعايةُ مصالح أهل الدائرة الكرام، من يدقّون أبواب منازلهم يحتسون أكواب الشاي ويتذوقون فطيرهم المشلتت وأحيانًا المِش المعتّق الذي لا يخلو من بعض الدود، يتبسّطون معهم فقط وقت الانتخابات، أمّا طوال الخمس سنواتٍ التالية يبحث أصحاب الفطير والمش عمّن يرصف لهم الطرقات أو يعالج أكبادهم المثقلة بفيروس سي، يرفع عنهم بعض الظلم أو ليخفّف معاناةً تلفح روحهم المنهكة، فلا يجدون سوى سرابٍ.

تمضي به الرسالة لسبر أغوار تلك العلاقة النفسية العميقة، رغبةً منه في إماطة اللثام عن الأمر، ليجد نفسه وقد وضع يده على نظريةٍ تكاد تكتمل أركانها بين يديه تؤسّس لقانونٍ وجوديٍّ تسعى البشرية جاهدةً للعمل به منذ أنْ اقترف آدم الخطيئة الأولى.

٢٣

الدين هو ما يؤمن الفرد به حقًّا، ما يسيطر على فكره وكيانه. يوجِّهُه نحو ما يفعل في الحياة، ما يعيش لأجله سنين عمره، وقد يفنى في سبيل الوصول إليه، لذا فسعيُ الإنسان المضني لبلوغ هدفٍ ما لا يرى في الكون سواه هو بذاته لبُّ الدين. يظلُّ بصره شاخصًا وقلبه معلقًا وخطواته لا تحيد مهما جاس بهما من موبقاتٍ أو مخاطرَ، وتخلّى خلال رحلته تلك عن أيّ مبادئَ، أو حتى دمّر غيره.

أو ربما تناسى الفرد دينه الأصليّ، ما ورثه أو شبَّ عليه، ليس ما يمارسه على أرض الواقع، طالما تمضي خطواته الواثقة نحو الإمساك بحلمه، هدفه، أساس وجوده!

برقت عينا حازم الجالس في حديقة منزله حين انتهى من قراءة السطر الأخير من مقدمة اللائحة التنظيمية للعمل داخل فريقه الخاص، رفع عينيْه

صوب شريف الغارق في العدم غير مصدِّقٍ لِما يسمع مِن قائده وأستاذه. بذهولٍ تامٍّ سأله شريف مبهوتًا:

- أستاذي العزيز، إنت فعلا عايز توزع عليهم الكلام ده! شايف إنهم هيقدروا يستوعبوه فعلاً؟ ولا دي خطوة لازم تتأجل؟

بهدوءٍ كعادته يفترُّ ثغر السعدني عن ابتسامةٍ مريحة، ليردَّ قائلاً:

- شريف، أنت المساعد بتاعي، دراعي اليمين وأهم واحد في الفريق. ولولا إيماني بيك وبولائك مكنتش أخدت رأيك في حاجة زي دي أبدًا. الشباب داخلين على المرحلة العملية خلاص، شهور وتبدأ معركة انتخابات مجلس الشعب، لازم يرتقوا درجة أعمق من اللي هما عليها، الوقت مش في صالحنا.

بتردُّدٍ يهزُّ شريف رأسه بعد أنْ حاول ارتشاف ما تبقّى من قدح قهوته، واضعًا الفنجان بيدٍ مرتعشة على الطاولة أمامه ليجيب:

- متفق معاك يا أستاذي إن الوقت ضيق، والترتيب إن الشباب كان هيتمّ إعدادهم خلال خمس سنين على الأقل علشان تفهم المنهج بالكامل، بعدها تبدأ مرحلة الانتشار اللي كانت هتاخد حوالي عشر سنين كمان. بعدها نوصل للمرحلة اللي بنتكلم عنها دي، لكن لما الثورة قامت كانت فرصة لا يمكن تتكرر تاني ولا بعد خمسين سنة، وبطريقة عبقرية جدًا منك يا كبير زي ما عودتنا قدرت تستغل كل ده لصالحنا كويس قوي بمجرد ما الكفة رجحت في اتجاه الثوار.

قاطعه حازم بلباقة:

- الحادثة اللي اتعرضت ليها هايدي هيه اللي رجعتني للمشهد تاني بصورة كبيرة، واللي قدرت أثبت بيها للرأي العام إننا كنا موجودين في الثورة من قبل حتى ما تبدأ، خصوصًا إني كنت مختفي تمامًا أول أسبوع في الثورة بسبب موضوع الأسيوطي والقلق اللي اتسبب لي فيه، ومحدش كان عارف أنا مختفي ليه.

يكمل شريف بكلِّ حماسٍ:

- صحيح يا افندم، خطيبة حضرتك كان ليها تواجد كبير جدًا فترة ما قبل الثورة، وكمان في الميدان من أول يوم لدرجة إني إتفاجئت شخصيًا من نشاطها ده. وعلى فكرة يا افندم أحبّ أفكّر حضرتك إن من الواجب نعدّي نطمّن عليها في أقرب فرصه علشان الإعلام مركز معانا جدًا الفترة دي. كلّ خطوة بيقوم بيها الفريق بعد حركة اقتحام مقرات أمن الدولة بقت محسوبة علينا.

بشرودٍ يردُّ السعدني:

- معاك حق ياشريف، لازم أعدي أطمّن علشان محدش ينتهز الفرصة ويقول انشغل عن خطيبته بالسياسة.

أنهى حازم جملته ليَشخَص ببصره بعيدًا، مُسبلاً جفنيه باستسلامٍ طالما اعتاد شريف عليه، تُطبِق عليه خواطرُ شتى فيسترخي طالبًا بعض الراحة، لذا يُؤْثِر

شريف الصمت التامّ حالما ينتهي أستاذه من خلوته.

يبحر السعدني كعادته دومًا صوب أحد أهمّ أطراف خطته؛ حين أعدّ العدّة للإيقاع بهايدي الزيات في شباكه واهمًا إياها أنها كلّ حياته، مانحًا لها أكثر مِمّا تحلم وتتمنى! مئات الرسائل الإلكترونية أرسلتها له تحكي فيها أدقّ تفاصيل حياتها، والدها المستشار المتسلط، صاحب السلطة والنفوذ، أمها سيدة الأعمال الراقية، أمّا هي الفتاة الحائرة دومًا، المغتربة داخل وطنها! رأى الأمر وشيكًا كأيّ خطوةٍ يسعى إليها؛ أنْ يضمّ الركن الأهمّ في أعمدة مذهبه الجديد، أنْ يملك ثلاثية القوة المطلقة؛ السلطة والمال والشهرة.

فاجأها في محاضرة الجامعة حين أعطاها رقمه الخاصّ، لذا أعدّ العدة أنْ يبدو كلّ شيءٍ عفويًا بالكثير من الإعجاب، والكثير جدًا من الحب، بعدها تمّ الأمر برمّته. وما إنْ طابت له الأمور، سارت كما خطط تمامًا وكما يبرع دومًا في خلق الأدوار والتكيُّف داخلها، حتى لاح له كابوس الأسيوطي، كاد يقلب عليه كلّ الموازين، إلا أنّ ثقته في القدر لم تتخطاه هذه المرة، أهدته زلزالاً آخر كما حدث منذ سنين، ليلفظه هذه المرة قائدًا للثورة وواحدًا من أهمّ رموزها!

خطأٌ واحدٌ وقع فيه حين أرسل رسالته الملعونة تلك، يعلن فيها استعداده للتعاون مع هذا الأسيوطي، ما كان يتوجب عليه أبدًا ترك أدلة مادية على تورُّطه، كيف تناسى هذا الأمر!؟ يختبئ الأسيوطي في مكانٍ ما هربًا من بطش الثوار وملاحقات حكومات ما بعد الثورة وعمليات التطهير إلى أنْ

تهدأ الموجة، إلّا أنه لا يكفُّ عن العبث مع السعدني كلّما لاحت له الفرصة لذلك، فتارةً يُرسل له رسالة تهديد بأنْ يفضحه على الملأ، يكشف عمالته وجنسيته الوهمية، وتارةً يهدده بأنْ يُري الجميع نصّ رسالة التعاون التي أرسلها قبل الثورة بأيام، وثالثةً يطلب منه أربعة ملايين دولارٍ يضعهم في أحد الحسابات في بنكٍ سويسريٍّ بعدها يختفي الأسيوطي للأبد هربًا خارج البلاد!

لذا أتت خطوةٌ لم يسعَ السعدني لها مطلقًا ولم يفكر حتى بالأمر إلّا أنّه أجاد استغلالها لأقصى قدرٍ ممكنٍ؛ اقتحام مقرّات أمن الدولة بات ضرورةً ملحةً، يضرب بها السعدني عدة عصافيرَ بحجرٍ واحدٍ؛ بها يعلن عن فريقه الوطنيّ الذي أعده لخدمة البلد! كما يطوعُ الموقف لصالحه حين يقرّر الانتقال لمقاعد الساسة والكبار، والأهم هو التحفُّظ على أيّ دليلٍ قد يدينه مستقبلاً، يعطي رجاله الأوامر بجمع أيّ ورقةٍ يشتبه أنْ يكون بها أيُّ رصدٍ له أو لتحركاته ما قبل الثورة.

وما إنْ تمّ الأمر حتى عثروا في الداخل على ملفٍ ضخمٍ يحوي آلاف الأوراق والوثائق، أَشْرَفَ السعدني على حرقه بنفسه، وحدها النار هي ما يثق فيه السعدني في حياته حين يقرّر إنهاء أمرٍ ما، أثرُها ثابتٌ وفعالٌ كما أنها لا تخطئ؛ تُجْهِز على أيّ شيءٍ دون تمييزٍ، تصل به لمرحلة التطهير التام.

قانون رقم (٩)

لا تلتزم بأحد

إنّ الأحمق هو الذي يتسرّع بالانحياز لطرفٍ مِن الأطراف، لا تلتزم بأيّ طرفٍ أو قضيةٍ سوى نفسك، وبالحفاظ على استقلالك تصبح سيد الآخرين.

اجعل الناس يقفون بعضهم ضد بعضٍ، في النهاية يتبعونك أنت

٢٤

القاهرة - منتصف ٢٠١١

من خلف زجاج الحجرة السميك طالت وقفة منال، تتطلع بشفقةٍ للجسد الخامد بلا حراكٍ منذ شهورٍ عدة، تحوطه عشرات الأسلاك تقيس نبضاته وسكناته، كما تمدّه بسوائل شتى ليظلّ ممسكًا بما يبقيه حيًّا برغم الغيبوبة التي سقط الجسد داخلها.

في ذروة الأحداث تلقّت هايدي الضربة بمؤخرة رأسها، في المنطقة التي تقبع فيها أهم عمليات الجسد الحيوية، النوم واليقظة، سقطت سريعًا وما استفاقت بعدها حتى تلك اللحظة، لم تدرِ ما الذي حدث لها على وجه الدقة، كيف تسلّل أحد البلطجية خلف خطوط الميدان المؤمَّنة في واحدٍ من أقسى أيام الثورة وأكثرها ضراوةً؛ موقعة الجمل. على حين غرةٍ أتت الضربة القاسمة أظلمت بعدها الدنيا تمامًا.

اعتادت منال أنْ تُباغت شريف دون سابق موعدٍ في المستشفى حين يأتي بصورة شبه دوريةٍ للاطمئنان على خطيبة مديرة حازم السعدني، يتابع تطوُّرات الحالة، ويرى إنْ كان هناك ما يمكن عمله، لذا فمنال تحاول اصطياده لإكمال ما بدأته، خاصةً بعد أنْ بدأ يضجُّ بمحاولاتها المستميتة تلك فيلين لسانه ليفضي ببعض الأمور التي قد تراها هامةً لها في البحث عما ينتوي السعدني فعله.

إلّا أنّ السعدني باغت الجميع حين أعلن عن مجموعةٍ من الشباب والفتيات المتطوعين معه للعمل بمركز التدريب ومؤسسته الخيرية، أطلق عليهم إعلاميًا فريق الخلاص، يسعى من خلاله لتمكين الشباب من العمل الخيريّ الإيجابيّ والإسهام في نهضة البلد!

لا تعلم منال تحديدًا ما إذا كان هذا الفريق هو ما كانت تسعى خلفه، أم أنّ الفريق يخفي أمرًا آخر أكثر خطورةً من مجرد مليشيات شبابية مُدرَّبة باحتراف منذ سنين لتنفيذ أمرٍ ما، على حدّ تفسيرها. حاولت أنْ تَعرف من شريف كيف جمع السعدني هذا العدد الهائل من الشباب، وعلى أيّ أساسٍ، وكيف كان يُعِدُّهم طوال هذه السنوات بمنتهى السرية، وما هي القوانين التي تنظّم طبيعة عملهم؟

هل كان يُعِدُّ جماعةً سريةً كما يفعل أيّ مصلحٍ أو قائدٍ على مرِّ التاريخ؟ هرتزل، حسن البنا، أو حتى هتلر! يضع داخلهم فكرةً، يتركها تتعاظم لتسدَّ عليهم الأفق فلا يجدون مناصًا سوى الإيمان بها والفناء من أجل الوصول

إليها؟

حين تطرقت لهذا الأمر مع شريف في إحدى المرّات تبدَّل وجهه تمامًا، وتوتّرت ملامحه وازداد شحوبًا، حاول التملُّص منها حين أبدى إعجابه برائحة العطر الذي تضعه كم هو رقيقٌ وجذابٌ! كالأطفال يتصرَّف بسذاجة وتلقائية، حتى إنّه متردِّدٌ دومًا، متأرجحٌ دائمًا، تراه في صراعٍ أبديٍّ لا يهدأ. التَقَتْه كثيرًا خلال تلك السنة، حتى باتت تعرفه جيدًا، كم يذوب ولاءً في شخصية قائده ومعلّمه وأبيه الروحيّ حازم السعدني، وكم يشعر داخله بوخزٍ من بقايا ضميرٍ يجاهد مليًا لوأده في أقرب فرصة، لأمورٍ لا يودُّ الإفصاح بها إليها بالرغم من صداقةٍ نَمَتْ بينهم على استحياءٍ.

كيف أنّه يحب صديقه الصدوق منير، يرى فيه انعكاسًا لما تمنّى أنْ يكونه أو يظلّ مُحافظًا عليه يومًا ما، لذا يقرِّبه منه دومًا، يقدِّر مشورته ونُصحه، ويهرب من فجاجة لسانه وصراحته السليطة! لا تدري تحديدًا ما الذي يدفعها للمضي قدمًا في هذا البحث بعد أنْ خَبَتْ جذوته وانصرف عنه الجميع في تلك الفترة، حتى هي لم تَعُدْ ترى فيه ما يثير باستثناء فريق السعدني الغامض، وقربها من شريف.

أحيانًا تضبط نفسها متلبسةً بالبحث عن أيّ علةٍ تلقاه بها أو تحادثه هاتفيًا، تهزّ رأسها مُحاولةً طرد أيّ هاجسٍ، تمطّ شفتيها باستهتارٍ قائلةً: «مجرد إعجاب!» إلّا أنّ انعكاس لمعان عينيها في الزجاج المقابل يُضمِر أمرًا ما أكبر مِمّا تُوهِم به نفسها.

وَقْعُ خطواته قادمٌ في الردهة المقابلة، تلتفت منال على عجلٍ لتراه مقبلاً بصحبة منير صديقه الصدوق، والسعدني رجل المرحلة بلا منازع، ألجمتها المفاجأة لثوانٍ، طوال شهورِ غيبوبة هايدي لم يأت ثلاثتهم معًا لرؤيتها اعتادت أنْ ترى شريف منفردًا أو بصحبة منير، أمّا السعدني فلم تتشرف بلقائه مِن قبل، يا لها من مهابة تُضيف لجاذبيته وسطوة شخصيته الكثير، للهالة وجودٌ ينبض بالحياة مُتجسِّدًا في ملامح هذا الرجل. حاولت التماسك، راسمةً على شفتيْها ابتسامةً متوترةً خبا بريقها حين بادرها السعدني قائلاً:

- منال مندور، صحفية مجتهدة ونشيطة، شريف كلّمني عنك كتير قبل كده.

زفرت منال باضطراب مُحاولةً السيطرة على موجةٍ مِن القلق غير المُبرّر اعترتها فجأةً، مُوجِّهةً بصرها صوب شريف بنظرةٍ لائمةٍ سرعان ما أحنى رأسه بخجلٍ، بتردُّدٍ قالت:

- حازم السعدني، المنقذ، بطل الثورة وقائدها الهمام، شرف ليا لقاءك يا أفندم. أرجو إن شريف ميكونش وصّل لحضرتك حاجة تضايقك مني.

ردّ حازم بهدوءٍ:

- باستثناء بحثك المحموم ورا أي حاجة ممكن تشوه صورتي أو تودّيني في داهية، نقدر نقول مقالش حاجة.

نظرةٌ شيطانيةٌ بثّتها منال هذه المرة صوب شريف الذي ذاب خجلاً بجوار منير، تشعر كثيرًا بانصهار شخصيته وتواريها خلف السعدني، إلّا إنّها تأكدت

تمامًا الآن كم هو مسلوب الإرادة غير قادرٍ على التحكُّم بأيِّ شيءٍ في حضرة أستاذه.

تدخَّل منير لتهدئة الأمر قائلاً:

- هيه الصحافة كده مهنة البحث عن المتاعب، أيّ صحفي شغله الشاغل بيكون المصايب اللي تعجب الناس خصوصًا لو عن شخصية عامة ومشهورة زي دكتور حازم، بس منال مش كده خالص يا دكتور، أنا متابعها بقالي سنين، عملت تحقيقات جامدة جدًا أيام تصدير الغاز وتزوير الانتخابات.

قاطعه حازم بسخريةٍ:

- وكمان لمّا قالت علينا أنبيا يا منير نازلين من السما، شايفانا نصابين وبتوع شو! مش كده برضه يا أستاذة؟

أنهى جملته مصوِّبًا إليها نظرةً ثاقبةً طالما سبرت أغوار المئات، تهاوى أمامها العديد، إلّا أنّ منال تختلف عن كلّ مَن صوَّبت لهم تلك النظرة النافذة، هي تمتلك قوة المعلومة، ثِقَلُ المعرفة يمنحُها الثقة في كلّ ما تقوله، ذاك وحده كافٍ بإطالة أمد المناقشة بصورةٍ قد تبدو متعادلةً، صوَّبت إليه نظرة كثَّفت خلالها أعتى صور التحدي قائلةً:

- مش دي الحقيقة يا دكتور؟ ولا أنا غلطانة؟

يتدخَّل شريف لأول مرةٍ منذ بدأ النقاش محاولاً إنقاذ الموقف، خبرته التامة بطبيعة منال العنيدة حين ينطوي الأمر على تحدٍّ ما جعلته يتنحنح قائلاً:

- مش حقيقة طبعًا يا منال، على الأقل بالنسبة لطبيعة وضعنا في المركز الدولي، وطبيعة الدكتور حازم تحديدًا اللي بتختلف عن أي محاضر تاني في المجال. مش إحنا اتكلمنا في الموضوع ده أكتر من مرة وشرحتلك وجهة النظر؟

رمقه حازم بنظرةٍ جانبيةٍ قائلًا:

- اتكلمتوا في إيه بالظبط أستاذ شريف؟ يبدو إني فايتني كتير عن طبيعة حواراتكم؟

ردّت منال باندفاع:

- اتكلمنا في الشهادات المضروبة اللي بتوهموا الشباب بيها، بتوعدوهم إنها الأمل في وظيفة مستقرة، عن النجاح الزائف اللي بتعلموه للشباب وكل واحد منكم تلاقي نجاحه الوحيد في حياته كلها إنه بقى مدرب تنمية بشرية! إتكلمنا في غسيل المخ الممنهج اللي بتحاول تعمله لأعضاء فريقك غريب الأطوار اللي فاجتنا كلنا بيه، أقنعتنا إنك من أهم أسباب قيام الثورة بمحاضراتك اللي لفّيت بيها مصر تدعو الناس للتغيير، وإنّ ده السبب اللي خلاك ترجع مصر علشان رسالة كبيرة وهدف سامي ومحدش فينا عارف انتمائك السياسي كان لمين أو كنت بتحارب في أي جبهة بالظبط، محدش عارف أنت إيه زي ما تكون قطعة صلصال بتتشكل حسب القالب!

اتسعت عينا منير بدهشةٍ من صراحتها المذهلة، قفزت منال عشرات

الأميال عابرةً حدود خياله لتُلقي كلّ ما تردّد كثيرًا في قوله للسعدني يومًا، أسئلةٌ عدةٌ داهمته في السابق لم يجد إجابةً عنها حتى الآن، أمّا شريف فقد تهاوى على مقعد الانتظار بردهة المستشفى أمام باب حجرة هايدي، فاقدًا السيطرة تمامًا على مجريات الموقف، يتطلّع بانهيارٍ للسعدني، ناقلًا بصره صوب منال يستجدي منها أيّ بادرةٍ لإنهاء النقاش، أمّا السعدني فقد جاهد كثيرًا للسيطرة على ردّة فعله، حين ابتسم قائلًا:

- يبدو إن ده رأيك إنتي الشخصي اللي جمعتيه من مذاكرتك لشخصيتي بقالك أكتر من سنة دلوقتي، مش رأي شريف دراعي اليمين ومدير تدريبي. مش معقول يكون هوه المسئول عن كل الصفقات وعقود التعاون والشهادات والمواد العلمية ويكون شايف الموضوع نصب في نصب، وإلا يبقى راجل نصّاب ومنافق هوه كمان. ولو إنتي مستمرة في صداقة نصاب ومنافق وإنتي عارفة كويس المعلومة دي، يبقى إنتي كمان مبادئك مزيفة، مش أصلية زي ما بتوهمينا. أمّا لو صاحبتيه علشان مصلحة مثلًا، زي المعلومات اللي بتعرفيها عني، يبقى إنتي انتهازية، ودي برضه زيها زي النفاق، بس نفاق في المشاعر، وساعتها يبقى كلنا متساويين.

كلّ واحد بيبرّر لنفسه سبب يخالف بيه حاجة كان متصور إنها مبدأ بينظم حياته، إلا إنها في الحقيقة مجرد غلاف ضعيف بيلف بيه شخصيته الهشة علشان بس يجملها قدام نفسه وفي عيون الناس. اللي بيسقط في الامتحان بيقول المدرس قاصد يعجزه، واللي مش بيجيلها عرسان بتقول

إنها مبتفكرش في الجواز أصلاً، المتحرش بيقول إن لبس البنت الضيق هوه السبب، والخاين لمراته بيقول أصلها مبقتش تاخد بالها من نفسها خلاص، ده حتى في الكورة لما المنتخب بيتغلب بره أرضه دايمًا يقولوا سوء الأحوال الجوية مهما اختلفت الأسباب. المهم نداري الخيبة!

أمريكا دخلت العراق وقتلت ملايين علشان صدام كان عنده نووي! واكتشفنا كلنا إن دي مجرد شماعة، حجة، تلكيكة، مبرر يوصلوا بيه للي هما عايزينه، ومبارك كان معيشنا في مية البطيخ علشان منفتحش عيوننا على حقوقنا، مفهّم أمريكا إنه بيحميها من الإخوان، ومفهمنا إننا بلد الأمن والرخاء، وقت الثورة فهمونا إنّ العالم كله بيتآمر علينا، إننا مستهدفين من كلّ الدنيا. السؤال هنا كل دول طمعانين فينا على إيه! عندنا إيه يخليهم ليل نهار يتأمروا ويخططوا!! داحنا مقدمناش حاجة للعالم بقالنا مية سنة غير الرقص الشرقي، يكونش ده اللي بيدوروا عليه؟

أفلتت ضحكةٌ من فم منير كظمها سريعًا بيده، نظر له السعدني نظرةً لائمة أكمل بعدها بهدوء:

- أهي مجرد تبريرات عمرها ما هتنتهي، النهاردة فوضى، بكرا أكل العيش بعده الأمان، وأهي سلسلة بتسلّم بعض. أيّ حدّ لازم يلاقي سبب ومبرر بس علشان يحافظ على شكله قدام نفسه، يعرف يغمض عينه بالليل قبل ما ينام من غير ماضميره يأنبه، ولا بناءه النفسي يتخدش.

مش صح كده ولا أنا غلطان يا صحفية المبادئ؟ ياللي بتشتغلي مع واحد من أكتر الناس اللي بتشوه صورة مصر علشان مسنود من أمريكا؟ وحجته في كده برضه إنه بيكشف الحقيقة اللي بيها مش بيشوف في البلد غير شوية عيال جربانة وشاذة مالية الشوارع أو شلة بلطجية عايشة في العشوائيات!! بياخد تعليماته من بره يركز على إيه ويسيب إيه وشوية دولارات بتتحط في حسابه وأكيد بتصب برضه في حسابك! ما هو المليان يا أستاذة لازم يسدّ عين الفاضي علشان حفظ التوازن الطبيعي للمجتمع اللي إحنا فيه!!!

أنهى جملته موزِّعًا بصره على الجميع، تتبدل الرؤية أمام ناظريه فتختفي مشاهد الردهة وكراسي الاستقبال ليحلّ محلّها مسرحٌ مهيبٌ يعتلي السعدني صهوته، باسطًا يديه فوق رؤوس الجميع، ملقيًا كلماته السحرية بحزم، تنكسر بعدها النظرات بخجلٍ عارم.

حاولت منال أنْ ترفع رأسها لتردّ فانحشرت الكلمات أسفل حلقها، تزوغ نظراتها بأرضية الردهة، طال صمتها. بهدوء بادرها:

- هوه أنا جيت على الجرح ولا إيه؟ اعذري صراحتي الصادمة، بس أنا متعودتش أجمّل كلامي لمّا بيكون الأمر متعلق بالحقيقة، دي منهجي اللي عايش عليه ومتعايش معاه، أعترف بحقيقة اللي بعمله حتى لو كان سيء علشان مخدعش نفسي وأركز في اللي حواليا.

تنهّدت منال قائلةً:

- أكيد طبعًا كلامك صح، لمّا تصارح نفسك دايمًا، تقدر تخدع غيرك من غير ما تتخدع أنت كمان معاه.

جميل إننا وصلنا للنقطة المهمة دي من حوارنا، اللي بيها بنكتشف إنّ كلنا أصحاب مبادئ هشة واهية، بنشكلها بالصورة اللي نحقق بيها مصلحتنا وبس، بنشهر أسلحتنا في وجه أيّ حدّ يقرّب منها وبندافع عنها بكل شراسة، ومع أول اختبار حقيقي بتدوب وتسقط ويبان وراها الوش الميكيافيللي الفج، مش ده اختصار كلامك يا دكتور؟!

قبل أنْ يجيب أكملت منال:

- حتى لو كلنا كده، ده مش بيديك الحق إنك تخدع الناس بشكل ممنهج ومنظم طول السنين اللي فاتت دي علشان تحقق شهرة وفلوس، بتبتزهم عاطفيًا وماليًا بكلام معسول بيخدّر الواحد ويداعب خياله، بيشوف نفسه ناجح ومعاه فلوس كتير وبيشتغل شغلانة مستقرة والحياة وردي، لكن الحقيقة غير كده خالص.

يقاطعها شريف صارخًا:

- وهو الأمل حاجة وحشة يا منال؟ قوة الأمل ليها مفعول السحر على شخصية الإنسان، أنا رجعت للحياة تاني بعد ما كنت انتهيت فعليًا وقررت أنتحر لولا فضل ربنا ووجود السعدني في الوقت المناسب، بقوة الأمل وباقي تقنياته المذهلة رجّعني تاني من جديد، معجزة حية بتشوفها عينيكي بس

إنتي اللي مش راضية تصدّقي. الراجل ده أنقذ حياة ناس كتير من الضياع، غيّر مسار ناس كتير، وخلّى الصورة أجمل، ليه شايفة اللي عمله ده غلط؟

تجيب منال بنفاذِ صبرٍ:

- لإنه استغل أكتر لحظات ضعفهم وانهيارهم لصالحه، مقدمّش خدماته لوجه الله، هوه مش نبي صاحب رسالة ماشي يوزّع معجزاته على مخاليق ربنا، ده بني آدم ليه أطماع معينة، أهداف راسمها كويس وعايز يحققها، بيستغل أقصى درجات الضعف دي علشان ينفذ بيها لعمق الشخصية، بعدها يقدر يخلّي الواحد زي الخاتم في صباعه، زي ما عمل فيك يا شريف؛ أنقذك من عبودية المخدّر ودوّامة الفشل علشان تعبده هوه ومتقدرش تخرج من مصيدته.

هنا تدخل منير مرةً أخرى محاولاً هدم النظرية لتهدئة نظرات شريف النارية التي يبعثها لمنال بغضبٍ مكتوم:

- الموضوع فيه ثغرات كتير يا جماعة، أولاً فيما يتعلق بنظرية دكتور حازم في التبرير والمبادئ، وكمان في موضوع تجنيد الناس لمصالح شخصية، عندكو أنا مثلاً لا ينطبق عليّا موضوع التنازل عن المبادئ ده خالص، أنا مجابنيش ورا غير تمسكي بما أؤمن، غير إني بدرجة كبيرة على خلاف مع بعض سياسات المركز التدريبية، واسمحلي أقول يا دكتور حازم في حضورك إني كمان على خلاف مع بعض سياساتك الإدارية والشخصية كمان، وأظن

أنا بالكلام ده أكون غيّرت كتير من مسلمات المناقشة دي ونحاول نقفلها بقى وندخل نطمّن على الآنسة هايدي ونتوكل على الله.

هزّ حازم رأسه بدهشةٍ، صفّق بطريقةٍ مسرحيةٍ قائلاً:

- خطبة ممتازة مستر منير، رجل الصراحة المطلقة ومحطات الفشل الأسطورية يتحدث يا جماعة!! أستاذ منير أكتر واحد حاول يوازن أموره بس يا خسارة مقدرش، فاكر إنه كده بيحافظ على مبادئه، حبه للظهور في صورة المثالي تعويضًا ليه عن ضعف تقديره المزمن لذاته بيصور ليه إنه فعلاً مثالي، يابني فوق!

المثل الصيني بيقول: «هناك شخصان مثاليان، أحدهما ميت، والآخر لم يولد بعد»، يعني إنت متفرقش حاجة عن أيّ حدّ في الصالة دي.

تتسع عينا منير باندهاشٍ من وقع المفاجأة على أذنيه، كلمات حازم الصادمة ألجمت لسانه، أفقدته قدرته على الردّ، أكمل حازم كلماته القاسية:

- تنكر إنك تعمّدت سنين كتير تتحاشاني خوفًا من خسارتك لوظيفتك؟! بالرغم من إنك شايف وسامع ومتأكد من حاجات غلط بتحصل حواليك، إلا إنك تصورت إنّ انعزالك عن المجال وتشبثك بالجو الأكاديمي هيرحمك من ضربات ضميرك بخلايا قلبك ده.

قالها ودقّ بقبضته على صدر منير الغارق في الذهول، أردف بعدها قائلاً:

- محدش فاهم الحيلة إيه، ومحدش عارف سببها، من أيام سيدنا آدم، ربنا خلقه بيديه العظيمتين ونفخ فيه من روحه، ورفعه درجة فوق الملايكة وأمرهم بالسجود ليه، دخّله جنته ونعيمه وعلشانه مخصوص خلق حواء، مفيش بعد كده تكريم ومكانة، وبرغم كل ده آدم عصى خالقه من أجل ثمرة، من أجل شهوة، فضول ورغبة!!

عارف إنكم هتقولوا إن ربنا مقدر إن ده يحصل علشان عمارة الأرض والخلق وخلافه، أنا مؤمن تمامًا بده، بس اللي محيرني هوه إحساس آدم وهو بيقدم على هذه الخطوة، إيه اللي كان بيدور داخل أعماق نفسه ساعتها، نوع الصراع ما بين رغبته الجامحة في خوض التجربة وبين الخوف من العقاب!

هتلاقي التبرير هو الركن المحوري في الموضوع قبل وأثناء وحتى بعد ارتكاب الخطيئة الأولى؛ قابيل قتل هابيل بنفس الدافع ونفس الطريقة، كلّ الكوارث ألصقت عمدًا بالتبرير، باختصار يا جماعة نحن أبناء التبرير وأتباعه المخلصين، ولو فيه حدّ فينا ممكن نقول إنه راح أبعد من اللي إحنا فيه دلوقتي فهي البنت المسكينة اللي في الأوضة اللي قدامنا دي.

قالها وأشار صوب غرفة هايدي، أكمل بانفعالٍ:

- هيه اللي كان في إيديها كلّ حاجة، الفلوس والسلطة والرفاهية والمستقبل، عيشة حلوة نضيفة من غير أي تعب، سابت كل ده وراها في سبيل مبادئها اللي وصلتها لغيبوبة بقالها شهور طويلة يا عالِم هتفوق منها امتى وإزاي!

ساد الصمت طويلاً عقب جملته الأخير، رغبةً من الجميع في استقطاع وقت للراحة، وهربًا مِن حدّة المناقشة، واحترامًا لرهبة موقفٍ تطغى عليه رائحة الموت.

قطعت منال الصمت بهمهمةٍ مبتورة، أبدت بها رغبتها في الانصراف عازمةً على عدم العودة مرةً أخرى، حاول شريف إثناءها متعللاً بتوتُّر الجوّ وأنّ الأمور السياسية تثقل كاهل الجميع، إلا أنه أذعن في النهاية تحت إلحاحها المُضني. ألقت سلامًا مقتضبًا على الجميع، يصدر كعب حذائها العالي صوتًا رتيبًا يخفت تدريجيًا كلّما تقدّمت صوب الباب، وما إنْ همّت بفتحه حتى بادرها السعدني قائلاً:

- أستاذة منال، إيه رأيك تنضمي للفريق؟ واحدة مثقفة زيك هتكون مفيدة ليا جدًا الفترة الجاية، خصوصًا وإنّ الانتخابات خلاص على الأبواب.

دون أنْ توجِّه نظرها صوبه، أجابت منال بهدوء:

- خليني أحافظ على اللي باقي من المبادئ يا دكتور، بلاش أزود نغمة التبرير أكتر من كده يمكن متحملش، أنت مش محتاجني في حاجة خلاص، فريقك مستعد يعمل كل حاجة علشانك، وشريف كمان تلميذ نجيب يحقّ ليك تفخر بيه، فاهم منهجك كويس جدًا وماشي على قوانينه بالحرف وبيطور فيه كمان، مش بعيد تلاقيه قريب جدًا يتفوق عليك، والأيام هتثبت ليك صدق كلامي يا دكتور.

قالتها وخرجت تستقبل هواء الصيف الخانق، غيرِ عابئةٍ بما حولها فداخلها اشتعلت عشرات البراكين.

٢٥

القاهرة -٢٠١١

أكثر من ثلاثة شهورٍ مرّت على لقاء المستشفى المليء بالمفاجآت، فما عاد بعدها الحال كسابق عهده على الجميع؛ اختفت منال طوال تلك الفترة، وباءت كافّة محاولات شريف لإثنائها عن عزمها على الخروج مِن حياته بالفشل، اعتاد عليها وألِفها، وجد فيها جزءًا كان ينقص حياته ليبعث فيها دفئًا غامضًا لم يتّسع وقته لإضفاء أيّ صفةٍ عليه، فقط يألف هذا الشعور.

تغيّب منير عن العمل لفترةٍ، عاد بعدها يحمل خطاب استقالته بعد أنْ أُهدِرت كرامته على مرأى ومسمعٍ من الجميع، لم يجد أيّ حلٍّ وسطٍ يصلح للخروج من مأزقه الشخصي، وترميم جرح كرامته الغائر، اتهامه بالنقص من رئيسه في العمل إهانةٌ تسدُّ منافذ العقل لتترك الكرامة ترتع بلا رادعٍ داخل ثنايا روحه المهزومة، لذا فالاستقالة هي الثأر المناسب لما أحاط به

تلك الليلة.

أمّا السعدني فكأنّ شيئًا لم يكن، ما إنْ اطمأنّ على هايدي بصورةٍ روتينية خاليةٍ مِن أيِّ عاطفةٍ، حتى عاد إلى منزله يتهيأ لسلسةٍ من اللقاءات والحوارات التلفزيونية واجتماعات الفريق الخاصة.

يقترب شريف من باب حجرة مكتب السعدني في المركز، خلفه منير يرسم الغضب على وجهه خطوطًا عدةً، بين يديه تقبع استقالته حاملةً فركش آخر ينضمُّ إلى قائمة السقطات الخاصة، عاقدًا العزم على استكمال رسالة الدكتوراة وكفى، لم يَعُدْ في العمر متسعٌ للتجربة من جديد، يكفيه ما فات، يلتفت شريف لمنير طالبًا منه الانتظار بينما يطلب الإذن بالدخول.

ما إنْ سمع صوت السعدني الغاضب يصرخ به أنْ يدخل حتى أدار المقبض وانساب بهدوءٍ، وحين رأى أستاذه واقفًا معقود الحاجبين، يلتهم الغضب ما تبقّى من ملامحه، يده قابضةٌ على هاتفه المحمول تكاد تعتصره من الحنق، فطن سريعًا لسبب تلك الثورة العارمة، تنهد قائلاً بخفوت:

- الأسيوطي مرة تانية يا زعيم؟

بنفاد صبرٍ يزفر السعدني محاولاً الفكاك من ربطة عنقه الضاغطة على عروق رقبته بوحشية، قائلاً:

- القذر مفيش وراه غيري يتسلى عليه، كل شهرين تلاتة مكالمة تحرق دمي وتقلب اليوم كله، مش مكفيه اللي عملناه فيه لما حرقناله مكتبه، والله لو

أعرفله مكان لأولع فيه ميت مرة جزاء حرقة دمي دي.

بفضولٍ يتساءل شريف:

- وهو عايز إيه المرة دي يا أستاذي؟ مش حضرتك آخر مرة اتفقت معه على تخفيض المبلغ لمليون دولار بس بعد الانتخابات الجاية، إيه اللي ظهر جديد خلاه يضايقك تاني؟

دقّ السعدني بقبضتيه على مكتبه بغضبٍ عارم:

- الواطي حاسس بالغدر، عارف إننا بنمشّي أمورنا بس عايزين نكسب وقت لحد ما ندخل المجلس رسمي، ساعتها كلامه كله ضدي مش هيكون ليه قيمة وهجيبه مِن جُحره اللي مستخبي فيه ده وأرميه للثوار ينهشوه، وأكيد هيكمل بقية عمره في السجن تحت ضغطي ومطالبتي بده في المجلس، خصوصًا إني تحت إيديا أوراق توديه في داهية من الملفات اللي الشباب اتحفظ عليها في مكتبه يوم الاقتحام.

طلب مني المبلغ كله خلال شهر، لإنه خلاص قرر يهرب بره البلد. مش هيستنى التعديل الوزاري الجديد ولا الضغط الشعبي لتطهير الداخلية لإنه أكيد هيتقدم للمحاكمة علشان اللي بيكرهوه في الداخلية كتير. بيقوللي إنه لسه ليه حبايب في الفضائيات نفسهم يعملوا معاه أي واجب، منهم الأهبل ده اللي عامل قناة خاصة بيه مبيطلعش فيها غيره في كل البرامج قاعد يخبط بأي كلام، وللأسف كتير من الناس بتشوفه ومصدقاه.

هزَّ شريف رأسه مؤيدًا:

-عارفه يا كبير، بتاع الماسونية ونظريات المؤامرة، ده لسانه طويل ومش هنخلص منه. طيب حضرتك ناوي إيه؟

زفرةٌ حارةٌ أطلقها السعدني، أودعها ما يعتمل داخله من ضيق، كادت تُسقط بعض الأوراق مِن شدَّتها، ليرفع رأسه قائلاً:

- لسه مقررتش بالظبط ايه اللي المفروض يتعمل، ذهني مش صافي دلوقتي يا شريف، بس في الغالب هختفي الفترة الجاية لحد قبل الانتخابات على طول، وأنت تنشر خبر إني سافرت بره البلد بخلص أي ارتباطات كده، يمكن ده يخليه يهدا شوية. أنا بس عايزك قبل ما أختفي، تحضرلنا اجتماع مهم جدًا وحيوي للفريق الأساسي كله في أقرب وقت، بعدها كده أنزل الميدان في أي فعالية جاية علشان أثبت وجودي، وأهدّي اللعب بقى لحد الانتخابات.

بتساؤلٍ ردَّ شريف:

- طيب ومين اللي هيحل مكانك طول الفترة دي يا كبير؟ ممكن وقت الانتخابات يطوّل ويجدّ أي جديد إما في المركز أو المؤسسة أو حتى الفريق وحضرتك مش موجود، نتصرف إزاي ساعتها؟

يتقدَّم السعدني نحوه، واضعًا يده على كتفه بثقة قائلاً:

- أمال دراعي اليمين راح فين؟ قدها وقدود يا شريف. أنا واثق جدًا إنك

هتعرف تتصرف صح في غيابي، وأنا برضه هشرف من بعيد لبعيد لحد ما الأزمة تعدّي على خير، قوللي صحيح قبل ما أنسى إنت كنت جاي عايز إيه؟

ينتفض شريف كمن يفيق من شروده، ضاربًا جبهته براحة يده قائلاً:

- معلش نسيت، الكلام أخدنا في سيرة زفت ده الأسيوطي، كنت جاي أتكلم مع حضرتك في موضوع استقالة منير، هوه بره ومنتظر يدخل يقدمها لك بنفسه، مُصرّ جدًا وراسه ناشفة زي ما أنت عارف.

- ياخسارة يا شريف! منير شاب كويس وعنده علم، كان نفسي يكمل معانا فعلاً، يمكن أنا زوّدتها حبتين في المستشفى ومش عارف إزاي قلت كل الكلام ده بدون حساب، بس أنت عارف حجم الضغط اللي على الواحد ساعات بتيجي لحظات انفجار كده غير محسوبة، ده غير إني معنديش وقت أقعد أطيب خاطره بكلمتين علشان يصرف نظر عن الموضوع، للأسف مضطر أقبل استقالته، خليه يتفضل.

تقدَّم شريف نحو الباب إلّا أنّ السعدني استوقفه سريعًا حينما تذكَّر أمرًا ما:

- صحيح يا شريف، لسه مفيش أخبار عن منال؟

بيأسٍ هزَّ شريف كتفيه:

- لسه يا أفندم.

- متضيعاش من إيدينا يا شريف، البنت دي مجتهدة، وباحثة موهوبة فعلاً

وهتفيدنا كتير الفترة الجاية، خليك وراها وضمها للفريق بأي طريقة زي ما علمتك، أعمل معاها زي ما أنا عملت مع هايدي، المهم في الآخر تبقى بتاعتنا.

- متقلقش يا كبير، هيحصل إن شاء الله.

همَّ بالانصراف، إلا أنَّ السعدني ناداه مرةً أخرى:

- ولو مش هتعرف تخليها بتاعتنا، يبقى متخليهاش ضدنا، البنت دي مش سهلة خالص يا شريف، فاهمني؟

ابتسم شريف بخبث قائلًا:

- إطمنّ يا كبير، أنا عامل حساب كل حاجة.

قالها وانصرف على عجلٍ، تدوِّي جملة السعدني الأخيرة في رأسه متعجِّبًا كيف له أنْ يطوِّع عاطفته لعقله! يرى الحب قرارًا يقرِّبه خطوةً من هدفه، يُسقِط هايدي في حباله أملاً في سطوة ونفوذ والدها، ويطلب منه فعل نفس الأمر مع منال فقط للاستفادة من خبراتها في إدارة حملته الانتخابية!

أمام منير الحانِق توقَّف شريف، دون أنْ ينبسَّ بكلمة أشار إليه بالدخول، تركه وانصرف مضطرب الفكر والوجدان، كعادته دومًا. دلف منير داخل مكتب السعدني الفخم، هائل الاتساع، وقد اصطفَّت في أركانه مئات الكتب من مختلف أنحاء العالم، كما ازدانت حوائطه بعددٍ من الإطارات مختلفة

الأحجام، صُفَّت داخلها مختلف شهادات الماجستير والدكتوراه الخاصة بحازم، توثِّق مدى تقدُّمه في مجالات العلوم الاجتماعية وعلم النفس، دارت عيناه كافَّة أنحاء الحجرة الواسعة، حتى استقرت على جملة صِيغت بحروف معدنية كبيرة تحتلُّ نصف الحائط المقابل لمكتب السعدني: «What you are , think»، يقف السعدني أسفلها مباشرةً، عاقدًا ذراعيه حول صدره، راسمًا على وجهه ابتسامةً وديةً مُشجِّعةً، تنحنح منير مرتيْن ثم قال:

- بعد إذن حضرتك دكتور حازم، كنت عايز موافقة على طلب استقالتي المُسبَّب، وكمان إخلاء طرف وباقي مستحقاتي المالية وشهادة خبرة بكامل الفترة اللي قضيتها هنا.

ردَّ السعدني بهدوئه المعتاد:

- أنت عايز تاخد شهادة خبرة من مكان بننصب فيه على الناس؟ بنبيع ليهم الوهم في صورة علم وبناخد مقابل ده فلوسهم! لو شايفها مفيدة ليك بعدين، عايز تسيب المكان نفسه ليه؟

عبث منير بشعيرات ذقنه النامية باحثًا عن إجابة ما، إلّا أنّه استسلم قائلًا:

- صدِّقني يا أفندم معنديش قدرة على استكمال نقاش بدأناه من شهور فاتت، كل الموضوع إني بوثِّق فترة عملي هنا بغض النظر عن رؤيتي في المكان، أنا قضيت هنا سنين بحاول أوازن أموري زي ما حضرتك قلت فعلًا، لكن بعد ما اتعرّيت قدام نفسي وقدامكم معتقدش إني قادر أكمل ضحك

على نفسي أكتر من كده.

مطّ السعدني شفتيه أسفًا، هزّ رأسه برتابة لعدة ثوانٍ ثم قال:

- خليني أصارحك إني مش مبسوط باللي قلته في المستشفى، لولا إني كنت في قمة غضبي يومها ومقدرتش أتحكم في ردود أفعالي، كان السيناريو بيننا هيبقى مختلف تمامًا الفترة الجاية أستاذ منير. أنا بني آدم زي أي حد ممكن يفقد السيطرة على أعصابه ولو للحظات، اللحظات دي بتكون كافية جدًا إني أخسر فيها حاجات ثمينة جدًا في حياتي، زيك كده يامنير. بس مش معنى كلامي إني أعتذرلك عن اللي قلته لإني متعودتش أعتذر عن حاجة قلتها وأنا مقتنع بيها، وإلا مكنتش قلتها من الأول.

أنهى جملته بصدمةٍ غير محسوبةٍ لمنير، تمنّى الأخير لو أبدى السعدني تشبثًا ولو واهيًا أو مصطنعًا به، ربّما وجد بذاك التشبُّث ما يهدئ صخب كرامته حيث ترتع بثنايا روحه المُثقلة بالألم جرّاء جرحها الغائر يوم أنْ جاست كلمات السعدني خلالها منذ شهورٍ عدة، شدَّ قامته القصيرة نسبيًا بشموخٍ، ثم قال:

- وأنا يا أفندم مش مستني اعتذار، مش هيغير من موقفي في شيء.

اضطرب قليلاً حين لمح شبح ابتسامةٍ ساخرةٍ يلوح بزاوية فم السعدني، تجاهل خاطرًا ما وَمَض في عقله سريعًا، ثم أكمل:

- أنا مُصرّ على موقفي، وعلى حقوقي كمان، وواثق تمامًا يا دكتور إنّ

حضرتك مش هتقف ضد ده لإني لم أعهد عليك حيادك عن الصح طوال فترة عملي معاك.

تقدّم نحوه السعدني ممسكًا بقلمه، تناول الورقةَ منه بهدوء، ودون أنْ يزيد حرفًا واحدًا خَطَّ عليها توقيعه مُتبعًا إيّاه بملحوظةٍ تُفيد بصرْف جميع مستحقّاته وبيانٍ بشهادةِ خبرةٍ طوال فترة عمله في المركز. أعاد القلم لجيبه حين مدَّ يده بالورقة لمنير ليستدير بعدها عائدًا لمكتبه إيذانًا بنهاية اللقاء.

تقدّم منير خطوتيْن صوب الباب، إلّا أنّه تراجع ثانيةً كمَن لاحت له فرصة ذهبيةٌ قد لا تتوافر لمثله مرةً ثانيةً، تقدّم يحتلُّ مقعدًا أمام مكتب السعدني الذي فوجئ بالموقف كلّه، وعلى وجهه عَرْبدت عدّة تساؤلاتٍ لم يمهلْه منير لطرحها حين قال له:

- اعذرني يا دكتور على ردّ فعلي السريع، بس أنا شغال على رسالة الدكتوراة بتاعتي اليومين دول ومنتظر أناقش في أي وقت، وعندي سؤالين كده لحضرتك على السريع هيفيدوني جدًا في الموضوع، وبصراحة معتقدش إني هلاقي فرصة تانية أعرف أتكلم معاك فيها بعد ما أخرج من هنا.

أسند السعدني ظهره بكرسيِّه الجلديّ الوثير، حكَّ ذقنه بأطراف أصابعه في تفكيرٍ عميقٍ مُسددًا نظراته صوب منير قائلًا:

- اشمعنى دلوقتي يامنير؟ أنا قدامك بقالي سنين وياما قعدنا سوا في شغل وعلى كافيهات، مفيش مرة اتكلمت معايا عن حاجة زي كده يعني.

اندفع منير يجيب بعجلة:

- مكنتش أعرف يا دكتور إنك على علاقة بموضوع بحثي، الآراء اللي سمعتها منك يوم المستشفى فيما يخصّ التبرير والخطيئة الأولى لفتت نظري إنّ ده في صميم الفرضية بتاعتي.

يهزّ السعدني رأسه باقتناع مُستحثًا إيّاه على طرح أسئلته، يبتلع منير ريقه بصوتٍ مسموعٍ، يأخذ نفسًا عميقًا قائلًا:

- فرضيتي الأساسية بتقول إنّ فيه علاقة طردية بين السلطة والمال، بمعنى إنّ غالبية أصحاب السلطة والنفوذ زي رجال الشرطة والقضاء بيسعى غالبيتهم للحصول على المال الوفير بأيّ طريقة، بالرغم ممّا يبدو ظاهريًا عدم احتياجهم ليه لإنّ نفوذهم بيسهل ليهم أيّ حاجة، غير إنه بيحميهم كمان. نيبجي بقى لأصحاب الملايين، هتلاقى برضه غالبيتهم بعد الوصول لتحقيق كلّ أحلامهم بفلوسهم اللي ملهاش حساب بيدوروا برضه على امتلاك سطوة أو سلطة ما.

حصانة في مجلس الشعب، منصب سياسي في حزب، جوازه من عيلة تقيلة في القضاء أو بنت وزير مثلًا، أو حدّ من ولادهم يدخل شرطة أو حربية، يبقى سفير أو وكيل نيابة، المهم أيّ سلطة والسلام. وفي سبيل ده بيصرفوا ملايين وملايين.

الدراسة بتاعتي بالدلائل والإحصائيات، ومن خلال عيّنات عشوائية قدرت

أثبت فعلًا وجود الظاهرة دي بنسبة كبيرة، السؤال بقى: ليه كل طرف من الاتنين يتعب نفسه أوي كده علشان يوصل للي عند الطرف التاني؟

بكلّ تركيز يُصغي السعدني لشرح منير المستفيض، دون أنْ يُبدي نيّته في إنهاء الحوار، يولّي جُلّ اهتمامه لمَا وصل إليه طوال سنين رسالته التي قاربت الخمس سنواتٍ متواصلة، كأنّما كان منير يؤرّخ لخطوات السعدني دون أنْ يدري، تلك الخطوات التي وضعها خريطةً لرسالته في الحياة منذ أكثر ما يقارب العشرين عامًا مضت، ثلاثيُّ القوّة المطلقة؛ المال والسلطة والشهرة. استغرق ثوانٍ في خواطره، عاد بعدها يُفيق على جملة منير حين قال:

- كلامك عن الخطيئة الأولى أكّد ليا إن الموضوع مش مرتبط بالعصر اللي احنا فيه، ده من زمان يكاد يكون وجوده من وجود البشرية ذاتها، وهو إن الناس عندها ميل فطرى للقوة، حاجة كده زي الغريزة بتمارس كمذهب أو عقيدة بدون أي رابط بينهم، بتخليهم ينجذبوا ناحية اللي بيحقق ليهم الإحساس ده حتى لو هيتسبب في دمارهم في النهاية، زي الفراشات اللي بترمي نفسها وسط النار وهيه بتدور على النور.

الموضوع ده من أول الالتفاف حوالين زعيم القبيلة، لحدّ الأنظمة الحاكمة في كل العالم، مرورًا بالقائد والفتوة ورئيس العصابة وكبير المنطقة، وكل المصطلحات اللي زيها؛ لازم شمس تدور حواليها كواكب ونجوم...

يقاطعه السعدني باستفسار:

- وده أيه علاقته بموضوعك الأساسي؟ دي حاجة أكبر منه، أعمّ وأشمل يعني.

يردُّ منير بهدوء:

- ممكن ميكونش ليه علاقة مباشرة، بس لو فهمت السبب كويس أقدر أحدد هوه ينفع يكون جزء من الرسالة، ولا الموضوع أكبر من الفرضية بتاعتي أصلاً.

هزَّ السعدني رأسه دلالةً على استيعاب ما يحاول منير شرحه، أردف قائلاً:

- وصلت الفكرة أستاذ منير، أنت عايزني أشرح الأمر وفقًا لخبراتي أو وجهة نظري فيه.

الموضوع كلّه يتلخّص في كلمة واحدة: الشهوة. ممكن ترقى لمستوى الغريزة عند البعض يعني مالوش غنى عنها، وعند البعض ممكن تكون مذهب أو سبب للوجود، مكرّس كل حياته للوصول ليه، وقلة قليلة بتشوف الأمر تحصيل حاصل، يعني قدروا يتحصّلوا عليه يبقى خير وبركة، مقدروش يبقى مفيش مشكلة.

الغالبية بقى بتنحصر في النوعين الأول والتاني، دول اللي بيمارسوا طقوس شبه يومية من أول ما يفهموا الدنيا من حواليهم ولحدّ ما يغمّضوا عيونهم ويفارقوها، كل هدفهم الوصول للسلطة الكاملة أو أي جزء منها حتى وإن

أنكروا الهدف ده، نقدر نقول بيمارسوا دين موازي لدينهم الأساسي وقد يطغى عليه كمان، ليه قواعد وقوانين خاصه بيه اللي بيقدر يعيش بيها بيوصل في النهاية، واللي مبيقدرش بيفضل يحاول لحد ما تنتهي حياته.

الخطورة مش في كل ده يا منير، دي حاجة متأصلة فعلاً في البشر وعلى ما يبدو لا ليها سبب منطقي ولا حتى حل، الخطورة فيما بعد الوصول للقوة المطلقة، لمّا حد بيملك القوة دي اللي حواليه بيضعفوا واعتمادهم عليه بيزيد، وميقدروش يخرجوا برة دايرته مهما حصل. يعني المشكلة الحقيقية في طبيعة العلاقة بين أصحاب القوة المطلقة دي وبين أتباعهم، حاجة كده زي الأنتروبيا في الفيزيا، بيبدأ الموضوع بنظام صارم وقوي يميل تدريجيًا لفوضى عارمة، لحدّ ما يدمّر نفسه بنفسه، ويدمّر كمان كل اللي حواليه.

هزَّ منير رأسه دلالةً على عدم الفهم، ورغبةً في أنْ ينهل مِن خبرات السعدني المتشابكة. أكمل السعدني:

- هحكيلك حكاية وأنت افهمها زي ما تفهمها؛ في ليلة شديدة السواد مرّ اتنين من السناجب تحت جذع شجره ضخم، شافتهم بومة فصرخت فيهم «انتوا رايحين فين؟» بخوف ودهشة السناجب وقفت تدور على مصدر الصوت، صرخوا مين شايفنا في الضلمة الرهيبة دي؟ ردت عليهم البومة «أنا البومة شايفاكم»، جريوا على الغابة بسرعة يبلغوا باقي الحيوانات والطيور إن البومة هيه أعقل الحيوانات وأكثرها عظمة لإن عندها قدرة رهيبة على الرؤية بالليل! الهدهد حبّ يتأكد من الكلام ده راح عندها وسألها أنا عندي

كام مخلب قالتله اتنين، قالها مظبوط فعلاً، ورجع لباقي الحيوانات يؤكد كلام السناجب. سأل التعلب سؤال مكّار زيه: «يا ترى هيه بقى بتشوف بالنهار كويس كده زي ما بتشوف بالليل ولا لأ؟» الكلب انضمّ ليه في الاستفسار وقال آه يا جماعة عايزين نعرف الحقيقة إيه.

فضلت باقي الحيوانات والطيور تتريق عليهم وعلى سذاجة أسئلتهم، بقى يعني معقول حدّ ميشوفش بالنهار ويشوف بالليل، وفي آخر الأمر طردوهم من المنطقة! بعتوا ليها حدّ منهم يطلب منها تكون الزعيمة عليهم، ولمّا وصلت ليهم كانت الشمس قوية وطبعًا هيه مش بتشوف بالنهار كويس أصلاً، فاضطرت تمشي على مهلها وده خلّى مظهرها وقور زي الزعماء، وكمان قعدت تبحلق بعنيها وتركز قدامها علشان تقدر تشوف، وده خلاها أكثر رهبة وهيبة، قامت فرخة شافتها بتعمل كده قالت عليها دي مش مجرد زعيمة عادية، دي أكيد حاجة أكبر وأعظم، دي إله!!

الباقيين سمعوا صرخة الفرخة قعدوا يهللوا وراها: البومة إله. إله ياجماعة!

بعد كده بدأو يقلدوها في كل حاجة، مشيتها البطيئة، نظراتها الثاقبة، وكلّ ما تخبط في حاجة أو تتكعبل يتخبطوا هما كمان ويتكعبلوا زيها، لحد ما وصلت لمنتصف شارع كبير ووقفت، طبعًا وقفوا وراها مستنيين هتعمل إيه.

شافهم صقر بيطير، وشاف عربية نقل كبيرة جاية عليهم من بعيد بسرعة،

بدأ يحذرهم: يا جماعة الخطر جاي عليكم! يا جماعة اتحركوا بسرعة! سألوا البومة: الصقر بيقول الخطر جاي علينا! ردت بهدوء: فين ده! أنا مش شايفة حاجة! صرخ فيها الصقر: إنتي مش خايفة؟ ردّت بكل ثقة: أخاف من إيه!!

صرخ باقي المجموعة بهيستريا لما شافوها واثقة من نفسها وقدراتها: هيه إله، هيه إله! وفضلوا على الحالة دي لحد ما خبطتهم العربية.

فهمت حاجة يا منير؟!

القانون رقم (١٠)

لا تشرق أبدًا أكثر من السيد

اجعل أولئك الذين فوقك يشعرون دائمًا بتفوّقهم بشكلٍ مريح، لا تذهب أبعد من اللازم في إظهار مواهبك، وإلا فلن تقدر على إرضائهم وإثارة إعجابهم، بل قد تحصل على العكس. لذا اجعل السادة يبدون ألمع ممّا هم في الواقع، باغِتهم في أنسب لحظات قوّتك وأكثرها ضعفًا بالنسبة لهم ثم انتزع منهم قمة السلطة.

٢٦

تقف أعلى قمة الجبل.

تهتف وتهتف، ويعلو صوتها كلّما مرّ الوقت. تتقافز فرحًا وفخرًا، تشرق ابتسامتها لتضيء وجهها لتفيض على باقي الكون أملاً وضياءً.

فجأةً، تنبت يدٌ سوداء أسفلها، تنشقُّ من أعماق الجبل، تمتدُّ مُتعرِّقةً يتقاطر منها لهيبُ باطن الجبل المنصهر، كما تتقافز ينابيع الحمم البركانية موضع الانشقاق، حمراءُ متأجِجةٌ تتجمّع زاحفةً نحوها بنهم جنونيٍّ! تحاول اليد أنْ تقبض على قدمها، تزحف بغضبٍ محموم رغبةً في الإيقاع بها، ابتلاع ما تبقّى منها في أعماق الجبل، صهر محتواها بجحيم الحمم الشيطانية الجشعة!

تحاول هايدي أنْ تصرخ فلا تجدُ لها صوتًا، تمتدُّ يدها نحو فمها تعبث أصابعها بفزعٍ تبحث عن مكانه فلا تجده، ترتفع لأنفها تتحسَّس انبعاجه،

تضغط عينيْها تحت وطأة أصابعها، ثم تهبط مرةً أخرى لموضع الفم فلا تجد سوى ذقنها فقط، لا شيء آخر!

تقفز مِن هول الصدمة، وهربًا مِن اليد الشيطانية واللهب المنساب يأكل كلّ ما يطاله في طريقه، يرسم خطًا أسودَ تفوح منه رائحة الشواء. تتعثّر إحدى قدميْها لتنهار أسفلها بعض الصخور، تهوي معها هايدي مِن أعلى قمّة الجبل حين يفاجئها سفْحُه هائل الانحدار.

شهقةٌ مكتومةٌ تُطلقها على حين غرةٍ، تتزامن مع دويّ صافرات بعض الأجهزة، معلنةً عن نشاطٍ حيٍّ مفاجئٍ وبالغ الشدّة لتلك الراقدة منذ شهور على سريرها، هُرِع على أثرها الفريق الطبيّ المصاحب لها في مُحاوَلة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

أمسك أحد الأطباء بيدها يُحصي النبضات، يحاول فتح أجفانها المرتعشة والعبث بمصباحٍ صغيرٍ داخل حدقتيْها، يحاول الآخر قراءة إحداثيات أجهزة الضغط ودقّات القلب وباقي أنشطتها الحيوية، تحاول ثالثةٌ حقنها بما قد يعجّل بكسر ذاك الجمود وعودتها للحياة من جديد.

انهمك ثلاثتهم عدّة دقائقَ في سباقٍ محمومٍ للوصول بجسد هايدي، لإنهاء حالة الغيبوبة تلك واستعادته مِن براثنها لأرض الواقع مرةً أخرى، إلى أنْ هزّ أكثرهم خبرةً رأسه بانكسارٍ قائلاً:

- مفيش فايدة، مجرد كابوس زي اللي قبله.

السحب ثلاثتهم يجرّون أذيال الخيبة، تاركين الجسد يعود لكامل ثباته مرةً أخرى.

٢٧

يصطفُّ أمامه مائةٌ مِن خيرة شبابه.

على مدار خمس سنواتٍ وضع شروطه الصارمة، صار ينتقل مِن مكانٍ لآخر يلقي الخطبة تلو الأخرى، يُطلِق العديد من الحملات لجذب مئات الآلاف من المتحمسين في شتّى المجالات، ينفق في سبيل هدفه آلاف الجنيهات والساعات من العمل المُضني، فقط ليَصطفيهم. نواة فريقه الخاصّ، مَن يعهد إليه بحمل رسالته لنشرها لمئات السنين القادمة.

فلسفتُه التي جمعها طوال رحلته القصيرة منذ تحرّك الجبل في مستنقع ربيعة، وحين اضطرّبت الأمواج في أعالي المتوسط، حين أسلم نفسه لحرس الحدود الإيطاليين، وحين ابتسمت له الدنيا في بلاد الخواجات، حين قابل روبرت جرين (٣) بإحدى جامعات إيطاليا، فأعطاه نسخةً مِن كتابه المذهل «قوانين القوة المطلقة». ألقته المقادير لحضور إحدى ندواته، تحدّث فيها

عن كيفية الإلمام بزمام السلطة، كيف لك أنْ تنمو وتترعرع وتسود، وكأنّه أتى له خصيصًا ليضع كلمة النهاية بأحاجي رسالته العظيمة، حين مال على أذنه ينصحه:

- إذا أردت أنْ تخلد في هذه الدنيا، لا تترك مالاً وفيرًا أو قصرًا مهيبًا، فقط اترك فكرةً واخلق لها مؤيدًا.

وحين استقرّت طائرته مرةً أخرى عائدةً به إلى أرض الوطن، كان قد علم ما يتوجّب عليه فعله تمامًا. انطلق يجمع خيوطه، يصفُّها سويًا، يزيل العوائق ويشذّب الصفوف، ويضع في النهاية الرباط الموثق لهم جميعًا.

منهجه الكامل للارتقاء والسيادة، أو كما يحلو له أنْ يُطلق عليه قوة التغيير حلقةٌ أخرى في نظرية التطور، يضمُّ خيوطها سويًا ليصنع منها رداءً متينًا ينسجه بكلّ احترافٍ حول عقول أتباعه فلا يروْن سواه طريقًا للنجاح. يرتكز المنهج على مراحلَ ثلاثة: جاهد لترتقي أولاً، تسود ثانيًا، تمتلك مَن هم أدنى منك في الأخير!!

جاهِدْ بكلّ ما تملكُ مِن قدرات وإمكانات مهما كانت الظروف والعقبات، فلن تصير أكثر قوةٍ وأفضليةٍ إلا بقدرتك على الارتقاء بأيّ طريقة، فلا يوجد شيءٌ اسمه طرقٌ مشروعةٌ أو غير مشروعةٍ سوى في عقولٍ احترفت وضع العوائق، أنتَ مَن يحدّد مدى مشروعية مسلكك، فالطرق كلّها واحدةٌ والسالكون عدةٌ.

ما إنْ تسود، يعلو قدرك وتزداد قيمتك بنظر نفسك وعيون الآخرين، يصل معدل إيمانك بذاتك وثقتك في قدراتك إلى أقصى مداه، لذا ترجح كفّتك دومًا. يحقُّ لك وقتها أنْ تُزيح غيرك عنوةً لتثب مكانه في لحظات طالما لم يَقْدِر على الحفاظ عليه أو توطيد أركانه، كما يحقُّ لك أيضًا أنْ تتحكّم به أو تستخدمه بما يخدم مصالحك ونفوذك، طالما أنت الأفضل لتتقدَّم خطوةً تلو الأخرى، تكسب أرضًا جديدةً في كلّ مرة، تُزاحِم دومًا لتحجز مقعدًا في المقدمة، ترى البشر مِن أعلى، تستعبد منهم مَن يحلو لك، تبصق عليهم إنْ أردت، أو تمنحهم بسمةَ أملٍ ماكرة!

يصير الناس جميعًا أحذيةً رُصّت أمام عتبتك، تنتعل منها ما تشاء، وفقًا لما يحقّق هدفه المنشود. طريقٌ وعرةٌ ملأى بالعثرات، ممرٌّ طويلٌ قد يمتدّ لسنواتٍ أو ربما حفلةٌ أنيقةٌ في أحد الفنادق. وما إنْ يبلى حذاءٌ ما تخلّصْ منه تمامًا، فلا تترك أدراجك تعجُّ بالأشياء عديمة الجدوى.

لا يقتصر الأمر لدى السعدني على السيادة والاستعباد فحسب، بل يتطوّر ليصير منهاجًا ينظّم الحياة، يحفظ للمجتمع تماسكه وبناءه! فالجانب الآخر لفلسفته يتجلّى فيمن لم يقدر على الارتقاء والسيادة رغم تكافؤ الفرص، يصير لزامًا عليه أنْ يهنأ بدور التابع قانعًا خاضعًا بلا أدنى رغبةٍ في المقاومة أو التذمُّر، يمارس دوره بكلّ إخلاصٍ وتفانٍ كأنّما خُلِق له منذ البداية، هكذا تستقيم المعادلة ويهنأ المجتمع بالسلام المفقود!

وأمام جيشه الصغير يبتسم السعدني، راضيًا بما وصل إليه من نجاح،

مستكينًا لقدرة فريقه على إحداث الأثر المطلوب. بعد سنين عدة، قد تمتدُّ لعشراتٍ أو قد تقصُر فلا تتجاوز عقدًا واحدًا، ينتشر منهجه وتغزو فلسفته كافّة العقول، مدعومةً بعشرات الكتب وآلاف الساعات المرئية وعشرات الآلاف من الألسنة القانعة تمامًا بكلّ حرفٍ جاء بها، بعدها يصير المجتمع كلّه نفس الفكر والأسلوب، مؤمنًا تمامًا بقوّة التغيير الحتميّ، ينطلق في سباقه نحو القمة، سباقٌ يأكل فيه القويّ الضعيف، يُخضِعه لسلطته بأيِّ وسيلةٍ كانت كما يُسلِم فيها الضعيف بقلة حيلته فينزوي ويهدأ.

يا لها من فوضى قد تندلع لسنين! تقلب كلّ شيءٍ رأسًا على عقبٍ، يدفع فيها الجميع ثمن تركه هناك بحضن الجبل وحيدًا يتلقّى الصفعات والركلات أسفل حائطه، يسلم روحه للانصهار تحت وطأة ضربات أبيه وأمه اليومية بجدران كرامته المسفوحة، وقلبه المتآكل من الحقد الدفين.

يدقّ بقبضته على منصّته التي تعلو القاعة فتصمت الهمهمات، تشرئبُّ الأعناق برهبةٍ، تنتصب بوجلٍ لما يودُّ أنْ يقول:

- هنتكلم النهاردة يا شباب عن مفهوم محوري ومهم جدًا في منهجنا، مفهوم الخلاص. الخلاص من الخطيئة، أو التطهُّر من الذنب.

قالها وبرقت عيناه بتركيزٍ جذلٍ، استطرد قائلاً:

- لإننا بشر بدأت حياتنا على الأرض بخطيئة، كل واحد فينا بيشوفها بشكل مختلف، وكمان بيتطهر منها أو بيكفّر عنها برضه بطريقة مختلفة؛ اليهود

مثلا عندهم أي حاجة غلط بيعملوها مهما كانت شدتها، حتى لو اغتصاب أو قتل، مش خطيئة إلا لو وقعت على يهودي، أو تضرّر منها يهودي، ماعدا كده فمعندهمش أي مشكلة في أي غلطة تحصل!

لو يهودي بقى هوه اللي أخطأ في حق يهودي تاني فممكن يكفّر عن ده بحضور يوم الغفران، أو تقديم هدايا للكهنة علشان يحصل على صك الأمان، بس كده الموضوع سهل.

أما أخواتنا المسيحين، الخلاص عندهم ليه فلسفة خاصة جدًا ومتشابكة، لدرجة إن كتير منهم ممكن ميستوعبش تفاصيلها كلها أو يستوعبها بس ميعرفش يشرحها كويس؛ الفكرة عندهم مرتبطة بالخطيئة الأولى لآدم، واللي تطورت علشان تكون خطيئة أبدية لازم يدفع تمنها كل الجنس البشري، فالرب لم يجد أمامه حل غير أنه يبعت ابنه للأرض موكلاً إليه تخليص البشرية من خطيئة الأب الأول آدم، مسلمًا ذاته لليهود ليصلبوه، فبموته تتخلص البشرية من الخطيئة الأولى.

أمّا باقي الخطايا الدنيوية للمسيحين، فالكنيسة ليها حق غفرانها عن طريق جلسات الاعتراف وصكوك الغفران أو الحرمان، نقدر نقول الموضوع برضه سهل نوعًا ما.

في الإسلام بقى الموضوع مختلف شويه؛ الخطيئة والخلاص ليها مسميات تانية: الذنب والتوبة. والأمر كله بينصبّ في اعتراف الفرد ببشريته

المنقوصة، والقائمة في الأساس على الخطأ والتوبة، بس بتختلف درجة غفران الذنب وفقًا لنية الفرد في الإحساس بقوة أو عظم الذنب نفسه، يعني المؤمن الصح بيشيل هم الذنب في قلبه حتى لو بسيط زي الجبل العالي، أما ضعيف الإيمان أو المنافق بيشوف نفس الذنب ده زي الدبانة لما تقف على مناخيرة فيقوم يهشها بإيده.

وهنا بنلاقي مفيش وساطة بين العبد وربه، ومفيش شرط دنيوي لقبول التوبة أو التطهر من الذنب غير اللي أنت حاسّه في قلبك، حاجة كده بينك وبين ربك. ودي من وجهة نظري، أصعب شوية من اللي قبلها.

حد عنده أيّ أسئلة؟

قالها وتراجع خطوتيْن بانتظارِ الردّ على استفسارات فريقه. رفع أحد الأعضاء يده بثبات، شابٌ في مقتبل العشرينيات من العمر، احترف التسوّل منذ أنْ وعى للدنيا معنًى وحَيِّزًا، انتشله السعدني منذ ثلاث سنوات، ألحقه بمؤسسته الخيرية واضعًا إيّاه تحت المجهر إلى أنْ ضمّه للفريق قبل الثورة بشهرين تقريبًا.

أَذِن له السعدني بالحديث، نهض بثقة متسائلاً:

- هنستفيد إيه من معرفتنا لمعنى الخلاص في كل الديانات دي، طالما تعريفنا إحنا للمفهوم هوه اللي هيحدد طريقة التعامل من خلاله؟

ضيَّق السعدني عينيْه محاولاً التركيز في معنى السؤال، استفسر عنه في

النهاية:

- تقصد إيه إنّ تعريفنا إحنا للمفهوم هوه اللي هيحدد طريقة التعامل من خلاله، يا رأفت؟

شدَّ رأفت قامته بزهوٍ حين خاطبه القائد باسمه، برقت عيناه بفخرٍ حين قال:

- زي ما قوانين الفريق هيه اللي بتشكل إطار حياتنا وخطوطه العريضة، طرق التعامل في مختلف المواقف، والحل لكل مشكلة بتقابلنا، أكيد المفاهيم اللي بتساعدنا على التكيف زي الخلاص والتطهير والمرونة والانقضاض، وغيرها من المفاهيم اللي بنتعايش من خلالها، تعريفنا ليهم جوه الفريق هيه اللي هتكون صح في النهاية.

هزَّ السعدني رأسه دلالةً على إعجابه الجمّ بمدى تطوُّر عقلية أعضاء فريقه وارتقاء فهمهم للأمور المجردة، ثم قال:

- معاك حق يا رأفت في كل اللي بتقوله، إلا لمّا يتعلق الأمر بالدين، لازم في الحالة دي تتعامل بكل حذر، تستعين بكل خبراتك وقدراتك على المراوغة للإطباق على المعنى المطلوب لإنك في منطقة ألغام، حاجة كده زي علاقة الواحد بأهله، بوطنه، بصميم وجوده.

لمّا تمسّ حاجة تخصّ الدين قدام عدد كبير، دوَّر على أقوى وسيلة إقناع، إنك تعرض الأمر من مختلف الزوايا بكل حيادية وتشكك في الثوابت بصورة

غير مباشرة، توصل للي قدامك إن مجرد وجوده في الفئة الفلانية مش دليل على إن اعتقاداته أو تفسيره للمفهوم لازم بالضرورة يكون صح.

تسيب الفكرة تختمر وفي الآخر اختم بوجهة نظرك، كده تبقى بدأت أول خطوة في مشوار تغيير المعتقد الراسخ بأعماق الفرد، تدريجيًا بصورة غير مباشرة ركز على وجهة نظرك أنت بس وتجاهل أي طرح تاني، صدّقني في النهاية، هتوصل للي أنت عايزة بصورة أعمق وأقوى.

عارف يا رأفت لو عندك صخرة كبيرة ومعاك جردل مليان ميه؟ وقررت إنك علشان تغير شكل الصخرة دي بالمية اللي معاك قمت حدفتها عليها مرة واحدة إيه اللي هيحصل؟

هزّ الفتى رأسه بحيرة مجيبًا ببساطة:

- ولا حاجة طبعًا، الميه هتخبط في الصخرة وتسقط على الأرض وبس.

يشير السعدني بسبابته نحوه وهو يصيح بحماس:

- برافو عليك، مش هتعمل حاجة! إنما لو ربطت الجردل ده في جذع شجرة فوق الصخرة بالظبط، وعملت فيه فتحة صغيرة على قد نقطة نقطة تنزل منه على الصخرة، بإيقاع معين وتوقيت دقيق، ساعتها إيه اللي ممكن يحصل؟!!

خَفَتَ صوته تدريجيًا حين وصل لتلك النقطة تاركًا لهم متعة الوصول للمعنى من تلقاء أنفسهم، يبحث بوجوههم أثر كلماته النافذة، تعرف طريقها نحو

أعماق عقولهم حديثة العهد بالفكرة، وداخل أرواحهم المتعطّشة دومًا للشعور بالذات.

- وده اللي خلاني لمّا قررت أنشر فكري ومنهجي اخترت التنمية البشرية، أحسن وعاء ممكن تغلّف فيه أفكارك وتوصلها للناس من غير ما حد يشكك في نواياك، وكمان بتلاقي أرض خصبة تستقبل الفكرة نفسها. وفي الآخر مش عايزكم تنسوا قاعدتنا الذهبية في الأمور اللي زي دي، مش المهم إنت بتقول إيه، المهم بتقوله إزاي.

قبل ما اختم معاكو جلسة النهاردة يا شباب هسيبكم مع أستاذ شريف أخوكم الكبير زي ما أنتوا عارفين. هيشرح ليكم مفهوم الخلاص من وجهة نظرنا إحنا، وهوه بالمناسبة هيكون قائم بكل أعمالي هنا وفي المركز وكمان في المؤسسة لحين ما أرجع من سفر مؤقت كده، شهرين تلاتة.

التهبت أكفُّهم بتصفيق رزين مُودِّعةً قائدهم العظيم، لتستقبل أخاهم الأكبر وفقًا لترتيب الفريق المُعدّ سلفًا بلائحة العمل المنظمة لهم، تقع لديهم بمثابة دستورٍ قراراته نافذةٌ وقوانينه أبديةٌ لا تُمَسُّ أو تُخرَق.

استقبلهم شريف بابتسامة ودّية تعلّم جيدًا كيف يُبقيها على وجهه أغلب الأحيان، قُرْبُه من معلمه طَبَعَ الكثير من شخصية الأخير عليه، جعله أكثر وعيًا لِما حوله، وأكثر نضجًا فيما يخصّ المغزى الأساسي لفلسفة السعدني؛ الارتقاء والسيادة.

صار مثالاً للتابع الأمين، قدوةً في الانتماء ونكران الذات، لذا وضع السعدني فيه كامل ثقته، أسند إليه ما لم يسند لغيره من قبل، كما فتح له خزائن أسراره، باستثناء سرِّه الأكبر، ذاك الذي لا يعلمه غيره في هذا الكون، يوم أنْ كانت له حياةٌ سابقةٌ، وملامحُ فتًى يُدعى فرج أبو دراع.

جال شريف بوجوههم جميعًا، قبل أنْ يتفوّه بجملته الوحيدة:

- الخلاص بالنسبة لينا هو التحرر من كل الظروف اللي بتسبب ليك بؤس وشقاء في الدنيا دي وبتحول بينك وبين الوصول للسعادة المنشودة. وكل ما دفعت تمن تحرك كل ما اقترب موعد خلاصك.

أنا كده خلصت. مين مستعد يدفع التمن؟

ارتفعت جميع الأيادي في رغبةٍ محمومةٍ لبذل كلّ شيءٍ، واجتياح أيِّ شيءٍ، فقط لبلوغ مرحلة الخلاص التامّ، أعلى مراتب مذهب السعدني، السيادة والاستعباد.

٢٨

رأسه صار صفحةً بيضاءَ، سطحًا أملسَ حريريَّ الملمس بلا أيِّ رتوشٍ أو نتوءات! لا يشعر بما حوله، تحمل جمجمته تجويفًا فارغًا من أيِّ معلومةٍ سبق أنْ مرَّت به!

يحاول مستميتًا كبح جماح ذاك الشعور القاتل بالقلق، رغبته المميتة لدخول دورة المياه كأيِّ طفلٍ مذعورٍ تُطبق على ذراعه قبضة المُشرفة الصحية في مدرسته الابتدائية، تأهُّبًا لغرس إبرة المحقّن بها لإعطائه تطعيمًا ما، أو لعلّه ذلك الطالب المستهتر حين غافله امتحان «التيرم» وهو مازال يتسكّع في «كافيه» الكلية مع شلّته التي لا تعرف للكتاب طريقًا طوال العام!

يحاول شريف تهدئته ببعض تمارين التنفس، إبقاءه مسترخيًا يتمتّع بأقصى درجات التركيز وصفاء الذهن حين يحين الوقت لبدء المناقشة لرسالته الأهمّ في تاريخه الشخصي الحافل بشتى أنواع الخبرات؛ في حُجرة الإعداد

يجلس منير، تصطكُّ أسنانه كمَن يُجابِهُ عاصفةً ثلجيةً، أطرافه هربت منها الدماء كما هربت كافة المعارف من عقله!

لعلَّه الخوف مِمّا هو قادمٌ، نكص بمنير صوب فترات كان يعاني فيها بشدة مِن المواقف الضاغطة، أو تلك التي يُطلَق عليها محطاتٌ فارقةٌ، أو لعلّها الرهبة حين تتحوّل إلى قلقٍ عارم، يكفيه أنْ تضمّ لجنة المناقشة واحدًا من أهمّ وأقوى الأسماء في الطبِّ النفسيّ في الوطن العربي، لذا ترى الرهبة حاضرةً بقوةٍ داخل القاعة، أو لعلها أبرز الحضور على الإطلاق.

حتمًا هو الإعداد الجيد، حين يثق كثيرًا بقدراته تصبح حالته مُزريةً قبل أيّ امتحان، وما إنْ تبدأ الأجواء حتى يفلت الزمام فلا يبسط سيطرته على قلمه أو تدفُّق معلوماته الغزيرة، ليظلّ يبدع ويبدع حتى ينتهي الوقت، ليفاجأ بنفسه كم كان مذهلاً ومربكًا في آنٍ واحد!

- يابني ارحم نفسك شويه! ده تالت فنجان قهوة سادة تشربه في نص ساعة! تلاقي جهازك العصبي دلوقتي مشدود ولا أستك الفلوس في إيد عيل رخم داير يلسع بيه قفا صحابه.

ابتسم منير لدعابة شريف ابتسامةَ مجاملة دون أنْ يردّ، أكمل شريف:

- إنت قلقان من إيه بس؟ بقالك أكتر من خمس سنين شغال على الرسالة ومتمكن من كل أجزاءها، وأكتر من مرة كنت مستعد مليون في المية وقبل المناقشة بأسبوع ولا عشر أيام تتأجل لدواعي أمنية أو سفر حد من اللجنة

أو تعقيدات في تراخيص القاعة، يعني الموقف ده أنت استعديت ليه كتير قبل كده والمفروض في كل مرة تكون أكتر ثقة من اللي قبلها.

سحب منير نفسًا عميقًا من أنفه ملأ به رئتيه على أقصى اتساعهما، تركه في الداخل لثوانٍ قبل أنْ يزفره بقوةٍ بصحبة الكثير من القلق، أردف قائلاً:

- للأسف يا شريف، ده طبع فيا لما بكون مقبل على حاجة مهمة أو محطة مصيرية في حياتي. الرسالة دي تكاد تكون أهم نقطة تحول ممكن تحصلي لو اتقبلت وبقيت دكتور، دي هيا أهم نقطة فعلاً.

صمت قليلاً حين شرد لبرهةٍ، تتزاحم في رأسه خواطرُ شتى، ثم أكمل:

- ده غير إنها طوق النجاة الوحيد ليا الفترة دي، خصوصًا بعد ما تركت العمل معاكم في المركز ورجعت للشارع تاني. كبرت خلاص على البهدلة يا شريف، وأهو زي ما أنت عارف قربت على الأربعين ولا بيت أتلم فيه ولا قرشين تحت بلاطة أتسند عليهم لما أعجِّز، ولا واحدة تستنى رجوعك آخر اليوم بحتتين لحمة وكيس رز من الجمعية، ولا حضن عيل ينسينك مُرّ الأيام يملا البيت تنطيط وعفرتة. يعمل «ببيي» على هدومك تقوم لاعنه ولاعن اليوم اللي شفت فيه وشه ووش أمه. وبعد دقايق تاخدهم كلهم في حضنك وإنت قاعد بالفانلة الحمالات تاكل بطيخ وبتتفرج على مسرحية العيال كبرت للمرة التمانين!!! والغريب إنك هتضحك من قلبك ياشريف!

تختنق روحه بدموعه الحبيسة، حاول كبتها لتفلت رغمًا عنه تُحرِق وجهه،

اضطرب صوته حين قال:

- نفسي أضحك من قلبي يا شريف. أنا تعبت أوي.

أحنى صديقه رأسه بتأثرٍ، ربَّت على كتفه مرارًا ليواسيه، منحه عناقًا أخويًا ترك خلاله العنان لفيض دموعه يغرق قميص شريف الذي ما عاد يبالي سوى بمعاناة صديقه الدائمة. دقائقُ مَرَّت عليهم كالدهر، دلف بعدها أحد العاملين يُخطِر منير أنَّ اللجنة قد اكتملت، فأمامه خمس دقائقَ فقط لتبدأ المناقشة وعليه أنْ يستعدّ.

بأطراف أنامله يمسح منير دموعه في عجالةٍ، ترتعش يداه تحت وطأة تأثُّره ممزوجةً بقلقٍ خفيٍّ يتعاظم كلما اقترب الوقت، وعلى باب القاعة قرأ آية الكرسي والمعوذتين، تمتم ببعض أدعية التيسير والنجاح، شدَّ قامته بثقةٍ وثباتٍ، ثم أدار مقبض الباب وانساب بكلّ هدوءٍ إلى الداخل.

٢٩

القاهرة - نوفمبر ٢٠١١

حين قرر الظهور مرةً أخيرةً في وسط الميدان قبل أنْ يختفي عن الأنظار لفترةٍ، اختار شارع محمد محمود وقت اشتعلت الأحداث فجأةً بين شباب الثورة وقوات الشرطة.

نصحه شريف كثيرًا أنّها أنسب فرصةٍ للظهور وسط المعمعة، خاصةً بعد أنْ أعلن الإخوان اعتزامهم عدم المشاركة في أيّ فعالياتٍ أو النزول لمؤازرة الشباب هناك، كما أنّ الانتخابات باتت وشيكةً ونجاحه فيها مضمونٌ تمامًا يعزّزه بقوةِ هذا التواجد، حين يؤكد الرمز والقائد حتمية الذود عن باقي أتباعه حتى لو كلّفه الأمر المخاطرة بحياته من أجل القضية!

هكذا هيّأ له شريف الأمر رغم خطورته، يطأ أرض الميدان بصحبة خيرة شباب فريقه، ثم يتمركز في وسط الدائرة ليكون بمنأًى تامٍّ عن أيّ مناوشاتٍ

قد تجري من آنٍ لآخر في ذلك الحيّز الضيق من الشارع.

ساعةٌ على الأكثر، ينسحب بعدها لتحلّ محلّه أبواقه الإعلامية ترغي وتزبد في بطولاته الجمّة وتضحياته الهائلة من أجل الثورة والثوار، بصحبة صورتَيْن تُلتَقَط في غفلةٍ منه مدعومةً بعشرات الآلاف من «الشير» اللاإرادي على منصات التواصل الاجتماعي، كما يفعل دومًا!

لا يدري حازم على وجه الدّقة ما الخلل الذي حدث وقتها، حين وجد نفسه فجأةً في قلب الاشتباكات تتلقّفه الأيدي يمنةً ويسرةً! على حين غرة، أبصر نفسه في مدخل الشارع، ثوانٍ أخرى وأصبح في المنتصف تقريبًا لا يكاد يعي شيئًا سوى طلقات الخرطوش وضباب قنابل الغاز الخانق. أسفل لافتة خشبية تركها أحد الثوار بعد أنْ استخدمها كدرعٍ يصدُّ به هجوم الأمن، توارى السعدني، يركّز كافة جهوده للخروج من هذا الفخ القاتل، كما يحاول استعادة الصورة كاملةً.

منذ دقائق قليلةٍ، كان يمرُّ في الميدان في جولةٍ أخيرةٍ حين تلقّاه أحدهم، أخذ يصبُّ على أذنيه كلامًا غايةً في الأهمية عن قوة وتوزيع التكتلات الثورية هذه الأيام، أو هكذا بدا للسعدني وقتها أنه كلامٌ هامٌّ، فجأةً أُلقيت القنبلة الأولى قرابتهم، تبعها عدة قنابلَ أخرى في محاولةٍ لتطويق الميدان بالغاز، سحبه الرجل سريعًا يصيح بأذنيه أنْ يتبعه لمكانٍ آمنٍ، فما انقشع الغاز حتى أبصر نفسه بين شِقّيْ الرحى!

هدأت الأمور قليلاً بعد محاولةٍ فاشلةٍ من قوّات الأمن لاقتحام الميدان، ممّا أعطى للسعدني مساحةً يُطِلّ برأسه خلالها ليرى الشارع قد اكتسى ببقايا زجاجاتٍ فارغةٍ وأحجارٍ بمختلف الأحجام، أو لعلّها طلقات خرطوش، الكثير من الدماء، وعلمٍ ملقًى على الأرض!

مدّ يده محاولاً الوصول إلى العلم حين لاحظ أمرًا غريبًا؛ الجزءان الأحمر والأسود في العلم قد ازداد حجمهما قليلاً ليخنقا ما تبقّى فيه من بياضٍ! أغمض عينيه بقوةٍ، هزّ رأسه محاولاً التركيز، ثم فتحهما مرةً أخرى ليجد اللونيْن قد ازداد اتساعهما أكثر حتى صارت المساحة البيضاء كخطٍّ فاصلٍ رفيعٍ، أمّا النسر فلم يعدْ له وجودٌ!

أدار عينيه ينظر لما كُتب على اللوحة المختبئ أسفلها، ليرى ما إذا كان الغاز قد أثّر على قدرته على التركيز، مهيئًا نفسه أنْ يرى حروف اللافتة تتراقص تحت تأثيرِ ثقل إدراكه أو تحت ضغط أدرينالين جسده المُفرز بإسهابٍ، فلم يرَ أيّ حروفٍ تتراقص، فقط كلماتٍ واضحةِ المعالم «زهور السعادة، للأفراح والمناسبات الخاصة» منقوشة على اللافتة بخطّ الثُلُث!

ثم أتت الطلقة!

بندقية قناص «ريمنجتون ٧٠٠» طويلة المدى فوق أسطح إحدى البنايات البعيدة، زُوِّدت بكاتم صوتٍ مع رصاصةٍ عيار ٣٠٨ وينشستر، مرّت عبر ماسورةٍ من الاستانلس ستيل لتصيب القلب مباشرةً، تخترق ظهره عابرة

منه نحو الصدر، تكمل طريقها المرسوم بدقة متناهية، يسقط بعدها جسد السعدني صريعًا، تزحف دماؤه نحو العلم، تصبغ قماشه بلونٍ أحمرَ قانٍ يميل كثيرًا للسواد القاتم، ليختفي بعدها الأبيض تمامًا.

قانون رقم «صفر»

اعرف نفسك، وانتصر عليها

لكي تبدأ رحلتك صوب الحقيقة، يجب عليك الغوص داخل أعماق نفسك أولاً

لكي تصل للقوة المطلقة، السطوة الطاغية، العظمة الأبدية، ينبغي أنْ تعيَ نقاط قوتك وكيف تستخدمها جيدًا فيما يحقق لك أهدافك، وأنْ تعيَ مواطن ضعفك بصورةٍ واقعيةٍ لتزيلها من الأساس، تنتصر عليها وتسحقها سحقًا.

حين تدهس نقاط ضعفك تحت وطأة قواك الحقّة، تلامس حينها حدّ الخلود.

٣٠

القاهرة - منتصف ٢٠١٢

داخل مكتب الإدارة الأنيق بالمركز الدولي يجلس شريف، يمسك بيده عدّة أوراقٍ خُطّت بداخلها قوانين شتى، انغمس في مراجعتها عدّة مراتٍ قبل أنْ يمرّ قلمه ليضيف أو يمحو حرفًا ما أو كلمةً زائدةً. عشرة قوانين أساسيةٌ تشكّل دستورًا أبديًا لعشرات الآلاف من الشباب تقبع خاضعةً تحت إدارته الكاملة.

يَحرُم بتاتًا الحديث عنهم صراحةً، أو قراءة نصِّهم الفعليّ لأيّ شخصٍ خارج قوام الفريق الأساسيّ المكون من مائة فردٍ فقط، يكفي مجرد الإشارة للمعنى المسموح به والمقبول اجتماعيًا، فلكلّ قانونٍ وجهيْن أحدهما يمكن شرحه والتحدث عنه باستفاضة، أمّا الآخر فلن يستوعب قوّته ومغزاه غيرهم، لذا وجب عليهم إبقاءه سرًا مقدسًا، حين تمنح الثمين لمن لا يقدر،

تضيع هيبته، هكذا تربّوا في مدرسة السعدني، هكذا نما وعيهم من جديد.

عدة شهورٍ مرّت على مقتل السعدني، أيقونة الثورة الذي ذاب جسده تضحيةً وفداءً من أجل المبادئ، ارتقى شهيدًا في الميدان! تلا ذلك خبرُ القبض على منال عقب حملةٍ موسّعة لاعتقال بعض الناشطين والصحفيين المتّهمين بالحصول على تمويلٍ أجنبيٍّ غير مصرّح به من الدولة، مع شبهة تخابرٍ لصالح جهاتٍ معادية! مكالمةٌ أتتْ من مجهول، مشفوعةٌ بملفٍّ كامل عن أمور قد تفيد تورُّطها في الأمر، أُرسِلت بالبريد للجهات المختصّة.

سبق ذلك كلّه بأيام صدمة منير حين رفضت اللجنة رسالته بدعوى ركاكة موضوعها وعدم منطقيته! لم يكنْ منير يعلم أنّ أهمّ أعضاء اللجنة وأعلاهم شأنًا كان ابنًا لأحد الوزراء في حكومة عبد الناصر، أحد أهمّ المنتفعين من قرابته للنظام الحاكم، من خلاله تسلّق للعمل في الجامعة، وعلى كتفيْه وصل لمناصبه العليا!

أصابت الرسالة الرجل الهامّ في أقسى أعماق لاشعوره، حيث تقبع كافّة الموبقات، أحسَّ في الأمر ما يمسُّ كرامته المهنية، أطلق على منير رصاصة الرحمة فأرداه صريعًا حين أصرَّ على عدم منحه طوق نجاته الأخير!

وحدةٌ تامةٌ هي كلّ ما يشعر به شريف، تعبث بخياله بعض الخواطر دومًا، إلا أنّ أكثرهم طَرقًا في خلايا عقله حين التقى السعدني لأول مرة يوم أنْ كان المخدّر هو كلّ عالمه، لا يفيق إلا ليلقي بنفسه في براثنه مرةً أخرى،

وحين فرغت جيوبه تمامًا لم يجد مناصًا من ابتكار حيلةٍ ما لالتقاط أنفاسه؛ أنْ يلجأ للعلاج فقط لتدبير المزيد من الأموال للتعاطي من جديد!

يلقي بنفسه صوب أحد المصحّات المجانية التابعة لصندوق مكافحة الإدمان، يتحمّل وخز الإبر ولسعات أعراض الانسحاب، وبرغم مرارة التجربة وقسوتها الشديدة، يرى فيها شيئًا جديدًا يرغب في الانغماس فيه مرات ومرات.

في الداخل يمكنه التعرّف على العديد من ولاد الناس ممّن هم على شاكلته؛ والدٌ مغتربٌ يدفع عمره في الغربة لتلبية احتياجات ابنه الغارق في التعاطي، الذي بدوره يردُّ الجميل بأنْ يبدّد سنوات أبيه فيما لا طائل منه! يتحيّن شريف الفرصة لتوطيد صداقته بأمثال هؤلاء، مَن لديهم بقايا أموالٍ لم تنضب بعد، ليخرجا سويًا من المصحة لإكمال المسيرة من جديد! إحدى المرات فوجئ بإعلان المصحة عن تنظيم ندوةٍ مجانيةٍ عن الإيجابية والثقة بالنفس يُلقيها الفتى اللامع في ذاك الوقت حازم السعدني، هدفها تعزيز قدرات المتماثلين للشفاء من الإدمان لقطع الطريق عليهم في العودة للتعاطي مرةً أخرى.

حينها ابتسم السعدني محييًا إياهم بكلّ ودٌ، أخرج من جيبه ورقةً من فئة المائة جنيه فاردًا إياها أمام وجهه، مستفسرًا من الحضور:

- مين عايز ياخد المية جنيه دي مني؟

ارتفعت غالبية الأيادي بلا ترددٍ، البقية لا تزال تغفو في غياهب مرحلة الاستيعاب، طواها داخل جيبه ليخرج ورقة فئة المائتين، يبتسم بودٍّ ليكرّر تساؤله:

- طيب مين عايز ياخد الميتين جنيه دي؟

ترتفع أيادٍ أكثر هذه المرة فلا يكترث السعدني بهم، عيناه هائمتان في العدم تبحث عن شيءٍ ما، يطويها هي الأخرى لتلحق بأختها وسط حسرات الجميع ودهشتهم العارمة من المغزى وراء الموقف، ليفاجَأ الجميع بإخراج ورقةٍ فئة مائة دولار مكررًا سؤاله!

ارتفعت جميع الأيادي هذه المرة بما فيها مشرفي القسم وعمال النظافة، لحظتها فقط نهض شريف بكلّ ثقة، تقدّم دون أنْ يتفوّه بكلمة، مدّ يده لينتزع الورقة النقدية من قبضة السعدني الذي اتسعت ابتسامته لتشمل وجهه كلّه حين عثر أخيرًا على مبتغاه!

إذا أردت أنْ تفعل أمرًا ما، افعله فورًا بلا تأجيلٍ.

ما الحاجة لطلب الإذن طالما ترغب في الحصول على هدفٍ ماثلٍ أمام عينيك! ضعْ القرار في خانة الفعل فورًا ولا تتردد، لا تبدّد جهودك في التفكير إذا ما كان الأمر قد يصلح أم لا. جرِّب وسترى النتائج المبهرة خلال مسيرة حياتك القصيرة، لا وقت مُتّسعًا ليضيع.

فقط شريف كان يتقن ما هو أكبر من إدراك السعدني لحظتها، الصبر

والمجازفة ودقّة التوقيت.

انتظر مليًا ليرى ما إذا كان العرض قد انتهى بعد المائة الأولى أم أنّ هناك خدعةٌ أخرى، وحين لاحت المتنان عرف شريف لحظتها أنّ السعدني يتلاعب بهم لذا عليه الاستمرار، أمّا الدولار فليس بعده شيءٌ، إذن، يجب التحرك فورًا.

ولقدرات شريف الهائلة قرّبه السعدني منه بسرعةٍ خرافيةٍ ليصير بعد أشهرٍ قليلة، ذراعه الأيمن في كلّ شيءٍ! طالما تساءل شريف في قرارة نفسه، كيف لشخصٍ كالسعدني بكلّ هذه الخبرة والمعرفة أنْ يأمن لكائنٍ كان على وجه الأرض، ناهيك عن أنْ يأمن لمدمنٍ حاول الانتحار في السابق، وخضع لعشرات العلاجات بلا جدوى! طوال سنوات عمله لم يجدْ شريف إجابةً لسؤاله، حتى أتاه خبر مقتل السعدني، لحظتها فقط أمسك قلمه ليخطّ قانونه الخاصّ، القانون الصفريّ.

وبرغم وحدته الكاملة، إلّا أنه يشعر براحةٍ تامةٍ، سكينةٌ تغزو روحه وتذيب خلايا جسده. تفلت منه ابتسامةُ رضًا حين يقع بصره على الحائط المقابل، تعلوه جملةٌ حديثةٌ خُطّت بحروفٍ كبيرةٍ:

«تعلَّمْ أنْ تضرب ضربتك بشدةٍ، حين تصل الثمرة إلى النضوج»

قانون القوانين

تحكَّمْ بالخيارات واجعل الآخرين يلعبون بالأوراق التي توزعها

إنّ أفضل الحِيَل هي التي تُعطي للشخص الآخر خيارًا يشعر فيه الضحية بأنّه المسيطر، بينما هو في الحقيقة دميةٌ بين يديك.

أعطِ الناس خياراتٍ تأتي في صالحك دومًا، أرغمهم على الاختيار بين أخفّ الضررين اللذين يخدمان غرضك على حدٍّ سواء، ضعهم فوق قرنيْ أزمةٍ، بحيث يتلقون نطحةً أينما توجهوا.

٣١

مدينة ساحلية -نهاية ٢٠١٢

تلتهم عيناه عناوين الصحف بكلّ فضولٍ.

تسارع يداه تقلّب بينهما بحثًا عن خبرٍ ما، دون طائلٍ. يُزيحهم جميعًا عن الطاولة مستبدلاً إياهم بقدميْه الممدودتين بكسلٍ واضحٍ، يخاطب نفسه بصوتٍ خافتٍ:

- بقى أنا أضيع عمري كله في خدمة البلد دي، وفي الآخر يتنهي بي الأمر هربان ومستخبي من شوية عيال؟ والنصّاب بتاع التنمية البشرية بقالهم سنة في الجرايد والقنوات من ساعة ما اتقتل مفيش كلام غير عن سيرته وبطولاته. الشهيد راح والشهيد عمل. المنقذ مش عارف إيه والبطل اللي مالوش مثيل!

آه لو يعرفوا الحقيقة! على العموم تتعوّض، قريب أوي كل حاجة هتتظبط

تاني، مش مشكلة نستنى شوية كمان.

نهض متثاقلاً يبحث عن هاتفه المحمول، يطلب رقمًا محببًا على قلبه، يذكّره يومًا ما كان، يأتيه الصوت من الطرف المقابل، يبتسم بسعادةٍ غامرةٍ محييًا إياه:

- أيوه يا سعد، فينك يا راجل من زمان؟ بقالي شهور مسمعتش صوتك. عارف يا سيدي عارف من بعد ما رجعت البلد وريحت هناك بين الأهل والأحباب في طنطا واحنا مش عارفين نتلم عليك، شا الله يا سيدي يا بدوي! اسمعنى كويس يا محمدي، قريب أوي هرجع الشغل تاني. إيه رأيك تسحب طلب المعاش اللي أنت قدمته وترجع تشتغل معايا زي الأول؟

يأتيه صوت المحمدي من الطرف المقابل نافيًا أيّ أملٍ في عودته للعمل مرةً أخرى، بعد أنْ اضطرّته الظروف للهرب تحت وطأة ضربات الثوار وتهديداتهم المتكررة له ولأسرته:

- يا وليد بيه خلاص الموضوع ده انتهى بالنسبة لي. بعد قلة القيمة اللي حصلت في يناير عمري ما أفكر أرجع الشغل تاني خلاص، بقى بعد كل اللي عملناه للبلد نترمي الرمية دي؟ أنا أخدتها من قصيرها يا باشا زي ما أنت عارف وقدمت على معاش مبكر قبل ما يستبعدوني ولا يتجنوا في عقلهم ويقبضوا عليا.

لا أنا خلاص قررت أفتح مكتب محاماة، ده غير إني معروض عليا شغل

اليومين دول في كذا قناة فضائية، حاجة كده اسمها خبير استراتيجي، أيوه يا سيدي هبقى نجم زي صاحبك اللي اتصفى السنة اللي فاتت.

ينصت الأسيوطي بكلِّ اهتمامٍ لتطورات الموقف لدى مُساعده الأول سعد المحمدي، مُبديًا إعجابه مِن خطواته المحسوبة بدقةٍ كعادته دومًا، وقدرته على تخطّي أزمته بنجاحٍ. يردُّ عليه من حينٍ لآخر:

- بقى أنت متعرفش اتصفى إزاي لحدّ دلوقتي يا راجل! دانت بتفهمها وهيه طايرة يا عبقري الخطط والحركات! الله ينور عليك، نيران صديقة، ومنال كمان نفس الحكاية. كنت بتابع معاه بقالي فترة كبيرة، تقريبًا من بعد الثورة لحدّ ما اتفقنا على كل حاجة، هوه يسلمني الملف اللي أخدوه من مكتبي، وأنا أخلّص على الاتنين.

قاللي منال بلاش تتصفى ارميها في السجن أرحم، ولما قلتله بتهمة أيه؟ قام باعتلي الملف اللي وداها في داهية. آه وربنا! زي مابقولك كده. لأ واطي واطي، تربية السعدني بصحيح. أسيبك أنا بقى وأبقى أطمن عليك من وقت للتاني، أنت اللي هتوصيني على الأشكال دي برضه يا محمدي؟ دانا راجعلهم مخصوص علشان أدفعهم تمن اللي فات كله. متقلقش خالص من الناحية دي أنت عارفني كويس أوي. يا راجل يا بكّاش بقى أنا اللي قلبي طيب! هعديها بمزاجي. ياللا سلام.

يُنهي الأسيوطي المكالمة وعقله يشرد بعيدًا، يفكّر في جملة المحمدي

الأخيرة، هل طيبته في التعامل مع بعض النشطاء قبل تطورات الأحداث كانت سببًا فيما وصلوا إليه؟ هل كان الأمر بحاجةٍ لحزمٍ وصرامةٍ أقوى ممّا كان عليه قبل ٢٥ يناير؟

هزَّ رأسه بقوةٍ ينفض عنها إحساسه ولو بقدرٍ ضئيلٍ لما آل عليه حالهم جميعًا، فلو عاد به الزمن مرةً أخرى لما وجد في جعبته ما يفعله أكثر ممّا قام به في الواقع.

أمّا عن طيبته المزعومة، فيرى أنها تهمةٌ لم يتورّط بها طوال حياته منذ أنْ تخرّج في كلية الشرطة، تمرّ أمام ناظريه سنوات خدمته الطويلة في الداخلية، فلا يجدُ فيها أيّ واقعةٍ تثبت أنه تعامل بإنسانيةٍ أو شفقةٍ يومًا ما. يرى أنها أمورٌ لم تُخلَق سوى للتقاعس عن أداء واجبه كرجلِ أمنٍ، تلهيه عن هدفه كما تحجب عنه نور الحقيقة.

بالكاد يذكر موقفًا ضبابيًا مرّ عليه من عشرين عامًا تقريبًا، شعر فيه ببعض الشفقة تجاه طفلٍ ما؛ كان ذلك في الماضي، يوم أنْ كان في قمّة شبابه ومجده، بشعره الغزير ونظارته الشمسية المميزة وشاربه الكثّ، قبل أنْ ينتقل لجهاز أمن الدولة فيتساقط شعره تدريجيًا لتحلّ محلّه صحراءُ قاحلةٌ، ويتخلّى مجبرًا عن شاربه ونظارته الشهيرة.

على ما يذكر، كان وقتها ضابط مباحث في قسم شرطة مُنشأة ناصر، يوم أنْ أتاه طفلٌ قيل له إنّ والديه احترق منزلهما في الزلزال في إحدى

العشوائيات، يجلس أمام باب مكتبه بلا مأوًى، تصبغ الأتربة وبقايا الحريق وجهه بالسواد. يعي الأسيوطي تمامًا ما الذي حرّك طيبته الدفينة يومها، احتراق والديْ الطفل أشعل داخل الأسيوطي بقايا ذكرى قديمةٍ تؤرّخ نهاية جده الأكبر، ذلك الحدث الفارق في مسار طفولته قديمًا، لذا توسّط بنفسه لدى إحدى دور الأيتام لقبول الطفل لديهم ورعايته بكلّ اهتمام.

- مرة وحيدة يا محمدي في تاريخي المهني كله اللي طلعت فيها طيب!

هكذا صاح بينه وبين نفسه بانتصارٍ، حين شعر بالرضا عن أدائه طوال عمره السابق كله، إلا أنّ تساؤلاً طفا على سطح ذكراه السحيقة، تُرى ما حال ذلك الفتى الآن؟

هل مازال يقطن الملجأ؟ هل انضمّ لكتيبة بلطجية الشوارع؟ أم أنّه يهنأ بحياةٍ أُسريةٍ آمنةٍ ومستقرةٍ؟

هزَّ رأسه بعدم اكتراثٍ ولسان حاله يقول: «هوه أنا هشغل بالي ليه؟ هوه واللي زيه ملايين كتير ماليين البلد، ما يطلع بلطجي ولا حتى دكتور ولا يروح في ستين داهية، مش هيفرق معايا في حاجة!»

ابتسم بسخريةٍ، نظر للتقويم المُعلَّق على الحائط بنفاذ صبرٍ، يستجدي الأيام سرعة المرور.

تمت بحمد الله

ملحوظة هامة

جميع القوانين المذكورة في بداية الفصول مأخوذة من كتاب (٤٨ قانون للقوة) للمؤلف روبرت جرين، ماعدا القانون رقم صفر فقط من تأليف مؤلف الرواية.

هوامش المعلومات في الرواية:

(١) وقع زلزال القاهرة ١٩٩٢ في يوم ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ عند الساعة الثالثة و ٩ دقائق عصراً. استمر الزلزال لمدة نصف دقيقة تقريباً مما أصاب معظم بيوت شمال مصر -القديمة منها- بتصدعات وبعضها تهدم تماما. بلغت قوة الزلزال ٥,٨ درجة على مقياس ريختر ولكنه كان مدمرا بشكل غير عادي بالنسبة لحجمه، وقد تسبب في وفاة ٥٤٥ شخصا وإصابة ٦٥١٢ آخري، وشرد حوالي ٥٠٠٠٠ شخص إذ أصبحوا بلا مأوى. كان هذا الحدث هو الأكثر تدميرا من حيث الزلازل التي أثرت في القاهرة منذ عام ١٨٤٧ .

ثقافة الزلازل لم تكن موجودةً بمصر لذا انزعج الجميع بشدة وشعر الناس بالهلع لشهور عديدة، فهي أول كارثة طبيعية بمصر علقت بالأذهان وتسببت هذه الكارثة في مشكلات عدة للحكومة المصرية التي لم تكن مؤهلة للتعامل مع الأزمات.

(٢) مقدمة تحقيق صحفى عن الهجرة غير الشرعية - د / أسماء عابد ... بتصرف.

(٣) كاتب وصحفى امريكى من مواليد ١٩٥٩, اشتهر بكتبه الأكثر مبيعا حول العالم فى موضوعات الثراء والنفوذ والسلطة, قيل أنه عمل بحوالى ٨٠ وظيفة مختلفة منها عمله ككاتب في فابريكا وهي مدرسة للفن والإعلام في إيطالياعام ١٩٩٥ ,كما يتحدث خمس لغات , ويدرس الديانة البوذية .

المؤلف في سطور

أحمد إبراهيم أحمد

- أخصائي موارد بشرية وروائي مصرى

- ليسانس آداب علم النفس - جامعةحلوان

المدير التنفيذي لمركز إبداع للموارد البشرية - مصر

- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان - لم تعد - عام ٢٠١٢.

للتواصل مع الكاتب:

الصفحة الشخصية على الفيس بوك

https://www.facebook.com/ahmed.ibrahim.ahmed.mohammed

صفحة العمل الأول - لم تعد -

٢٠٤٢١٩٩٢/https://www.goodreads.com/book/show

الدين الرابع

يعزلهم رويدًا رويدًا عن أية حياة خبروها مسبقًا، بكلّ دقة واحتراف يمحو خبراتهم السابقة ،أحلامهم وآراءهم، يلقي بداخلهم ما يحقّق له ولهم أهدافه القادمة، يَعِدُهم بما تبرق له آذانهم وتذهل له عيونهم. يخطُّ في تلافيف عقولهم الفارغة توًا كلّ ما يراه صوابًا، فلسفةٌ صاغ قوامها من تجليات عدة، ومنهاجٌ أقام أعمدته من تجاربَ انغمس فيها عشرات المرات.

مجرد بذرةٍ يغرسها جيدًا بقوةٍ وعمقٍ، مجرد فكرةٍ يسطرها في عقولٍ تلهث عطشى بحثًا عن هويةٍ ما، يوقن أنها يومًا ستؤتي ثمارها، بعد شهورٍ أو ربما مئات الأعوام، لا يشغله سوى أنْ يطمئن لسلامة البذور ولا يعنيه متى الحصاد.



أحمد إبراهيم

- ليسانس آداب علم النفس - جامعة حلوان
- اخصائى موارد بشرية وروائى مصرى
- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان - لم تعد - عام ٢٠١٢

إبداع Ibdaa للنشر والتوزيع والترجمة
9 789777 790086
تصميم الغلاف : علاء عبد الرحمن